نبيلة الزبير

زوج حذاء لعائشة



رواية

دار الساقي

نبيلة الزبير

زوج حذاء لعائشة

رواية

دار الساقي

زوج حذاء لعائشة

تصميم الغلاف: ماريا شعيب
خطوط العناوين: علي عاصي

الطبعة الأولى ٢٠١٢

ISBN 978-1-85516-334-8

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، ٠، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١ ٠
e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

إلى عائشة

لم يكن هنالك طريق
دائماً كانت هنالك خطوات تبتكر طريقاً.

«لا يستطيع أحدٌ ركوب ظهرك إلا إذا كنت منحنياً».
مارتن لوثر

«الجميع يفكر في تغيير العالم، ولكن لا أحد يفكر في تغيير نفسه».
ليو تولستوي

«كن أنت التغيّر الذي تريد أن تراه في هذا العالم».
غاندي

«كلما كبرت العوائق عظم المجد المترتب على تجاوزها».
موليير

«إذا أحس أحد بأنه لم يخطئ قط في حياته، فهذا يعني أنه لم يجرّب أي جديد في حياته».
ألبرت أينشتاين

أبواب للخروج فقط

١

١٩٩٨

الخامسة من عصر يوم عادي، من أيام مدينة ليست عادية، ربما ليست مدينة، لا تشبه المدن في شيء. يلزمها ساعة، ربما بدأت الآن، لتخلد إلى خدر القات[١] بالكامل، الرجال بمقايلهم، والنساء بتفاريطهن، الأزقة بأطفالها المطرودين يومياً في مثل هذا الوقت.

مدينة تحترم مواعيدها. في الواقع، ليس لها إلا موعد واحد، هو موعد «التخزين». الموعد الذي تجيّر لحسابه كل الأوقات، ساعات النهار للإعداد له، وساعات الليل لآثاره. حتى الذين لا يتعاطونه، تسري عليهم حسابات موعده، إذ يندر وجودهم خارج البيت، بيتهم أو بيت من يزورون. والذين يخرجون في مثل هذه الساعة، هم إما في حالة تخزين، (في

(١) القات : شجرة يقطف الناعم من وريقاتها يوضع قدر منها في الفم ولا يبلع، لهذا يسمّى الفعل «تخزين». يمارسه الرجال في ما يسمّى: مقايل ومفردها مقيل، والنساء في تفاريط ومفردها تفرطة.

السيارات وأماكن التنزه) أي إنهم يخرجون بخدرهم أو طلباً له، وإما هاربون في إجازة مؤقتة من القات. وقد تجد من هم هاربون كلية منه، لكن حتى هؤلاء تسري عليهم شروط هذا الموعد، فتجدهم فرادى وجماعات يضعون أقدامهم على الأرض بما يشبه الهمس، كذلك أقدام سياراتهم. من يقول إن الحادث المروري في الساعة ما بين ٥-٧ مساءً يشبه الحادث نفسه ما بين ١١-٢ ظهراً؟ الأخير قد يفضي إلى إطلاق نار، بينما هو مساءً يعالج برواق، وقد يتنازل أحد الطرفين من دون حتى أن يُطلب تنازله، وقد يخرج المتضرر يده من شباك سيارته ملوّحاً بالتنازل، من دون أن يقف أو يعترف بأنه كان هناك حادث.

كل ذلك يجعل من مرور سيارة بتلك السرعة حدثاً خارقاً للعادة. هكذا تقول لك الوجوه التي خرجت من سياراتها لتعترض على هذا الحدث الذي يجرح هدوء المدينة. أما أن تكون السيارة لبنت! فإن المدينة لا تنجرح في عاداتها فقط بل أيضاً في شرفها. مثل هذه السيارة إذا ارتكبت حادث سير، فلن يرحمها أحد، ولن تعتقها لوجه الله امتيازات هذه الساعة. على العكس، هذه الساعة تحديداً تجعل من حادثها العادي اعتداءً على دعة الناس، في الحاضر الذي هم فيه، وفي المستقبل الذي يخافون عليه. غريب خوف هؤلاء الناس على المستقبل، يشبه خوف جاهلة على طفلها، تشدّه إلى صدرها، فلا يخرج ولا حتى يجرب قدميه في المشي.

إنها متمكنة، والسيارة تحت يدها تشبه العجين تحت يد أمها. استعراضها البراعة كفيل وحده بأن يجرح المدينة.

لن ترتكب حادث سير، رفعت مؤشر الصوت في مسجل السيارة بغناء فرقة WestLife، رفعته أعلى، أعلى، أخرجت رأسها من نافذة السيارة، تستمع لصوت الجاز في الريح التي تصنعها الآن سرعتها. أحد يرقص هنا أو هناك. لم يكن في الواقع إلا وقع عجلات سيارتها الـ B.M.W تنفعل ربما غضباً.

أنهت شارع السبعين، قطعت الستين، بلادٌ كل ذاكرتها أرقام. دخلت ١٤ أكتوبر، تتأمل المباني الجديدة والفلل. التهموا الجبل الرابض هنا، إلى أين يذهبون! انتهت الرصدة(٢) فمالت بسيارتها يميناً.

من المفترض أنها تعرف عنوان العمارة، تعرف العمارة التي تقصدها. إنها عمارتهم، أحد عقارات أبيها الاستثمارية. فلماذا تتوه في الشوارع؟ آخر مرة كانت تجوب فيها هذه الشوارع، أي أمس، ربما أول من أمس، كانت تشير بإصبعها إلى العمارة، تعرِّف أحدهم: هذه عمارتي!

من المفترض أنها اندفعت وساقت سيارتها بتلك الطريقة المجنونة، في إثر خبر هام. ليس خبراً. إنه بلاغ خاص للغاية عن فضيحة يهمّها أن تكون أول من يُشعل فيها ويشمت. فلماذا التلكؤ؟

إنها فضيحة لا تتكرّر، لن تفوّتها «أخوش(٣) الإخونجي

---

(٢) الرصدة: الشارع المغطى بالإسفلت.

(٣) أخوش: أخوك. (في لهجات بعض المناطق اليمنية تقلب الـ«ك» في هذا الموضع إلى «ش».)

تزوج بقحبة[٤]، ويقيم معها في الطابق السادس في عمارة حدة، بيت بوس». طابق سادس! العمارة في الأصل خمسة طوابق، وشققها كلها مؤجرة وتورد إيجاراتها إلى البنك تلقائياً. طبعاً، إذا لم يبن شقة إضافية ينفضح.

أبي لن يكترث للقحبة بل للطابق الذي بُني بالسر!

أما عمتي فستجدها فرصة لممارسة هوايتها في التنكيل بأخيها بسبب فضائحه هو وأولاده. فضائحه لم تعد ذات بال عند العمة، لكن أولاده؛ إنها حلبة سباق: مَن أولاده أفضل من أولاد الآخر، في الفضائح طبعاً.

تصعد الدرج بتثاقل، أصبح لا بد من مصعد ما دامت الطوابق قد صارت ستة. من يدري ربما يجيء أمين ليجعلها سبعة. أما عارف فلا حاجة له كما يبدو إلى طابق ولا حتى إلى شقة ولا إلى سرير. لكن الجنس يحتاج، حتى لو كان مثلياً. هذا إذا صح أنه مثلي. كلها تخاريف من عند العمة.

انتهت السلالم الإسمنتية، انتهت الطوابق، لم يعد غير هذا الفضاء. إنه يتسع لثلاث شقق أخرى، لشقتين فقط، لقد أخذ طارق مساحة شقتين بشقة واحدة. يبدو أنها قحبة عريضة.

وبعد؟ هل ستظل هكذا تدرس المساحات والمقاسات اللازمة للفضيحة؟

إصبعها موضوعة على الباب، على جرس لا يُقرع. لا تريد أم لا تستطيع أن تقرعه؟ كل هذا التردد أمام باب خلفه قحبة! ماذا

(٤) القحبة: العاهرة. وتقال أيضاً للرجل العاهر: قحبة!

لو خرج إليها أخوها؟ قحبة أيضاً. لكن الرجال قحبهم يمرر بأوراق رسمية، بمجرد ورقة يستطيع أن يصفع وجه القانون. قانون؟ القانون لا وجه له، إنه مجرد أوراق كتبها رجال ليتبادلوها على سبيل المكرمة في ما بينهم. حتى «القُحْب»[٥] حق يمارسه الرجل جهاراً، ويحفظه لأشباهه من الرجال. المهم ألا تقرب من أختي. واختك مالهاش نفس يابن الـ. . .

لم ينفتح الباب، لأنها في الواقع لم تقرعه. لكن ما الذي كانت ستقوله لقحبة أخيها لو أنها فتحت. أهلاً أنت القحبة زينب؟ أنا القحبة نشوى، عفواً نشوى قاسم عُبيد. أنت قحبة علناً وأنا قحبة في السر، من منازلهم يعني، أصلاً ما حداً (ما من أحد) سمح لي بأن أشهر قحبي. حتى عندما اصطحبني الطاقم المختص للحجز، كان أهلي في استقبالي. الضابط المختص لم يفعل شيئاً غير أنه سلمني إليهم، لأنهم الأكثر اختصاصاً وحجزهم لا خلاص منه.

تحسّسها كف أخيها في صفعة لم تزل تدوّي على خدها، تَذَكُّرُها تلك الحادثة، كان يكفي لتنجز مشروع الفضيحة هذا. لكنها أعطت الباب ظهرها وقطعت السلالم عائدة. عادةً، الهبوط يستغرق وقتاً أقل.

أقلتها سيارتها ومضت، من دون تبختر أو حتى تركيز يذكر، في مشوار يبدو يومياً أو أشبه باليومي، لشقة برجال كثيرين. الرجل الواحد لا يملأ الوقت، بعد الدقائق العشر الأولى لا يجد

---

(٥) القحب: العهر.

ما يقوله أو حتى ما يفعله. انفتحت الشقة، ثمة رجال كثيرون، ونساء، هؤلاء لسن نساءً، إنهن شراميط لزوم «الطيرافة»[٦].

٢

القسوة ليست كل ما يلزم لرد طارق بابنا بإلحاح. كثيرون يمتلكون من القسوة ما يكفي لبتر اليد الطارقة، وربما الطريق المؤدية إلى بابهم. ليست وحدها القسوة توصد الأبواب، لا بد ثمة شيء أكبر.

انتهت زينب من تلاوة وجع اليوم. لكنها لم تزل تقف مكانها.

الناس يقفون عند النافذة لينظروا إلى الشارع، أو على الأقل إلى الهواء المقابل والضوء. هي وقفت إلى لوحة من الزجاج العاكس يسمّونها النافذة لترى داخلها. النافذة كبيرة، غير صحيح. وستقول لكم إنها في أعلى شقة في مبنى بالغ الارتفاع. المبنى ليس بالغ الارتفاع، بل ليس مرتفعاً أصلاً، لكن ستة طوابق يمكنها أن تبدو شاهقة الارتفاع، إذا كان معظم ما حولها من مبانٍ من ذوات الطابق الواحد. المبنى الذي من طابقين لا يعني بالضرورة أن فيه أسرتين أو أكثر، غالباً هو لا ينطوي على أكثر من رجل بزوجتين. زوجتان أو أكثر. لزوجها مبنى من هذه المباني المترامية تحت النافذة، تبعد بمسافة لا تدري كم. قبالته

---

(٦) الطيرفة، والطيرافة: استمتاع يقارب المجون.

بمسافة لا تدري كم تبلغ كذلك مبنى آخر بزوجة غيرها. زوجها لا يحب جمع زوجاته تحت سقف واحد. هي تقطن شقة في أعلى طابق في عمارته. مهم أن أقول لكم: نوافذ هذه الشقة ليست كبيرة إلا في عيني زينب.

زينب! هذا هو اسمها، أو زينب وبس! ليس لاسمها بقية أو إضافة كاسم الأب أو اسم العائلة مثلاً. المسألة ليست على ذلك القدر من الغرابة، كثيرون منا ليس لهم في الواقع غير أسمائهم المفردة، وما يلحقونه بها من أسماء ثلاثية ورباعية وألقاب، يثبتونه بمادة لاصقة وقد يقع من دون أن يشعروا. زينب وبس. اعتادت أن تقولها وخصوصاً لمن تستلطفهم، فهي بهذا تقول اسمها الحقيقي. لقد كانت لوقت قريب واحدة من بنات كثيرات تمتلك الواحدة منهن خمسة إلى ستة أسماء، بعضهن يصلن إلى عشرة، وعليها قبل أن تخرج في موعدها، أن تحدد أي اسم هو اسمها اليوم، ليس طيلة اليوم، في هذا الموعد تحديداً. المسألة ممكنة التخيّل، ليست صعبة: بنت على أهبة الخروج، حدّدت حقيبة يدها، بقي أن تحدد ما يلزم من حذاء واسم.

تفحصت باطن كفها، قبل أن تدفع بها لتغلق النافذة. النافذة المغلقة كما لبعضنا أن يراها، تأكدت مجدداً من أن يدها ليست عَرِقة، هكذا ستتمكن من محو وجه أبيها، من دون أن تترك يدها وجهاً جديداً على النافذة.

هي ليست قاسية، ورجاء ليست بتلك المحتاجة إلى بيت، يكفي أن لها أبوين حضنهما يحيط بها أينما ذهبت.

بقيت حيث هي، تتأمل صديقتها رجاء الخارجة لتوّها من المطبخ بطبق فواكه. تتأملها وقد جلست قبالة التلفزيون، كأنما هي جالسة في بيتها. كيف تقول لها: لا تزوريني! تغيّرت الحال، لم يعد يصلح أن نكون صديقتين. استحت لكثرة ما أملت عليها الشروط اللازمة لدخول هذا البيت، ومع ذلك بمجرد دخولها امتلأ البيت برائحة الخمرة. ليست مخمورة الآن، هذه الخمرة هي ما بقي في جوفها من سهرة البارحة.

نادتها رجاء لتجلس، زوجك، قالت لها، لن يطب علينا من النافذة، إذا جاء فسيدخل من الباب. ولن يمر أو حتى يلتفت إلى هنا. بمجرد أن يعرف أن لديك ضيفة سيشق طريقاً أبعد إلى حجرته، «زوجش مش بس صنعاني، يعني يعرف التقاليد، زوجش إخونجي يعني يهرب من النسوان!» قالتها رجاء ممازحة لكن زينب غضبت من كلمة «إخونجي». طيب يا ستي مش إخونجي، فقيه وإمام جامع.

لم تكد تجلس، وقفت زينب لتساعد صديقتها في ارتداء ثياب الخروج. المسكينة، لقد أرعبتها بشروط الحشمة، هذه ثياب إخونجية. انفجرت ضحكة رجاء المكتومة منذ ساعات. إنها ثياب الخروج اليومي نفسها. وهذه التي ترتديها اليوم، هذه بالتحديد، خاطتا منها اثنتين ذات يوم. وهي تختار أن تلبسها لهذا البيت تحديداً لأنها مهلهلة وقديمة. منتهى التطرف في احترام الشروط.

نعم، لكن ضحكتك!

يا زينب أنا محتشمة دائماً، مش دائماً، في الشارع بس. أما

ضحكتي اسمحي لي! إنها ثروتي. لو سألوني ما الذي جمعته في سنوات إخلع إلبس هذه، سنوات تبديل الملابس والرجال والمراقص والأسرّة و.. إلخ، أقول لهم: هذه الضحكة.

ودعت زينب صديقتها، أغلقت الباب وهي تذهب بعيداً بسؤالها: كانت هذه فعلاً ثياب الخروج. خروج كل يوم من أي مكان. لم أزد عليها شيئاً بعد توبتي وحتى بعد زواجي. لكن لماذا كنت أشعر وأنا داخلها، داخل الثياب نفسها، بأنني عارية وعريي فاضح ويلفت الجميع؟ هذا هو الفرق: لم أعد عارية!

عادت لتردد في نفسها: لم يعد جيداً أن تظلا صديقتين، ليس بالضرورة لأجل زوجها وبيتها، بل لأن رجاء تبقيها على صلة دائماً بالماضي، ألا يخدش هذا توبتها؟ إنها لم تتب لأجل زوجها أو بإيعاز منه. زواجها وإن كان مهماً إلا أن هناك ما هو أهم منه: توبتها. لقد جاء زواجها بعد توبتها فبدا كأنه هدية من الله. هذا الزواج وهذا الزوج تحديداً هما مكافأة من الله. إن الله يعوّضها عن سنوات شقائها. حمدته ورفعت يدها بالدعاء لصديقتها بالهداية والستر.

هي دائمة الدعاء لصديقتها. لكنها اليوم أكثر حاجة إلى الدعاء لنفسها، والبكاء، أوقعت وجهها بين كفيها باكية. لم يعد للرجال الذين عبروا حياتها ووسخوها لسنين؛ لم يعد لهم وجود ولا صوت ولا صورة ولا اسم، حتى لو جهدت أن تتذكر أحداً منهم لن تتذكره. لكنهم هكذا فجأة يحطون فوق جفنها كبقعة داكنة أو هالات أو خطوط ضوء يتغير لونها تباعاً أسود أحمر

أسود. قد يكون هذا بسبب الزيارات الكثيرة والمتتابعة لرجاء. إنها تجعلني على صلة دائمة بالماضي.

عطرت المكان مجدداً ومع ذلك لم تنته رائحة الخمرة. أية خمرة هذه التي تنبعث رائحتها كأنما من العمأ الأول، من قعر الكون، من الدنّ الأول للخلق. مع أنها لم تكن في ماضيها المطرود تعاقر الخمر. مرات قليلة شربتها عن طيب خاطر، ومرات كثيرة كانت تبوء فيها المحاولات بالفشل، تتقيأ ويقرف زبونها. ليس بيدها، المسألة لم تكن حينها مسألة حلال وحرام. يبدو هنالك خمرة من البارود، لا تطيق طعمها ولا رائحتها ولا الدمار الذي تحدثه في معدتها.

من يقول لزينب التي لم تعد «زوزو»؛ كما يحدث أن تقمع صديقتها حين تسهو وتخاطبها بنداء زمان؛ من يقول لها وهي تعاود رش معطر الجو، أن تحني رأسها إلى جوفها وتشم. لأن الروائح التي تفوح بمجرد تذكّر أسمائها، لا يمكن لانبعاثها أن يكون إلا من داخلنا نحن.

٣

يوم كهذا كله «ماضٍ» متوقع أن ينتهي إلى ذلك الخليط من البكاء والصلاة والدعاء والقرآن. وأيضاً سينتهي إلى التقريع. منذ وقت أنهى زوجها واجباته في الجامع. سمعتْه يسطع في المايكروفون. أقام صلاة العشاء وأمَّ المصلين وحاضر وأفتى ودعا لسائر المسلمين. كل هذا ولم تتم هي صلاتها أو مناحتها. إنه

قادم. قد يوشك على فتح الباب. لن يعجبه أن يراها جاثية على السجادة. لطالما نصحها بعدم الغلوّ في التوبة وحذرها من جلد الذات.

وجهها في المرآة أشبه بخرائب بلدة خرجت لتوّها من سيل جارف. لم يكن وجهها ولا لبسها ولا كلها بأفضل أو حتى بمقبول عند طارق. بمجرد دخوله الشقة ورؤيتها على هذه الحال امتعض. سلّمَ وادعى أنه جاء لأخذ غرض وسيغادر من توّه. طبعاً؛ رجل له ثلاثة بيوت، ثلاث زوجات، ما الذي يضطره إلى البقاء لدى الزوجة الخراب. هل تمسك به عنوة؟ المشكلة أنها لن تنتظره ثلاث ليالٍ أخرى وحسب، بل ثمة ضعف إلى ضعفين إضافيين كفترة عقوبة. أمسكت به عنوة لكن على طريقتها. انقلبت حالها إلى النقيض في لحظات.

هي لا تعرف ولا هو كان يعرف قبل هذه الليلة، ما الذي يمكن أن يفعله تحوُّل امرأة من حطام إلى مانيكان بلمسة زر. انقلاب حالها على ذلك النحو، تسبب له برعشة أقرب إلى رعشة أول مرة رآها فيها في قسم الشرطة. ١/٢٨ كان يوماً فارقاً في حساباته بكل المقاييس.

* * *

لو أن أحداً سألها عن يوم ٢٨ كانون الثاني لقالت إنه لم يحدث، أو هكذا تتمنى الرد. كان يوماً مخجلاً. على كثرة المرات التي دخلت فيها إلى أقسام الشرطة وحتى إلى السجن، أصبحت تلك المرات لا تعني شيئاً. التكرار يفقد الحوادث

الكبيرة مغنطتها، لا تعود كبيرة ولا يعود فيها ما يخجل. لا فرق بين أن تذهب إلى حجرة أحدهم في فندق وبين أن تحط بها سيارة في قسم الشرطة أو السجن. لا فرق بين ما يفعله بها عميل بسلطة المال وبين ما يفعله بها ضابط بسلطة القانون. لا فرق بين الصفعة على خدها وبين القُبلة المغتصبة. هكذا تشابهت المرات وأيامها. لكن ذلك اليوم كان غير كل ذلك، لأنها باختصار كانت قد أنهت كل شيء لتبدأ من جديد. كانت قد شرعت في توبة نصوح وحقيقية. عرّضها الجميع لأشد أنواع التجريب والإغراءات، منحها أحدهم بيتاً لا يدخله أحد (غيره طبعاً) لتصبح - كما قال - رابعته العدوية. منحة لم تستطع حتى أن تُضحكها، لكنها وقعت. المخجل أن الفخ الذي اتسع لها لم يكن يتسع لطفلة العاشرة. المخجل أيضاً أنها ضبطت تلبساً في سيارة. لم تكن أول سيارة تشهد لها ممارسة جنس. هنالك سيارات كانت أشبه بمخيم صيفي، بخدمة وخدم وحراسة، أطقم حراسة بعساكر مدججين يمنعون اقتراب أي غريب، عدا ضيوف الزبون وموظفيه المقربين. كانت الأطقم المسلحة تحيط بهم من جميع الجهات لكن عن بعد. قريباً منهم أفراد راجلون ببنادق معمرة بسواعد مفتولة وخوذ وضراجم[(٧)] منفوخة. كان يُكثر لجميعهم القات كي لا تغفل أعينهم، يوصلون النهار بالليل في حراسته.

خبرت جنس السيارات. كان أكثر أماناً أحياناً من الفنادق.

---

(٧) ضراجم: أوداج.

لكن هذا الذي ذهبت إليه كان فقيراً، كيف غفلت عن هذا. قالوا لها إنه مسكين وأكبر من حلمه أن يتزوج بغانية ومعها فلوس، لكنه يخاف أن تتكبّر عليه. لهذا قابليه، طمئنيه إليك، ولا تكوني بخيلة عليه.

لم تكن بخيلة، بذلت ما في وسعها في سيارة كانت أشبه بـ«شقادف»(٨) متسوّل ينصبها كمكان معيشة، فيها يأكل وينام ويستمني ويسترزق.

بهذه البساطة، ضبطت تلبّساً في سيارة، مع رجل لم تعد تتذكر وجهه على الرغم من الصورة المتلفزة. خجلها لا لأنها ضبطت، فقد اعتادت ذلك طبعاً، ولا لأنها فحصت بالصوت والصورة. إن ما أخجلها في ذلك كله هو أنها خرجت إلى تلك الفاحشة من أعمق نقطة في التوبة. المخجل أكثر كيف صدقت أنها خطوة لا بد منها للتوبة. من يصدق ويرتكب فاحشة بمجرد أن يقال له هذه خطوة إجبارية وأخيرة في سلم صعودك إلى التوبة! ألا تشبه بهذا سجيناً أقنعوه بأن الله لن يغفر له إلا إن ذهب إلى الحج، وأنه كي يذهب إلى الحج عليه أن يقتل الحارس، ويسطو على ما يلزم ليقله إلى الكعبة. صدقتهم، بينما كان هدفهم ضبطها بسابقة متلفزة.

لأنها كانت قد تابت فعلاً كان لاستجوابها يوم ٢٨ كانون الثاني نكهة المرات الأولى وطعم مراراتها. ٢٨ كانون الثاني لم يكن يوماً بالنسبة إلى زينب. إنه لم يزد على ساعتين، الساعة

---

(٨) الشقادف: أكوام متراصة من صفائح الحديد والكرتون وما شابه.

الأولى نسيت معظمها، هي لم تنسها لكنها مخجلة إلى تلك الدرجة. الساعة الثانية هي التي تسترعي النسيان، لكن ألمها لم يزل حاضراً.

٤

لك حاجات يستحب أن تشدها إليك من تحت الطاولة. وإن كانت فوق الطاولة من حقك أيضاً، لكن وضعها على الطاولة يخلق لها باعة ومزاداً وشروط بيع لا تتحقق.

حين لا يكون لقطعة أرض صاحب، يكثر باعتها!

إنه تاجر ويعرف كيف يعقد صفقاته. لكن هذه الصفقة خاضها كما يخوض السماسرة المحترفون مغامرة حيازة عقار سبق بيعه وبالطريقة نفسها سراً. اختار ضابطاً من الدرجة الثانية في الأهمية عند ضباط القسم وحتى عند العسكر، إنه درجة ثانية حتى في المهمات التي يباشرها في القسم. هذا بالضبط ما أراده لصفقته، أن تكون مهمة من الدرجة الثانية وأن تنجز من دون جلبة تذكر. في يوم وليلة تم كل شيء، كما لو كان عملاً روتينياً يتم كل يوم.

في ساعات، لكن متفرقة، من يوم ١١/ ٢/ ٩٨م تم ضبط زينب وإحضارها والعقد بها والدخول عليها. الدخول بها أم الدخول عليها؟ عليها! وبمحاضر رسمية وعقود وشاهدين ووليّ أمر مناوب.

* * *

ليس دائماً تستطيع امرأة الزواج من دون أب أو أخ أو قاضٍ، من دون حكم محكمة يخوّل ضابطاً في قسم شرطة أن يزوّجها. زينب جرّبت مراراً أن تصطحب رجلاً تتزوّجه إلى قاضٍ في حارة وحتى في أقسام الشرطة. حاولت غير مرة لم تكن تضبط معها، هذه المرة فقط ضبطت.

ضابط بقسم شرطة، بتصرفه ختم حكومي معتمد. لقد عقدت لها الحكومة. الحكومة ولية من لا ولي لها.

كان في حقيبة يدها بطاقة شخصية وجواز سفر عليهما صورتها. لكن الاسم! لم يكن لها من الأسماء الأربعة الممهورة بها شخصيتها غير الاسم الأول المفرد، الأسماء الثلاثة التالية لاسم «زينب»، كانت هبة الرجل الذي رغب في اصطحاب جسمها في واحد من أسفاره.

بادرها الرجل الذي سيصبح زوجها، الرجل الذي هو الآن الطرف الأول وربما الوحيد في العقد بالفتوى. هذه ميزة أن تتزوّج الواحدة بمفتٍ، يصبح اسمها المفرد والوحيد يصطبغ بالشرعية والكفاية. يوم الحشر، قال لها، الناس ينادون للحساب بأسمائهم الفردية وأسماء أمهاتهم. إنه اليوم الأحرى بأقوى الوثائق وأدقها وأكثرها صدقاً.

هل كانت أيامها كلها يوم حشر!

إنه حتى لم يسألها عن اسم أمها، ولم يحشره أحد في العقد. اسمها وحده يكفي. ومع ذلك ولا تدري لماذا أضيفت إلى اسمها في العقد بضعة أسماء إضافية ليصبح رباعياً. اسم غريب ومجهول.

ظلت رجاء تطرق على هذه النقطة نفسها. كأنما لتقرع في أذن صديقتها أجراس الخطر الكامن: اسم رباعي آخر، منحة رجل آخر للمهمة ذاتها. تصر رجاء على ألاّ فرق بين الرجلين. الرجل السابق على الأقل دفع اسمه الممنوح لأن يكون وثيقة شخصية معتبرة.

لم تكونا وثيقتين مزورتين، بطاقة إثبات الشخصية وجواز سفرها.

رجاء تلفت إلى قضايا لا تكترث لها زينب، وخصوصاً في ما يتعلق بالمال والإرث. اسمك السابق هو شخصيتك المثبتة في السجلات الرسمية. يستطيع أي شخص أن يزجك في السجن بتهمتين اثنتين: زنى وانتحال شخصية. لا القاضي الذي عقد لك ولا الزوج طبعاً ولا أحد غيرك تطاله شبهة الزواج غير الرسمي هذا.

* * *

حتى رجاء تقدر على تصدير الفتاوى! ما هو شرعي وما ليس شرعياً. ليس من المستبعد أن تقول لها: زواجك باطل وحرام! وأن تحشد لها جماعة من الشرفاء يتظاهرون وترتفع أصواتهم بالهتاف المندد: زواج زينب باطل.

لزمت رجاء الصمت. لا يحق لها فعلاً. من كان مثلها كيف له أن يحوز ثقة الآخرين وتصديقهم حتى حين يقول لهم: اليوم جمعة. فإنهم يلتفتون إلى أحد يسألونه هل اليوم جمعة؟

لكن أهم ما ثبت لرجاء يومها يتلخص في العبارة التالية: كل ما تفعله بائعة هوى بشكل أو بآخر هو كبيرة من الكبائر. حتى النصيحة مشكوك فيها، ربما كان فيها شيء مضمر، شيء خبيث، ربما فكرت صديقتها أنها تريد هذا الزوج لنفسها. من يدري! والمهم أن كل شيء تفعله بائعة أو حتى تقوله هو باطل، وفي أحسن الأحوال هو كلام عابر غير مهم وغير ضروري، لا يقوى على إقناع أحد بكارثة.

الكبائر والفاحشة والفتنة وحتى الرذيلة، كلها أسماء لامرأة خطرة. لنثبت هنا، عند هذا المعنى. ما لنا وللإخلاص، إنه سلعة لا تنزل بها إلى السوق إلا مقامرة أو حمقاء. هنالك سلع احتُكرت وثُبّتت باسم تجار معتمدين، وأنت بائعة، تذكري ذلك دائماً، لست تاجرة، أنت بائعة. لكن ما الفرق بين بائع هوى وبين تاجر يشتري جنساً بعقد فبركه له ضابط شرطة؟

* * *

تاجر بالوراثة. تجارته هذه التي لم تصر بعد تجارته الخاصة، وقد لا تصير أبداً، وقد لا تنتقل إلى ملكيته الخاصة، ولا يتذكر أنه سعى لذلك فعلاً. تجارته هذه التي لم يزل للورثة حق فيها وحتى في ربحها، على الرغم من أن لا أحد تقريباً يعمل أو يشاركه عمله فيها، وخصوصاً بعد غياب أخيه أمين، أما أخوه الأصغر عارف فهو هلفوت.

تجارته التي تشبه عمارة هائلة أو شجرة معمرة لها فروع في حقول بعيدة ومترامية. لا أحد يعرف كيف تحافظ هذه العمارة

على بنيانها بل وتطاولها في البنيان. الشجرة التي لا شك في أنها لم تنبثق دفعة واحدة، لكن فروعها التي في أماكن بعيدة ومتعددة تقول إن ثمة معجزة أو إن مشيئة إلهية هي التي أنضجتها، وهي التي تحفظها، يقطف منها الجميع كيفما اتفق ومع ذلك لا تعطب. تجارته هذه التي تشير إليها الأصابع منسوبة إليه فتبدو هكذا: «تجارته»! يستغرب: لماذا؟ ليس فقط لأنه لم يزل هنالك الورثة، بل أيضاً لأن أباه لم يزل هو المالك وعلى رأس تجارته!

الغريب أن أباه الذي لا شك في أنه بجهده تأسست هذه التجارة وبهذا الرسوخ، لا يحضر متجراً ولا يمسك قلماً إلا «ليسنّد»[٩] بما تسلمه من مال خارج الحصة المقررة له، مثله مثل كل الورثة. متاجر لم يرد لها أن تصير يوماً شركة، بل ظلت هكذا نثاراً. هي وما تدرّه من مال تشبه أمطار هارون الرشيد، يقول لها: أمطري حيث شئت سيأتيني خراجك. وفي المدّة الأخيرة أصبح لا يتردد على المتاجر، كأنما تحددت علاقته بها عبر البنك، يأخذ حصته منها مثله مثل كل الورثة.

كل ذلك، ولم يفكر يوماً بنهب هذه التجارة المشاع. هل لأنها محفوفة بمشيئة الله؟ تجارته! ألا يكفي أن الجميع يسمّيها تجارته. إنها تصبغ عليه صفة «القادر» لا يدري على ماذا؟

تجارة تشبهه. تأسست أيام الممكن، من دون فساد يذكر. مخازن للأقمشة، مخازن للحبوب، لقطع غيار السيارات، للخشب، لمهربات الأجهزة المنزلية والإلكترونيات، مخازن

---

(٩) يسنِّد: يكتب ورقة تسلّم بمبلغ من المال ويوقع عليها.

للحديد، للأسمنت، لمواد البناء، للتبغ[١٠]، للسلع التموينية، لمواد التجميل والعطور، و. . . كل ما يخطر ببالك وبالإمكان تخزينه، كل ما تتطلبه السوق ويسهل جمعه وتحويله إلى بضعة عمال ومفاتيح. مخازن، الفائض من ربحها يصير تلقائياً عقارات استثمارية.

هو أيضاً، مخازن كثيرة لم يحدث أن جمعها إلى رجل واحد. مخازن لم يحدث حتى أن فتشها. ولا يستطيع أن يجزم بأنه من الرجال الذين يسلمون مفاتيحهم للنساء. ربما ليس رجلاً بمفاتيح. نساؤه قد يكنَّ بعض خزائنه، وربما هنّ كل خسارته.

من يدري؛ هذا الرجل الذي تزوج ثلاث مرات، ربما لم يلتق امرأة قط!

قبل أن يرنّ جرس الهاتف، كانت عيناه ترافقان مؤشر الثواني في جهاز المنبه الموضوع على طاولة مكتبه. تمت الثانية عشرة. لم يزل الهاتف يرن. نهض للوضوء. بعد دقائق عاد ليحمل «كوته» على كتفه، ليمضيا إلى الجامع، ليقيم الصلاة ويؤمّ المصلين. هذه تجارته.

* * *

أبوه قاسم جل فخره أنه رجل عصامي. لا يكفّ يسرد على أبنائه وغير أبنائه القصة نفسها. قصة ليس لها تفاصيل محددة،

---

(١٠) مخازن التبغ. . ألغيث لتصبح بأمر أمين مخزناً للتمور والعسل والحبة السوداء، تجارة أهل الجنة.

ولا يستوقفه عند سردها أحد. عصامي أسس ثروته بنفسه منذ حجرها الأوّل، لم يُعِنْه أبوه «بمليم واحد» وإن كان لا ينسى لأبيه «عُبيد» فخرين اثنين، الأول: أنه من دستوريي ٤٨م الأحرار؛ لقد ورث نضاله السياسي عن أبيه، والثاني: أنه دفع به إلى الدراسة في القاهرة. في الواقع أنه بعث به أساساً إلى عدن، لأنه سمع عن تجارة رائجة، تهريب أسلحة ترد عبر البحر، يمررها تجار من المناطق الوسطى لتغمر صنعاء. هذه من التفاصيل التي لا يقف عندها قاسم. والأرجح أنها لم ترد مرتين. أما سيرة أبيه لـ٤٨م، فلا بد من أن تفاصيلها وقعت عنه سهواً، أو أنه تجشأها ذات «سكرة»!

شيئان لم يتاجر فيهما البتّة، ويفخر طبعاً بذلك: الأسلحة والخمور. لا شيء يمقت تجارته أكثر من الأسلحة، ويلعن تجارها. لا تنسوا أنه مناضل ويحق له أن يلعن. حين بعث به أبوه أواخر سنة ٥٩م إلى عدن كان ساذجاً. هذا لا يعني أن الأسلحة لم تكن تجارة رائجة كما قال له أبوه، على العكس، كانت في أوج استعارها. لكن يبدو أن الأسلحة ليست سلعة؛ الأسلحة ليست سلعة. إنها غانية. وليست أية غانية، إنها الغانية المتمرسة واللعوب، إنها تختار تجارها بمزاج. قادرة، لا يقدر عليها إلا غول. لكن من دون أن يلامس تلك الغانية، ربما بمجرد تفكيره فيها، في صعوباتها، وبلمحة لم تزد عن ثانية، تكشفت له أسرار القدرة. لن تستطيع أن تكون غولاً، تطبق بقبضتك على كل ما أمامك وكل من أمامك. وأن تدخل تجارة الأسلحة من باب «الكسر» معناه أن تظل طوال حياتك فأراً. فأر

يتنقل من جُحر إلى آخر. جحور لا تصلح حتى أن يسمّيها الواحد مخابئه، لأنه في الجحور ذاتها يجري صيد الفئران. ثوان استشرافية تَمرَّرَ خلالها شريط حياته القادمة، التي سيبدأ تسجيلها بمجرد أن يقرر. وقرر فعلاً. سيتاجر في «الكسر»(١١)، كسر كل شيء ما عدا الأسلحة. كل شيء بلا استثناء. سلع يجمعها من السوق، ليعاود تصريفها في الوقت والسعر المناسبين. في كل تلك السلع والأسواق هناك دائماً لقمة يدسها خلسة في فم غول. لقمة سهلة ويمكن إعدادها بمجرد البحث في سوق، ببضع جولات يعرف ما هي السلعة التي على وشك أن تشح في السوق، يجمعها كلها. إنه بهذا لا يفعل شيئاً خطراً، فقط سرّع في اختفائها ليومين ثلاثة، ثم تعاود قطرات منها الظهور للظامئين فقط، للذين يجرون خلف الماء. هم في الحقيقة يجرون خلف ظمأهم؛ ظمأهم هو المزاد الذي سرعان ما تُثبت عنده أسعار الكسر لترتفع على مهلها أسعار الجملة. حين ترتفع يكون قد اشترى كل ما بقي في مخازن الجملة، سواء المخزّن منذ وقت أو المستورد لتوّه. الضربة هي حين يصدق «الغول» السوق، ويستورد السلعة بكميات هائلة. في هذا التوقيت بالضبط يبدأ قاسم بالبيع، ليس منفرداً وبظهر مكشوف، إنه في الواقع لا ينافس ولا يبيع شيئاً، لا يعلن نفسه بائعاً لشيء، إنه يخترق سرب موزعي السلعة الأصليين ويسبقهم إلى تجار الاستهلاك،

---

(١١) الكسر : المفرد من السلع. يجمع أنواع السلعة الواحدة بتنوع جهات صناعتها وإنتاجها.

يغريهم بعرض سعر أقل إذا كان الدفع فورياً، أما الآجل فيدعه للغول.

في بضع سنوات جمع من الثروة الكثير. قبل أن يتم العقد كان يحتكم على ما يحتكم عليه غول أو غولان. لكنه ليس غولاً، رفض أن يصبح غولاً، ليس من قبيل الترفع طبعاً، لكنه عرف باكراً منذ أول غانية وأول سوق، منذ أول غول؛ عرف حجمه وما يقدر عليه. رحم الله امرأً عرف قدر نفسه. عرف أنه ليس بالمال وحده يتغوّل الذين يتغوّلون. هناك شروط أساسية ولازمة للتغوّل. ثم إنه مناضل وثوري ويكره أكثر ما يكره أولئك الذين يتنفذون من خلال سلطاتهم ومناصبهم لجمع الثروة. لقد عمل في القطاع الحكومي عمراً وفي مناصب مهمة، ومع ذلك يتحدى أن يشهد عليه أحد بالسوء. لقد كان نموذجاً في التزام القانون، ونظافة اليد، والنزاهة.

التزام القانون؟ نعم. نظافة اليد؟ ربما. لكن النزاهة! غير واضح إلى الآن ما إذا كان التزامه القانون بسبب من النزاهة، أم بسبب الخوف؟

العلاقة ملتبسة بين النزاهة والخوف، المسافة بينهما غير واضحة. الأمر نفسه في العلاقة بين الجريمة والخوف.

بعد عشرين سنة ربما، وبتصاعد متسارع جداً، تغيّرت المقاييس والشروط اللازمة للتغوّل. هو لم يتغيّر، فقط تسارعت أنفاس القصص التي يسردها، وعدد مرات السرد.

الخمور أيضاً لم يتاجر فيها، لا جملة ولا كسراً. لكنه لا

يتوانى عن جمعها من أي مكان وفي أي وقت. لا ليبيعها طبعاً بل ليشربها.

قبل ثلاثين سنة، ووسط جمع غفير من الأصدقاء والقوارير، صاح به أحدهم وهو يشوح له بيده: «إياك يا قاسم ثم إياك!» وسط سكوت الجميع وترقبهم واصل: «إياك وتجارة الخمور. ستخسر كل أموالك، كلها. لأنه لن تنزل شحنة الخمر من ظهر المركب إلا وقد شربتها كلها!» ضج الجميع بالضحك، ظنوا أنه يحذره من الحرام، أو من مصادرة الحكومة.

منذ ثلاثين سنة، وهو يسرد القصة نفسها. ليست قصة. إنها مجرد دعابة، لكن سردها من دون تغيير لثلاثين سنة، هنا تكمن القصة. في أنه سرد واقعة لا تتغير تفاصيلها كل مرة.

٥

هل لأن امرأة واحدة لا تكفي لكل هؤلاء الرجال؟ أم لأن هذه المرأة الواحدة لا تشعر بالكفاية في علاقاتها؟ تنقل فراشها من رجل إلى آخر، لا تشبع. تعدده، تجمع بين أكثر من رجل في فراش واحد، لا تشبع. تبدله من رجل لامرأة، من امرأة لرجل، لا تشبع. إنها لا تلتذُّ. أصبح هذا واقعاً ملموساً، لكنها تستميت في مطاردة اللذة، بمضيّ الوقت نسيت ما الذي تحاول أن تحصل عليه. ما الذي هنالك للحصول عليه؟ ثمة شيء ناقص وكفى. ربما هذه هي المتعة، ألاّ نجد وألاّ نكف عن مطاردة ما لا نجده.

حين جرعت الخمر أول مرة كان ذلك على سبيل التجريب، سرقةً من خزانة أبيها. في اليوم التالي مباشرة ذهبت إلى الخزانة نفسها بقناعة أنها أدمنت. وستبقى هكذا لسنين، تنقل كأسها في القوارير وتبكي، لأنها لم تذق يوماً لذة السكر.

تبكي وتغني: من جوّعه المكان كيف لمكان آخر أن يشبعه. غير صحيح هذا. على الأقل بالنسبة إلى نشوى، من الذي يقدر أن يصل إليها الآن، في هذا الهوام الذي هي فيه، ليسألها: هل جاعت يوماً؟ من لم يذق الجوع كيف له أن يشبع!

قولوا لها: الخواء شيء والجوع شيء آخر!

الخواء يعطل لذة الجوع.

لا تريد أن تسمع، لتظل هكذا تهيم وتغني: الشبع غاية الميتين، الذاهبين إلى موتهم، الذين لم يعد لديهم ما يفعلونه غير أن يموتوا. لا تنسوا أن تشبعوا موتاكم. لستم في حاجة إلى أن تشبعوهم، ليس لأنهم ميتون، بل لأنهم شبعوا. لا توقظوا ميتاً لتسألوه هل شبع، لأنه لو لم يكن قد شبع لما مات.

نشوى لا تريد أن تشبع. لا تريد أن تموت.

لكن نشوى تعطل لذة النشوة.

أنا نشوة أبي. أنجبني لحظة سكر. أبي لا يقرب الجنس إلا سكران. أبي لا يفيق من سكره، أشَرب الخمر أم لم يشربه. في لحظة سكر سمّاني نشوى. نشوته! كان يناديني هكذا؛ نشوتي! وظللت نشوته، دلوعة بابا. الوحيدة المستجابة طلباتها بلا نقاش، الوحيدة التي يحق لها أن تخرق خلوته. تدخل حجرته وقت تشاء، ولا تستأذن. حتى حين يكون في حجرته الخاصة باستقبال

الضيوف، حجرة المقيل الأصغر، لا تطرق الباب ولا تقف عنده أو تتراجع إلى الخلف لأن أباها عريان، لا شيء يستره غير ملاءة. إنه وسط الحجرة، فوق السجادة امرأة مفتوحة الفخذين، وهو بينهما، فوقها، يضاجعها ولا يتوقف لأن أحداً دخل الحجرة. إنها نشوى تقف على مقربة منهما. يدرك أنها دخلت لكنه لا ينهرها. لقد اتخذها حارسة وأمينة سر. لا يُنهر الحراس وأمناء السر لمجرد وقوفهم بكل أدب على رأس رجل وامرأة يضطجعان. ثم إنها تعرف، هذه مهمتها، تقف بباب البيت في انتظار زائر أبيها، الذي هو ليس أكثر من امرأة بزي رجل. يستر رقبته إلى منتصف وجهه باللُّحْفة[١٢] الملفوفة بتفنن حول رأسه. ترحب بّالزائر، تتقدّمه ويسير خلفها، تفسح الطريق، كأنما تنوب عنه في الكلمة التي لا بد لرجل من أن يقولها عند دخوله بيتاً ليس بيته، ويظل يكررها من درج إلى أخرى «الله، الله» ليبعد نساء هذا البيت عن طريقه. تظل تتقدمه وتخلي له سلالم البيت وممراته، إلى أن يصل إلى حجرة الضيوف، مخدع والدها مؤقتاً. وكي لا يدخل أحد تقف حارسة. من الذي يمكنه أن يدخل حجرة فيها رجل غريب، إلا إذا كان من ذكور العائلة. لا ذكور هنا غير إخوتها. وهؤلاء مغضوب عليهم دائماً. لا ينالون رضى الأب إلا حين يريد، أقصد حين يفرغ. نشوى ابنته المدللة، وسنها الصغيرة تسمح بالدخول إلى الغرباء. لعلّه كان يطمئنه أن تدخل. دخولها يقطع شك الآخرين في أن ثمة شيئاً غريباً يحدث.

---

(١٢) اللُّحفة: قطعة مستطيلة من القماش. جزء من لباس شعبي للرجال.

الجميع كان يعرف. لا أحد يجرؤ على الاعتراض. ربما كان مكسباً بالنسبة إليهم أنه لا يزال يكترث لهم ويفحش في السر. لقد كانوا يتواطأون، لأجل أن تظل فاحشة رب البيت عند ذلك القدر من السرية. جميعهم استعمل نشوى حارسة لمكاسبه.

أمها كانت تعرف ما الذي تراه ابنتها وتسمعه في حجرة أبيها. طوال السنين وهي تشكو صبرها على زوجها وفحشه، ولا تنسى أمام كل واحد تشكو إليه، أن تستشهد بابنتها: نشوى رأت وسمعت. اشهدي يا نشوى!

نعم أشهد؛ رأيت الرجل الذي كان طوال الوقت زوجك. لكنني لم أر أبي! ورأيت المرأة التي كانت طوال الوقت زوجة. لكنني لم أر أمي.

لقد عشت في بيت من التجار والتجارة والمصالح المحفوظة والمحترمة. كلما لمست تقدير الناس واحترامهم وإعجابهم وحسدهم لهذا البيت. أستغرب؛ أإلى هذه الدرجة أتقنت دوري! فأين نصيبي في الغلة؟

* * *

أطبقت رجاء سماعة الهاتف على رجل تعشق صوته. جلست تتأمل فعلتها هذه، في حرفةِ الأفعالُ فيها محسوبة، ليس بالسنتيمتر ولا بالمليلتر ولا بالأوقية ولا بالترمومتر ولا بالدرجة المئوية ولا بالفهرنهايت ولا بمقياس رختر ولا. . . على الواحدة هنا أن تبتكر مقاييس تخصّها، في هذه الحرفة الخطرة، التي

للسوق فيها قوانين مثل أية سوق. لكن ليس للواحدة فيها أية حقوق أو أية ضمانات.

عادة ما تكون أسئلة البيع والشراء محصورة. وتزيد وتنقص بحسب الشخصين: المشتري وفلوسه أو ما يدفعه ثمناً، والبائع وما يعرضه للبيع. هل باعك أحد شيئاً لا يملكه؟ هذا ليس بائع هوى، إنه نصاب. لكن ليست هذه هي المشكلة. سؤالي: هل حصلت على ما باعه لك، والذي لا يملكه، ولا وجود له أصلاً؟ إذاً أنت البائع هنا. أنت بائع هوى!

في دكان للخضروات والفواكه لا يتوقع البائع أن يسأله أحد عن مقص أو علبة كبريت أو حتى علبة صلصة. إنه دكان للخضروات والفواكه. على السؤال أن يقف عند حد الخضروات والفواكه. وهنالك باعة يثير نزقهم ويقرفهم أن يسألهم أحد عن فاكهة ليس موسمها. غبي هذا؟ أم مستظرف! عموماً وفي ما يخص الفاكهة، وبحدود ما عرفته في حياتي من دكاكين وباعة ومشترين وفاكهة، لم أر أحداً يسأل عن فاكهة في غير موسمها.

ولا الفاكهة في موسمها تحظى بالسؤال اللائق. تحدَّد سؤال الفاكهة أكثر من اللازم. سؤال الفاكهة اختُصر إلى مجرد إشارة ورقم: هذا بكم؟

وقد يغادر الزبون من دون أن يشتريها! لباعة الفاكهة حق أن يتبرّموا. أعرف دكاكين فاكهة كثيرة أقفلها أصحابها، وأخرى كثيرة اكتفى باعتها بعرض الخضار وبيعها. وحتى هذه تحدَّد سؤالها لدرجة تنذر بتلاشيها: البعض لا يشتري من الخضار اليوم إلا ما جاء ليشتريه أمس، الخضار نفسها التي اعتاد أن يشتريها في

الأيام السابقة وربما في الشهور والسنوات السابقة، لتصبح المسألة اعتياداً.

في النتيجة الخضار طبخة، أكلة، وجبة. ممكن وعادي ألاّ نطبخ شيئاً غير العادة. لكن الفاكهة شهوة. يبعث على القلق أن يقف أحدهم قبالة السينات والعينات والميمات من الفاكهة، لا يسألك عنها، يقفز بسؤاله إلى «ش»! يرى أمامه التفاح، البرتقال، الرمان، العمبرود (الكمثرى) يسألك: بكم البطيخ؟ هل ترى أمامك بطيخاً؟ ليس موسم بطيخ!

بكم البطيخ. يجيب البائع؟ أم يجن؟! إنه سؤال خارج الأسئلة، ولا يمكن أن يكون طرحه إلا من قبيل الخبل أو الاعتداء المتعمّد. لم يسأله مثلاً: هل يمكن أن أجد عندك بطيخاً؟ أين يمكن أن أجد بطيخاً؟ متى يجيء موسم البطيخ؟ متى أجيء إليك؟

هذه بالضبط مشكلة رجاء مع زبائنها في دكاكين الهوى. عموماً لا يصبح الواحد يتجه بحاجته إلى بيت دعارة، إلا حين تكون هذه الحاجة بطيخاً.

نوع من بطيخ لا موسم له وبالتالي لا أحد يناله.

لكنه لذيذ، هذا النوع من البطيخ هو ما تعلمت صناعته في بيوتات الهوى. (يخيّل إليها أحياناً أنها في ملجأ لكثرة ما يرد إليها من رضّعٍ وتائهين) والمسألة ليست أكثر من وصفة. هناك مادة أساسيةٌ خام من أجل هذه الوصفة هي: «لا». ما بقي هو أكسسوارات، من صبغات ونكهات ومحسنات. لكن هذه الأكسسوارات مهمة، لأنها بالإضافة طبعاً إلى طريقة تتبيلها أو

طهوها وطريقة تقديمها، كل ذلك يعني أنك تقدمين وجبة هي فعلاً شيء آخر وجديد، غير ذلك الذي كان الزبون قد ذاقه في زيارته السابقة. والمهم ألاّ يشبع. وإذا كان في طريقه لأن يشبع أوقفيه، تدخّلي في اللحظة المناسبة كي لا يشبع.

بكل ذلك مجتمعاً يظل الواحد من هؤلاء يطاردها طوال الوقت.

لا مشكلة تصادفها في ذلك. لا مشكلة أبداً إلا حين تشتهي «س» من الناس، حين يصبح «س» هو فاكهتها المشتهاة. وليست معطلة الرغبة كي تؤجله.

وضعت سماعة الهاتف من يدها. كانت قد رفعتها لتهاتف «س». بحسبة ما لن تطلبه الآن، ولا بعد قليل. حتى حين يهاتفها آخر النهار ليؤكد موعده الليلة، سيجد تليفونها مشغولاً. التليفون مشغول طوال الليل. هذا يعني أنها ارتبطت بشريك غيره!

سيجن. وهي كذلك!

٦

رجاء لا تحب أن تقصّ حكايتها على جلساء الليل. إذا كانت حكايتها تلك بدت هزلية ومدرة للشفقة لرفيقات المدرسة والمدرسات والأساتذة. الشفقة التي تعني وضع هذه البنت في خانة الحالات الخاصة، الحالات التي قد نعطف على أصحابها، لكننا لا نقرّبهم منا، ولا نعتدّ بهم فيمن نعتد به من المعارف

والأصدقاء. إذا كانت حكايتها بدت معيبة أمام أولئك، فكيف بهؤلاء الذين يخيّل إليهم أن كل ألم ينكشف أمامهم هو لاستدرار مزيد من الأجر. الأجر ليس المثوبة من الله بل الفلوس.

إلى اليوم وبعد كل تلك السنين، لم تستطع أن تفهم ما الذي يدفع إلى الضحك في أن أباها كان مقاولاً، وفي أثناء عمله في إحدى البنايات وقع على ظهره، وأصيب بكسور تأثر فيها عموده الفقري، ليس لدرجة الشلل، لكنه مكسور.

هو لم يكن مقاولاً بالضبط. هل هنا مكمن الضحك؟ كان المقاول الذي هو صاحب العمل يثق بخبرة مساعده الذي هو أبي، إلى حد أنه يدع له التنفيذ في هذا الموقع أو ذاك من الألف إلى الياء، وينشغل هو بموقع آخر. كان أبي يتسلم الموقع قطعة أرض، يسلمه مبنى بمفاتيح.

لم يكن هو المقاول، أي مالك العمل، لكنه كان يقوم بعمل المقاول كله. ووقع على ظهره. لم يعد يقوم بأي عمل. بل إن فترة علاجه وأدويته التي امتدت سنوات اضطرته إلى بيع كل ما يملك، سيارته ومصاغ أمي والبيت والعفش.

حكاية لا تصلح أبداً لأن تفرش بها الواحدة سرير زائرها.

مع الوقت نسيت هذه القصة. هي لم تنسها في الحقيقة، لقد وضعتها في البراد. يبدو؛ البراد كان «تقليد»! الأصلي باعوه في العفش. بمضيّ الوقت تعفنت القصة.

كنا أربعة، بالأبوين نصبح أسرة من ستة أفراد. كان هذا قبل الحادث. لكن بعد سنوات صرنا عشرة. يبدو أن هناك نوعاً من

كسور الظهر يؤدي إلى إنجاب الأطفال بكثرة. هذه بالذات لا تصلح لأن تقولها الواحدة لزائرها، وخصوصاً إذا كان غنياً. وخصوصاً أكثر إذا نصّب نفسه عشيقاً. عندما تدخل المسألة في«العشقنة» تطير لقمة العشرة أفواه. ولا سيما إذا كان هذا العشير غنياً، يصبح كل همّه طوال الأيام والليالي أن يثبت أنه: مش أخبل.

أنا أحببت مرة واحدة. لكن مش أي مرة، ولا أي حب، من داخل داخل دماغي. هذا بالنسبة إلي. لكن هذا الحب نفسه عند أناس محترفين، لم يكن أكثر من حبة فاليوم أذهبوا بها ذهن شخص، ليسهل نقله من بيت دعارة إلى الآخرة! أنا وديت حبيبي في ستين داهية. ليست هذه قصتنا الآن. ما أريد أن أقوله لك هو أنني عرفت الحب. أن الحب ممكن حتى لو في بيت دعارة. المشكلة، لم يكن بيت دعارة، كان بيت مجموعة من الكادحين، يتقاسمون أجره الشهري في ما بينهم. كلهم جرفوا في تلك النقلة، لكن ليس إلى الآخرة. بعضهم خرج من السجن بمجرد تليفون. ومنهم من أُطلق من فوره، بمجرد أن أخرج يده من جيبه، ليست فارغة طبعاً.

كنا نتكلم في الحب. ما الذي كنا نقوله؟ نعم؛ الحب ممكن. الوقوع فيه أسهل من الوقوع في النوم. لكن ليس في سرير كهذا. ليس مع رجل كهذا. رجل، هو اليوم يجيء إلى موعدك، يجيء بنفسه، لكنه غداً يرسل حارساً للمجيء بحبيبته. إذا وصلت فذلك معناه أنه حارس جيد. وإذا لم تصل، بسبب الحارس طبعاً، فذلك معناه أنها شبطت به، أو أنها أغرته فاستأثر

بها. مهما يكن السبب فمعناه دائماً واحد: أنها بنت سيئة. فرصة لننساها.

اذهب يا «س»! أنت ابن حكومة. وابنٌ مهمٌ وبارٌّ ومطيع. لن يسمح لك أهلك بالاقتران بغانية علناً وطوال الوقت.

كانت هذه هي المرة الثانية التي تفوّت فيها عرضاً، ربما؛ أقول قد تندم لضياعه. وربما العكس. المرة الأولى كان خليجياً، جاسم كان «س» أيضاً، لكن ليس لعمله في حكومة بل لماله الكثير. تعهد أن ينفق على أسرتها. كانت حديثة عهد بعملها هذا (عاهرة تحت التأسيس) بذلت جهداً في الإعداد له والانطلاق فيه. لن تفقد كل ذلك على ذمة عهد لا رهان عليه.

هكذا تحل مشكلاتها كل مرة، مع كل «س».

* * *

لا ضيوف اليوم.

نشوى أوصدت باب شقتها. أعلنتها بيتاً خاصاً لساعات.

شقة أخرى في عمارة أخرى من عمارات قاسم عُبيد. ليست بيتها ولا بيت أحد. استأجرتها عبر غريب، ليس غريباً تماماً لكنه ليس أكثر من فاعل خير أو محلل. شهرياً تدفع إيجارها إلى البنك. نظام مريح لا يسأل المستأجرين: هل أنتم أصحاب البيت؟ وغريب آخر كلفته تأثيثها، من جيبها طبعاً، من أين؟ من جيب أبيها. ليس مهماً، المهم أنها في الشقة التي تدير مفتاحها وتدخلها منذ عام. لا نسخة أخرى لمفتاح الشقة. ذلك مهم، ويجعل من هذه الشقة مهمة. لكنها إلى اليوم لم تنعم النظر في

تفاصيلها. تعرف فقط أنها ملونة، ألوان حارة، أريدها بألوان حارة وشبقة. الأخ غريب أتعبته كلمة «شبقة»، لم يفهمها، ولا مهندسو الديكور. لم يكن هنالك مهندس ديكور، لكن الأخ يبالغ بتثمين جهده، كي لا تبدو فواتيره عالية الكلفة. ليس مهماً.

٧

دخلت المطبخ، وضعت إبريق الشاي على البوتاجاز، لم تجد كبريتاً. في جيبها ولاعة وفي البوتاجاز أيضاً ولاعة مخصصة. شدت ضلفة في الجزء الأعلى لدولاب المطبخ وردتها. لا تريد شاياً، هنالك شيء يُشرب هكذا من دون حاجة إلى غلي.

استدارت كما لو أنها تحرك ريبورت. ثبتت الريبورت قبالة رف سافر لا ضلفة خشبية ولا حتى زجاجية تغلقه، على هذا الرف صف قوارير. كانت قوارير، هي الآن أنصاف وأرباع وأعشار، بعضها لم يغط الشراب الذي بقي فيها القعر، وبعضه فارغ بالمرة ومع ذلك يقف في الصف. يدها الآن لا تبحث في صنف شراب، لا تفتش عن صنف بعينه، كل الذي تكترث له الآن هو ألاّ تعود بقارورة فارغة.

لا تحب أن تشرب من رأس القارورة. الشراب فن قال قاسم. هذا يعني البحث عن كوب وقد يعني غسله. لا يبدو أن في المطبخ شيئاً نظيفاً. مع أنه لم يمض الكثير على ترتيب الشقة وتنظيفها، منذ أسبوع ربما، أسبوعين، ربما ثلاثة؟

تتشابه على نحو ما القارورة وجسمها، ألقت بهما معاً في أقرب مقعد في الصالة. لم تلحظ الأتربة التي تحط على الأشياء كأنها بعض منها. نادراً ما تكون هنا وحدها، لم يحدث مثلاً أن احتاجت إلى كوب، أما غسل كوب فهذا ما لم يرد ببالها يوماً.

وقفت مجدداً لكنها لن تجلب كوباً. شربت من رأس القارورة. أبوها ليس نبياً كي يقتدي الناس بطريقة شربه للخمر. لكنه كان فناناً، يتلمس كل شيء يفعله بأصابع من شوق. يربكها حرصه على الدقة والإتقان وهي تشرع في إعداد كأسه. كانت تعرف أنه يتأملها طوال الوقت، بدءاً من مشيتها باتجاه الخزانة، إلى اختيارها للصنف بحسب موعده، إذْ لكل وقت نوع شراب يخصه، إلى طريقة إمساكها بالكوب الذي سيصبح كأساً، إلى طريقة وضع الثلج وتوقيته. هنالك شراب لا نضع له الثلج، ذلك لا يعني أنه أقل استغراقاً لاهتمامنا واعتنائنا به. هنالك المنديل الذي نلفه به، والطبق الذي نضعه عليه، والأطباق الصغيرة التي نرصها من حوله. نظرة أخيرة إلى كل ذلك الجهد، هل أصبحت الباقة أنيقة بما يكفي، لتقلها بساعديها الصغيرين إلى حيث تضعها أمامه على الطاولة. يربكها أنه ينظر إليها طوال الوقت، لكن ابتسامته تعني أنها أرضته. تفرد ظهرها في السير إليه. هذا واحد من شروط الباقة.

كان عمرها تسع سنين وهي تتقن كل ذلك. الآن عمرها تسع وعشرون وتشرب من رأس القارورة. رفعت القارورة، رفعتها أعلى، إنها فارغة! توجهت إلى المطبخ لتجلب أخرى. لم تنس أن تضع الفارغ في الصف. والآن لنتأمل باقة الفوضى. الفوضى

هي نظام على نحو ما. نظام يشركك في إعادة تشكيله لباقات جديدة، لأنظمة جديدة. يسألك ما الذي تريد أن تفعله، ما الذي تريده: أعشاراً، أثماناً، أرباعاً، أنصافاً، الكل. كل ماذا؟ كل الفارغ؟ كل الملآن؟ لا يوجد كل. لا تفسدي اللعبة، لعبة هندسة الفوضى. مدّت يدها إلى خلف الصف المرصوص كعساكر طيبين في الرف. وضعت ساعدها على ظهر كل هؤلاء وأوقعتهم على وجوههم. دوى صوت القوارير. للفوضى صوت. على الشغالة التي ستنظف كل هذا أن تنتبه، أن تتحرّى ما الذي ترفعه: الصوت؟ الشراب؟ حتى الفارغ لم يعد موجوداً، كل شيء آل إلى كسر، إلى خردة، إلى كنس! أليس كذلك يا حورية؟

عادة ما تردّد ذلك عمّتها حورية، في كلامها المعصوم عن الخطأ. كلامها اليوم وجيه ومحل إصغاء. هذا ما كانت تقوله قديماً، لكن في جلساتها الخاصة في الشرب. هل لا تزال تشرب؟ أشك في أنها أقلعت. كلام كهذا لا يمكن أن يقال من دون شراب، وشراب في السر، كالذي يفعله اليوم كثيرون من أصدقاء أخيها.

إذا كان الرجال اضطروا إلى التخفي، فما بالك بالنساء. لكنها حورية عُبيد! وإن يكن. ألم تكن يوماً تخرج بالبنطال، والجيبة القصيرة، والفستان العاري، والشعر الذي يطير. بالباروكة، كانت باروكة مصمّمة للريح، ولديها باروكة للسهرة، للتانغو. لا تقع عنها حين ترقص الروك. لم تكن ترقص في صنعاء، فقط في القاهرة وما شابهها. لا مراقص في صنعاء! لا مراقص علنية. ليش تنكري المرة؟ كانت رشيقة خاصة في

بنطلونات الشارلستون. وكان شعرها طويلاً مش باروكة، كان معظم شباب صنعاء يجرون وراءها، كانت تسيل لعاب الرجال من حولها. اليوم هي بالعباءة والخمار الأسودين. ليس دائماً، فقط حين تضطر إلى الخروج بنفسها للتسوّق، أو حين تضع ماكياجاً. في هذه السن ولا تزال تضع ماكياجاً. قولي: في هذه السن ولم تضع السنين على وجهها أية تجاعيد.

لم تزل تردّد المفردات نفسها: كسر، خردة، زبالة. لكن عكس أخيها الذي يردّد المفردات نفسها مشيراً إلى الحكومة. إنه ما يقوله كل من في الشارع حين يوجهون كلامهم إلى أعلى. لكن هذه المفردات حين تقال من أعلى، فإنها تقصد ناس الشارع. عمتي تتكلم من فوق، فهي تتكلم مثلهم، لا مثل أبي.

«هذه البلاد جميلة، باهرة، من أجمل ما شفت في بلاد الدنيا كلها. لكن فيها مشكلة واحدة. ناسها. يا أخي ناس مش راضيين حتى ينظفوا ثيابهم» هذا كلام زوج عمتي، لا بد من أن عمتي تقول ما هو أفدح. الناس لا يغيّرون فقط ثيابهم. البعض يغيّر ثيابه لأن شيئاً تغيّر في داخله. والبعض يضطر إلى تغيير ثيابه في نوع من المعايشة، بالتدريج يتغيّر داخله. عمتي لم تكتف بتغيير ثيابها، تريد تغيير ثياب العائلة. زوجها ذهب أبعد من ذلك: الناس كلهم في حالة مزرية. لا مشكلة، لا شيء يسيء إلى هذه البلاد غير أن ناسها وسخون!

أتخيّل «عزيز»، هكذا أصبح اسمه. كان عبد العزيز، الجزء الأول من اسمه سقط بالتقادم. عزيز زوج عمتي، له صفة

أخرى: «وزير سابق». أتخيله بمجرفة، يجرف الناس من هذه البلاد إلى خارجها. مجرفة! ربما هذه كانت تصلح له قديماً، عندما كان «عبد العزيز» الموظف البسيط في مصلحة الأوقاف العامة. اليوم تلزمه حرّاثة. ولا هذه أيضاً. أمواله تقول إنه ينظف البلاد ببلدوزر. أمواله غير أموال عمتي. لكل منهما عالمه وأمواله!

بضغطة إصبع ضجت الشقة. ليس بالناس، لا ناس هنا الآن، صوت فقط. حين تعلو الأصوات يغيب أصحابها، تصبح مجرد ضجيج أجوف. خفضت صوت الستريو قليلاً، لتستمع إلى كرستينا أغيليرا. هذه المرأة لا تغني. إنها ترقص! ترقصين يا نشوى؟ لا! ضغطة إصبع أخرى أنهت الحفل. ألقت بجسمها على الكنبة، دائخة. يبدو أنها أفرطت في الرقص، رأسها تدور بسرعة محرك رغب أحدهم في إحراقه.

عمتي سرقت الغلة.

لم يجد أبي وعمتي خديجة ما يرثانه عن جدي. حورية أوصدت باب بيته في وجهيهما: ترحما عليه، لم يكن يملك غير الستر. ما الذي لبائع جلود لا يملكها أن يخلفه من تركة!

جدي كانت حرفته «بائع جلود»، يجمع من الرعيان والجزارين جلود أغنامهم ومواشيهم ويدبغها ليبيعها في صنعاء. يوزع حملها على ثلاثة ظهور: ظهره وأبي والحمار. وحين تصر عمتي على مرافقة أبيها إلى صنعاء، كان يعاد توزيع الحمولة على ظهرين فقط، لأن الحمار يتفرغ لحمل عمتي. إنها تكبر أبي بسنتين لكنها مدللة أبيها، هي البكر وأبي الأوسط وثمة أخت

أصغر لا أحد يدللها، فقط البكر. في الواقع هي التي كانت تدلل نفسها، لكن عبر هذين الرجلين، أبي وجدي.

في تلك الفترة لم يكن أبي قد صار رجلاً، كان في العاشرة، لكنه كان يتدرب، لا على العمل فقط بل أيضاً، وهذا هو الأهم، على تدليل حورية. ربما كل الذي ورثه عن أبيه تدليل هذه المرأة. من يومها كانت امرأة ومدللة ولا تجلس في البيت. عموماً كل قريناتها وكل نساء قرية الطلع لم يكنّ يجلسن في البيت، لا صغارهن ولا كبارهن، بعمل وبدون عمل، كنّ يخرجن ويتزيّن ويرقصن ويغنّين. لكن ما من واحدة منهن سافرت إلى صنعاء، فقط حورية.

في شباط ٤٨م وفي واحد من أسفاره المعتادة تلك، باع الجلود والحمار ليشتري بندقية. لم يكن قد سمع قبل دخوله السوق عن مقتل الإمام يحيى واعتلاء الإمام عبد الله الوزير العرش مكانه، فخمّن بفطنته أن شيئاً يحدث، كان عليه أن يستعد.

السوق تعج بالغضب بسبب الغدر بالإمام. إمامهم مات ولن يجديه غضب هؤلاء «المقفلين». عموماً هو اشترى البندقية ونشوف. والله إذا كان الإمام حياً، فسيحارب معه لأجل عرشه. وإذا كان ميتاً، فسيحارب مع الإمام الجديد لأجل العرش نفسه. رحم الله جدي، كان طريفاً، وخصوصاً في النضال والثورات. ولا يدّعي المعرفة، لا يحتاج إليها. اقتاده أهل خير إلى الأمير حسن، وهذا اشترى منه بندقيته، في مقابل قراع[١٣] من الذهب

---

(١٣) القرع والقراع هو القرع وقد فرغ من لبه وجفف ليستعمل كإناء.

والفرانسي[١٤]، يغرف منها ما يقدر عليه حلالاً. وهكذا، أبرمت له فيمن أبرمت لهم صفقات الثورة، إذْ سمّى له بعض البيوت المؤمنة للنهب. كان هناك، وفق مخطط متوكلي،[١٥] بيوت مسموح بنهبها بل مستحب، وبيوت غير مسموح بنهبها. بيوت وعائلات كثيرة كان عليها حراسة، مثلها مثل دار السعادة[١٦] ودار الشكر[١٧].

هكذا تكوّن الإرث، ثلاث قراع صحاح من الذهب والفرانسي. هذه رواية عمتي خديجة. وهنالك روايات غيرها كثيرة:

قيل ظلت عمتي حورية تحرسها طوال حياة أبيها، وطوال فترة مرضه وتمريضها له، إلى أن مات وهي تحت قبضتها.

قيل إنها كانت قد سرقتها قبل ذلك، وإنه مات من القهر. ظل أنينه وألمه طوال حياته كيف سيموت من دون أن يورث. كان يريد أن يسمع بعد موته الجملة الشعبية التي ظلت تطربه ولا يقولها: «يرحم من ورّث».

قيل، وهذه رواية عمتي حورية، كانت السوق تعج بالفوضى الثورية، في خضمها سُرِقت بضاعة أبيها وحماره.

قيل إنه ظل طوال شهرين يراجع لأجل تعويض من الإمام

---

(١٤) الفرانسي: عملة ماري تريزا.

(١٥) متوكلي، والمتوكلية، وبيت حميد الدين: كلها أسماء الأسرة الحاكمة فترتها.

(١٦) دار السعادة: بيت الإمام.

(١٧) دار الشكر: بيت مال المسلمين.

حفظه الله. كان قد كتب عريضة للإمام عبد الله الوزير، ثم عاد وعدلها عندما عادت الإمامة لبيت حميد الدين بالإمام أحمد.

هذا الجزء من الرواية اجتزأته عمتي حورية، وخصّت به أبي، لم تقله لأحد غيره. إنه سر، واحد من الأسرار التي لا يمكن قولها إلا بين أخت وأخيها. سر من هذا القبيل فقط يستطيع أن يخرس أخاها. الحريص على صورة أبيه، ثوريته ونضاله. أبي يرفض هذا الجزء من الرواية، وحتى القول إن أباه حمل البندقية على سبيل الاستعداد للحرب مع الإمام أياً يكن، غير صحيح. أبوه كان مع الأحرار الذين لم يكونوا على وفاق مع آل الوزير، لكنه كان على استعداد للحرب من أجل الثورة.

هذا بالضبط ما كانت تريده عمتي من كل تلك الروايات وتناقضها. أن يظل أبي يلملم تفاصيلها، وينشغل بجمع ما يلزم لتركيب صورة أبيه وترقيعها. كل ذلك وهي محتفظة به أو محافظة عليه كشقيق ظهر ورفيق سر. هي أيضاً لديها ما يهمها في تلك الصورة. ومهم أن يكون سراً مخفياً، حتى لو تنازلت عن سر الثورة وأن أباها ثوري. من يدري، ربما كان ثورياً فعلاً. لكن الإلحاح على ثوريته وعلى ذيوع أخباره فيها واشتهاره بها، كل ذلك كان بوسعه أن يلفت إلى شيء تريد أن تخفيه. ذلك الشيء هو حرفته «دباغ»(١٨) لم يكن عمله في الدباغة عن حرفة متأصلة، لم يرثها عن أبيه وجده. لكنه كان هذا عمله وهذا يكفي. تأكد لها

---

(١٨) الدباغة من الحرف التي تدرج المشتغلين بها في الطبقة الأدنى في المجتمع.

ذلك وأصبح عندها عقدة، منذ واقعة التحاقه بمؤتمر خمر ٦٥م، الذي اقتصر على كبار رؤوس القبائل والوجهاء، ولا مكان في مثلهم لدباغ جلود. هذه؛ تواطأت عمتي مع أبي لكتمانها. ظلت جرحها الذي لا تريد لأحد أن ينكأه! لكن أبي كان قد سبقها وربما سبق أباه كذلك في تلمس الفرق بين أسرته وبين أسر أقرانه. معظمهم كان ثائراً بالوراثة. وكلهم ظل صديقه لعقود. هو وبعض هؤلاء، انتظموا في جماعة سرية. كانت سنهم صغيرة، فيما يشبه لعب أطفال بالنار زجوا أنفسهم في مغامرة السفر إلى عدن، من أجل أسلحة يستعدون بها للثورة.

ربما كان ألمه أشد من ألم أبيه، حين سافر من عدن إلى القاهرة، بوعد من هذا الأب أن يوفر له فرصة للدراسة بسعيه وعلاقاته. وخاب أمل الأب، ونسيها كالعادة، بينما ظلت تلك الخيبة تلازم الابن طوال حياته. كانوا قد سافروا إلى القاهرة في جو من الملاحقة السياسية، بقوا هم وعاد هو!

ما لا خلاف عليه أن جدي كان طموحاً، وله صوته بين الناس، وعنده طاقة، لا يكل ولا يمل ولا يحبط. كان عنده هم، يريد أن يمد جسراً من الناس وأعمالهم من قرية الطلع إلى صنعاء، عشرات الكيلومترات لا أدري كيف كان يعدها بحماره قليلة، لا تستأهل كل تلك العزلة. لم يكن قد توصل إلى وسيلة من قبيل ما يسمّى اليوم جمعيات، لم يفكر في التسويق الجماعي. من حين إلى آخر كان يصحب واحداً أو أكثر ببضائعهم، ويتعبون. ويغود يسوق تلك البضائع وحده هو وحماره. ألبان، أصواف، حبوب، وحتى البرسيم كان يحمله

على ظهره وظهر حماره، ويظل يحرسه طول الوقت خوفاً من أن يؤكل! جدي هو الذي أُكِل من دون أن يعرف. ومع ذلك لم تكن لديه مشكلة، كان دائماً رائقاً، لا يكف عن الغناء والسفر والنضال على طريقته. ولا بأس إن وجد ثواراً يلتحق بهم.

دباغ! ولا شيء آخر. حسن يا عمتي يا حورية.

حتى قصة قراع الذهب والفرانسي، ربما كانت هي الأخرى مجرد سيرة حلمية أو صورة محسنة، بثها جدي عن نفسه في بطولة لم يرتكبها.

والمهم أنه مات، حسب عمتي، وبيته يصفر بالدين. فمن أين لها ثروتها. لأنها فيما تسرده عن نفسها في المجتمع من سير ودفاعات، تقول إنها وارثة!

عمتي لها أب يخصّها، ليس دباغاً، ويورث أحياناً. حين تكون بين أسرتها لا! وحين تكون بين الناس نعم!

٨

٢٨/ ١/ ٩٨م

عسكري يدفعها أمامه وتتقدمه هرولة، تجهد كي تخلص إحدى يديها من قبضته لتلملم سترتها. الجونلة أيضاً على وشك أن تفلت. جلبابها ونقابها وهاتفها الخلوي وحقيبة يدها، كل ذلك تم التحرز عليه وأصبح ملحقاً بمحضر ضبط. سترتها مقطعة الأزرار بالكامل، كأنما كانت هي المستهدفة بإلقاء القبض. الجونلة انهتكت دكتها. تفاصيل نسيت أن تكترث لها منذ سنين،

على الرغم من تكرارها قديماً فإنها تحدث معها اليوم كأنْ لأول مرة.

عسكري يدفعها من ظهرها، ويُسرّع من خطاها قبالته. يقبض ساعديها ويشدهما إلى صدره، يدفع بها كي تمشي أسرع. دخل بها مكتب الضابط، لم يزل يمسك بها، ولم تزل تحاول أن تتخلص من قبضته كي تغلق سترتها.

العسكري انتهت مهمته أشار إليه الضابط بظهر يده أن يخرج!

حمامة تم سلخها، ليس للتو، قبل وقت. زينب مشغولة عمّن حولها، أو هي تتشاغل عنهم وتلملم سترتها. في الحجرة بمسافة مترين من مكتب الضابط، صف كراسٍ بأناس للحظة اشرأبت أعناقهم. هنالك أعناق اشرأبت لكن إلى الأسفل. في الكرسي المقابل للضابط، بمحاذاة مكتبه، رجل يقبع خلف لحية كثة.

من دون توجيه من الضابط، تطوّع عسكري لإفراغ الحجرة من الناس. خرج الجميع تباعاً، إلا واحداً حين التفت إليه العسكري لم يجد إلا ظهراً.

كلام كثير قاله الضابط لم تسمعه، تحاول أن تهدأ، أن ترتب جملاً يفهمها الضابط. داخل زوبعة من البكاء، كانت ترجو، تقسم، تدعو، تتعهد. لم تفعل كل ذلك من قبل، حتى حين دفع بها لأول مرة إلى قسم شرطة كهذا. تستسلم للنشيج ثم تعود تحاول، تقول كلاماً يشبه هيئتها الآن، منبوشاً ومبعثراً ومهتوكاً ولا يفهمه الضابط، يضرب يداً بيد ويحوقل ويسخر:

– تاكسي يا زوزو!

– . . . . .

– بعلمي أنه إنت هاي. درجة أولى. وكبارات.

طلب محضر الضبط ليوقع عليه بالإحالة إلى المختص. وجّه إليها نظرة فاحصة. زمّ شفتيه وهو ينظر حوله وبين يديه. ثم رفع بصره إليها، يكلمها أو يكلم أحداً عبرها:

– الآن قولي لي أوقّع المحضر أنت ع توصلي السجن والا كالعادة قبلما يجف الحبر وقبلما تتم الإجراءات ع يكون أهل الحلال قد خرجوش!؟

لم تكن هذه المرة قد طلبت الموبايل خاصتها أو حتى فكرت فيه، ولن تفعل. إنها مستغرقة في محاولة إقناعه، بإلحاح. اقتربت منه، كان وقوفها فاضحاً، رأت ذلك في عيني الضابط، وانكماش ضيفه الإخونجي على نفسه. جونلتها تهدد بفضيحة محققة، بدقيقة إضافية من الوقوف كان جزؤها الأسفل سيعرى! هبّت لتجلس في المقعد المقابل للضابط بمحاذاة مكتبه. ركبتها دقت بإطار الطاولة، وهذه دقت في ركبة رجل يبدو يتلملم على نفسه ويتمتم، لا بد من أنه لم يبق في قاموسه من مفردات الدعاء على الزانيات والتعوّذ منهن والنقمة عليهن، لم يبق لعن لم يلعنه داخل نفسه. لم تلتفت إليه. المهم الآن هو الضابط!

الضابط ما الذي يقنعه؟ عيناه لزجتان، تمشطان جسدها، تخلفان فيه بقعاً جيئةً وذهاباً. صمته أشد لزوجة. «ما دمت ترى أنني سأخرج في كل الأحوال ف. . . و. . .» لا يرد! تسكت

قليلاً ثم تعاود بث الموجة نفسها. تَزَحزحَ صمته، من دون أن يتنازل عن لزوجته. سوّى جلسته واكتشف أن لديه محضراً ينتظر الاستكمال لرجل طال انتظاره من دون ذنب. لم يطل الأمر فرغ لها سريعاً. عيناه، تحديقه، تعرف هذه المرحلة في التحقيق، اسمها: المساومة. جرّبتها، تشبه متاهة لا أحد يعرف إلى أين تنتهي في كل مرة. واصلت المحاولة، تتكلم ولا يرد. ارتخت عضلات وجهه، كست ملامحه الجدية والاحترام، سوّى أمامه أوراق المحضر وشرع بتوقيعه. «لحظة لو سمحت!» طلبت هاتفها الخلوي، حسمت حيرته واضطراره لأن يكون خروجها من أمامه بإحدى الحُسنيَين: إما التوجيهات، وإما السجن!

الضابط نفسه لم يكن لديه «خلوي»، كانت التلفونات المحمولة لم تزل حكراً على كبار المسؤولين، وكبار التجار، وكبار القحاب! في اليوم نفسه، لكن في مكان آخر غير قسم الشرطة، عرفت أن واقعة اليوم في التاكسي وثّقت بشريط فيديو، لا لغرض الضبط بل لأغراض أخرى. بالخلوي نفسه حلت مشكلة شريط الفيديو، وحتى مشكلة الأغراض الأخرى. هذا هو الفرق بين تاكسي أول مرة، وتاكسي آخر مرة. في المرة التي لم أفعل فيها شيئاً آثماً في التاكسي، كان خروجي من قسم الشرطة مصحوباً بخروج من الأمان والكرامة والشرف. إلا أنني لم أسمح لأحد أن يمسني يومها، ولا بعد شهر، ولا بعد سنة.. آخ يا دنيا، يا...

ثماني سنوات وهي تقلب وجه أبيها العابس. كانت تظنه عبوساً ذلك الجمود في قسماته والتغضن، الغضب، السكوت.

كانت تظنه عبوساً وكفى. رجل مجهد، منهك، يقضي يومه خارج البيت، في أعمال شاقة يلقط منها رزق بيته وأولاده، يعود منهكاً لا طاقة فيه للكلام إلى أحد. حتى زوجته كانت تتحاشى أن تقول كلمة لا تعجبه، كما كانت تفرض على الجميع ألاّ يصدر صوتاً أو كلمة عند دخوله. تتأمل أولاً ما هي حاله، ثم تبدأ بقطع السكوت بالتدريج، بقول ما يرضيه فقط، بدءاً من السؤال عن طعامه: الآن؟ أم بعد قليل؟ السؤال باقتضاب، لا يحب الأسئلة، ولا أن يشكو أحد حاله عليه!

ما الذي يمكن أن يكون قد سمعه عنها، من الذي عبّأه ضدها وشكّكه فيها؟ فلم تكد شرارة تقع بالخطأ قربها، حتى تفجر كل شيء، ونهائياً. رجل لا يتكلم إلى أحد ولا يصغي إلى أحد. لم تستطع على الرغم من كل ذلك أن تشك في زوجته. هي التي ربّتها وأدخلتها المدرسة. وحين قرر أبوها إخراجها من المدرسة، هي التي أقنعته بأن يؤجل قراره. كانت طيبة معها طوال الوقت. لكن من الذي يتمكن من رجل بذلك الإغلاق إلا جليس ليل.

لا تكاد تتذكر عدد المرات التي رأت فيها أباها ينخرط في حديث متصل، أو يتقبّل مزحة. لم تره يضحك لنكتة قيلت أمامه، أو يستظرف حدثاً. لم يسترع انتباهه خبر. لم تره يسأل أو يكترث لتفاصيل ما حدث أو قيل أمامه. لم تره يندهش لحادثة. لم تسمعه مرة يشكو حاله أو يتذمّر أو يرضى. لم تره يضرب أحد إخوتها أو ينفعل عليهم أو حتى يأمرهم بالسكوت، حين يرتفع ضجيجهم باللعب أو الاختصام. قبل أن يضجوا كانت

خالتها تتولى إسكاتهم، وأحياناً تخرجهم إلى غرفة أخرى. حتى حين يتحلقون حوله ويبدأ الواحد منهم يحط على حجره أو كتفه أو يشده تدللاً من ثوبه، تهرع لتردهم عنه من دون أن يبدي تذمّراً من فعلهم معه أو فعلها معهم، ومن دون أن يقول لها، مثلاً، دعيهم! لأنه يستعذب قربهم. كانت تظن كل ذلك العبوس إجهاداً. رجل مثقل بالأعباء والهموم. عمله في الشارع يستنزفه. لا يصل إلى البيت إلا وقد فرغ تماماً. جملة خالتها دائماً «له القوى، مسكين شاقي طول اليوم». زينب لم تقلها له يوماً، لكنها تحس بها نحوه، وتعبّر عنها بالتفاني في خدمته. مسكين؛ مهدود لا يريد من البيت إلا أن يسكت ويدعه في شأنه. يذهب إلى النوم قبل التاسعة ويستيقظ قبل السادسة. لم تره يصلي!

لم يطل الإقامة في تغرّبه في السعودية. عند أول عصا حطت على ظهره، لتدخله عنوة إلى الجامع، غادرها. ولم يكسب كثيراً من غربته تلك، اللهم ثمن وايت الماء(١٩). لم يكن بيع الماء عمله الأوحد في اليوم. كان يجهز الوايت، يعبئ خزانه ماءً ويبقيه قريباً ومستعداً لحين الطلب، وينشغل بعمل آخر، أي عمل يتيسر في حينه، كأنْ يخدم في ورشة ميكانيك، في محطة لتشحيم وغسل السيارات، في جمع وتصريف الخردة، في بيع حاجيات الناس الصغيرة من قوارير ماء أو مناديل ورقية، أو.. إلخ. كل ذلك في اليوم الواحد.

بدأب وكد كبيرين بنى بيتاً. على الرغم من أن بيتهم

---

(١٩) وايت الماء: الشاحنة التي يقل بها الماء، ويبيعه للبيوت.

صغير، وبُني خلال سنين لا دفعة واحدة، لكن منذ أصبح قابلاً للسكنى، من أوائل الغرف التي أنجزت كانت غرفتها. لم يكن قاسياً عليها ولا على أحد. فما الذي حدث له فجأة ألقى بها في العراء!

أنشودة زينب أو مبكيتها الدائمة هذه، تبدأ بوجه أبيها لتنتهي بالسؤال ذاته كل مرة، هكذا كلما وقعت لها مشكلة، أو مرضت، أو ضاق صدرها بشيء. وستبقى هكذا حتى بعد زواجها بطارق.

أصغت السمع قليلاً لتتثبت من أنه صوت مطر، ذلك الذي يحط خافتاً على النافذة. فتحت الستارة ذات القماش السميك واللون البني، تحتها ستارة من الأبيض الشفاف، من دون أن تميطها أرسلت يدها تتحسّس حواف النافذة. إنها مغلقة بإحكام، لا مجال لدخول المطر. المطر شحيح كأنما لا يزال يفكر: يهطل أو لا يهطل.

ليجئ المطر على مهله، ذهبت لتغلق التلفزيون، وجلست قبالته.

سؤال خالد ولا يتغيّر أظن في كل بيوتات الدعارة: كيف جئت إلى هنا؟ كيف بدأت؟ ولا أحد ينتظر الإجابة إلى آخرها. لا يبدو سؤالاً، ربما نوع من مقبلات وفواتح شهية. لا بد من استهلال، مقدمة جنسية ككل المقدمات. على الإجابة عادة أن تنطوي على بعض المؤثرات، لا بد من مثير ما، مثل حادث جنسي ضُبطت فيه، مغامرة صغيرة خرج الأمر من يدها لتصبح كبيرة. رسائل غرام لناقص ما يستاهلش جرجرها إلى الخطأ

خوف الفضيحة. فضول تشوف أيش عند الناس، لماذا كل هذا الهلع على الجنس، لكنها وسعت شوية. كنت ماشية الساعة سبع في الطريق للبيت وفجأة ابن حرام داهمني أوقعني أرضاً واغتصبني. ياااه كم هي القصص الجاهزة، والكاذبة غالباً، تلقى رواجاً. الغريب أن الأكثر كذباً هي الأكثر رواجاً. والأغرب أنه حين لا تجد البنت قصة، حين يتأخر سردها للقصة، أو أنها تبحث في قصتها من أين تكون البداية، يبدأ الزبون يبتكر لها قصة من عنده. الأكثر غرابة أنه يصدق قصته تلك ولا يقبل غيرها. قصة حلوى قابلة للمص واللعق. حلوى قصيرة ليس مهماً أن تكون مضحكة، بل على العكس، على الرغم من كل الذي يوصي به القوادون ويشترطونه على ربيباتهم، بأن يَكُنَّ بهيجات وعسلات ولا يقلن من القصص إلا ما يضحك. العكس، هنّ بهيجات وعسلهن أن يقلن ألماً خرافياً.

قصتها لا تنطبق عليها كل تلك الشروط، لا شروط القوادين ولا الداعرات ولا الرواد الزبائن. أول عيوب قصتها أنها طويلة، البؤرة أو النقطة التي يبحثون عنها في قصتها والتي تتلخص بمتى وقع لها فقدان البكارة وكيف. هذه، إلى أن تصل إليها يكون الزبون قد نام، هذا إذا كان الوقت ليلاً، في النهار يستأذنها بالمغادرة لأن لديه أعمالاً يقوم بها. يريد أن يقول إن أي عمل يقوم به هو أفضل شغلاً للوقت من قصتها التي هي بمثابة فيلم هندي لا يصدق. إنها طويلة جداً. أكثر من ١٦ شهراً منذ غادرت بيتهم إلى أن افتضت بكارتها. والبكارة عندهم هي القصة. كيف تختصر! إذاً بدأت بليلة ٢٨/ ٩/ ٩١، فأين وكيف تتصرف بـ ١٦

شهراً؟ وكلها أقسام شرطة وسجون وشوارع، و. . . هذه ليست القصة، في النموذج الذي لديهم في القص. القصة بحسب النموذج تتلخص بمتى وكيف تم نيكك أول مرة؟ هنا تكون إجابتها لا أدري. والله العظيم. والله!

كلهم سألوها ذلك السؤال الخالد، كلهم بلا استثناء ما عدا واحداً فقط، هو طارق. غريب! مع أنها توقعت أن يكون الأكثر إلحاحاً وحتى اصطباراً على قصتها، بل توقعت أن يصغي إليها إلى أن يجد ثغرة في كلامها ثم ينهمر عليها بالأسئلة ليكذبها، وأن يستغرقه البحث في ماضيها، إلى أن يتأكد له ألاّ حقيقة غير تلك التي قالتها. لم تقل، لم تسرد عليه أية قصة. هو لم يصغ إليها. وكلما جاءت لتتكلم معه في ذلك، يتمتم أن لا بأس عليك. لا مشكلة، ذلك ماضٍ عفى الله عنه!

الغريب هو شوقها لأهلها. كانت من حين إلى آخر تتذكر بيتهم بحنين، وكان هذا طبيعياً وارداً. لكن اشتياقها اليوم وبهذا القدر، بعد أن أصبح لديها بيت وزوج، هو الغريب. ربما ليس شوقاً إليهم بقدر ما هو شوق لأن يروا حالها وما انتهت إليه من الستر. سيفرحون من أجلها لا ريب. وقد تربطها بهم مجدداً علاقة ود، يزورونها في بيتها، يرحبون بها وبمجيئها إليهم. إذاً ليس شوقاً بقدر ما هو أمل بعودة المياه إلى مجاريها. سرت في بدنها رعدة. هذا الأمل يشبه جنيناً تخلَّقَ في بطن امرأة كانت قد جاوزت سن الإنجاب منذ سنين وأصبح حملها مستحيلاً. غيمة دموع طفت في عينيها، استسلمت لزخة مطر هانئة، أنصتت لحباتها المعدودة إلى أن تمت. ثم نهضت لتصلي.

طوت السجادة مؤقتاً، لم تزل هنالك صلاة العشاء. إلى يمين المقعد الذي جلست عليه مصحف، نقلته إلى حضنها من دون أن تفتحه. اليوم وبعد كل تلك السنين ترى لخالتها سلوكاً لا يمكن أن يعدّ إلا تمييزاً بين أولادها وأولاد زوجها من زوجته السابقة. سلوكها في ضرب أولادها من أجل أن يصلوا، بينما هي وأخوها لم تكن تجبرهم على الصلاة. كان عليها أن تعوّدهما على الصلاة، وخصوصاً أنها تولت تربيتهما صغيرين. لم تكن هي، وهي الأكبر، قد أتمّت السادسة. أبوها لم يكن يصلي. هل كانت أمها تصلي؟ يا له من سؤال! إذا كانت لا تتذكر وجه أمها، والوجه الذي يعاودها في النوم وتحسبه أمها، هو وجه تجميع! عبارة عن تداخل من وجوه أناس يحيطون بها.

أمها؛ يقولون كانت جميلة. لم يقل أحد ذلك. فقط خالتها تخمن أن الزوجة السابقة لا بد من أنها كانت جميلة، بدليل ابنتها بجمالها الباهر. مناسبات عديدة ومرات كثيرة سمعت خالتها تصف جمالها، حتى ظنت أنها تجاملها وتكثر من المبالغات. إلى أن بدأت تكبر، وتحضر جلسات النساء والفتيات من الأهل والجيران والصديقات، وجدت أنه ليس رأي الخالة وحدها، إنه رأي كل من يراها. رجل واحد لم يقل لها إنها جميلة، لم تر عينيه تطوفان بوجهها أو تمعنان في تفاصيله، لم يكن يطيل النظر إليها، لم تشعر به يتفحصها سوى مرة واحدة، يوم أعلمها بقراره الذي لمرة ثانية وأخيرة، أن تكف عن الذهاب إلى المدرسة وأن تلزم البيت، لقد كبرت! قالها وثبت عينيه في وجهها. أبوها؛ هل كان يخاف عليها أم كان يخاف منها؟

لا بد من أن الشائعات والقلقلات كانت قد ملأت رأسه ضدها. فجأة انفجر! بدا كأنه اصطبر عليها طوال سنين، ولم يعد يقدر أن يصبر أو يتستر عليها ما دامت وصلت إلى قسم الشرطة! هذا ما قاله الضابط حين أنّبه زملاؤه على تسرعه ومبالغته في ضبط بنت بالشبهة وإحضارها ، وإصراره على التحفظ عليها إلى أن يتسلمها وليّها ويضمنها. هل كان ثمة دليل، بل هل كان ثمة تهمة غير جمالها الباهر، وصوتها الذي خرج من تحت الخمار ليعترض ثم ليحتد ثم ليتحدى؟

لقد التفت جميعهم إلى الصوت، وهبوا عليه.

كفوا عن ابتزاز السائق بإلحاحهم على أن يبرز أوراقه، توجهوا إليها. لم تعد القضية تفتيش عسكري عند إشارة مرور. لم تعد القضية مرورية يخاطب فيها السائق وحده. أصبحت قضية اشتباه ببنت داخل سيارة! إلى تلك النقطة لم تكن المسألة تزيد عن كونها مبارزة كلامية. مجرد مشادة بين متصادمين عنيدين، كل طرف أخذه عناده، وظل يرفع صوته كأنما ليجرب إلى أين؟

إلى قسم الشرطة! حتى بالنسبة إلى الضابط كان يظن المسألة ساعة تأديب، وكلٌ يذهب إلى حال سبيله. وحين أنّبه زملاؤه كان رده يصب في التصعيد، في المبارزة نفسها، لكن وقد هوى الطير إلى الأرض على حد سكين. هز كتفيه مبرئاً نفسه: وأنا أيش عرفني أن ملفها مثقل عند والدها وأنه فاض به الكيل، سلم أمره لله وتبرأ منها. أغلق المحضر في ساعته وحينه، تاريخ ٢١ مايو ٩٠م. توقيع.. سلم.. علم. نسخة للحفظ! بعد دقيقة فتح

المحضر مجدداً ليتسع لسائق التاكسي. كان منسياً طوال الوقت، إلى أن ذكّر بنفسه على نحو ما.

غير مصدقة ما يحدث، مررت عينيها في وجوه الحاضرين. طمأنها أحدهم، قال لها في ما يشبه الهمس «صبرك بالله. مسألة وقت، ساعة والا ساعتين بالكثير وتخرجي! خلي الموجة تهدأ. يهدأ الفندم. لأن المسألة أصبحت محضر. لكن أوعدك نسحبه». نهض الفندم مغادراً المكتب، لكنه سيعود، هكذا قيل لها، سيعود وعليها أن تنتظر لأن المحضر معه، ولا بد من أن يجدوا حلاً لهذا المحضر. المحضر يدينها، وهو طبعاً رسمي، واستمراره هكذا بما هو عليه من الإدانة، معناه إحالتها إلى السجن! يجب عليها أن تعتذر له وتسترضيه ثم ينتهي كل شيء. أين هو كي تعتذر له!؟

يطلبونه في الهاتف ليحضر، ويصرّح لهم: أطلقوها! ويلحون على حضوره إذ لا بد من المحضر أو إطلاق مكتوب! لا أحد هنا سيطلقها من دون ذلك! جاء وأطلقها لكن منتصف نهار اليوم التالي، من دون أن يكتب أمر إطلاق، أو أن يغيّر شيئاً في المحضر، بل من دون أن يخرجه من جيبه. المحضر الآن، هكذا قال لزملائه المتعاطفين معها، هو مستنده الوحيد إذا ما قاضاه أحد، فهو في إدانته يستند إلى واقعة مثبتة، هي واقعة تبرؤ الأب منها، إنها شهادة دامغة على سوء سلوك البنت الدائم. ولن يكتب لها أمر إطلاق، لأنه هكذا يدين نفسه.

أبوها لم يتبرأ منها، بل أنكر ونفى أن تكون ابنته. كان شقيقها سعد حاضراً ومتعاطفاً. همّ أن يتكلم لكن الأب منعه

وغادر به دونها. «ما عندي لكم شيء» قالها للضابط في ما يشبه التهديد وغادر. لا شيء له هنا! الطريف هو موقف صاحب التاكسي. دنيا عجيبة.

لم يطلقها الضابط. ترك لها أن تسرب كهرة. كان ذلك يعني أنه يمكن الأمر بضبطها وإحضارها في أي وقت ومن أي مكان، على ذمة هذا المحضر. الحقيقة لم يلق أحد القبض عليها، أو يلاحقها على ذمة محضر. كانت البلاد غنية بالمحاضر، أينما ذهبت كان ثمة محضر يخصها، وباسم جديد.

لم يفعل شيئاً ذلك المحضر، أكثر من الرعب الذي بثه فيها كلما استبشرت خطوة في اتجاه أبيها. كانت البيوت التي تدخلها لأن لها فيها صديقات ومنهن من كن زميلات دراسة، بيتين، ثلاثة. كان يصر الأخ الأكبر لصديقتها أو الوالد أن يسعى في تسوية صلح مع أبيها، لا يرد بجديد على ما قاله في القسم، لا تتصلوا بي! لا يطيل الكلام مع أحد منهم، ولا يسمح بزيارتهم.

تعبت البيوت، لم يقل أحدها ذلك، لكن ازديادها كان يقول أكثر. أصبحت الواحدة من مضيفاتها تقترح عليها زيارة لصديقة أخرى، وهناك تقترح عليها أن تظل لأيام ثم تعود. وسعت الدائرة إلى حدٍ أصبحت معه تشير إلى بنت لا أهل لها. هذه فضيحة طبعاً، وخصوصاً لبنت تربّت على الكرامة وعزة النفس.

ليتها حافظت عليها نعمة. تلك الفضيحة كانت النعمة التي لا رجوع إليها. سافرت لصديقتها الحميمة «أمل»، المتزوجة في الحديدة. ليتها لم تفعل.

لم يكد يصل إلى مكتبه بعد الرابعة عصراً، حتى فكّر في مغادرته، ولم يحدّد إلى أين! هل هذا يعني أنه بدأ يدمن «القات»؟ منذ فترة وجيزة بدأ بتعاطيه، ليس يومياً، فقط في الأعراس والمناسبات التي يدعى إليها من حين إلى آخر. تلقائياً قادته قدماه إلى غرفة مجاورة. غرفة ضيقة لا تزيد مساحتها على ٢×٣ أمتار. تتوسط أحد جدرانها مغسلة صحون، تشي أن هذه الغرفة كانت مشروع مطبخ لم يتم. أعلى المغسلة نافذة صغيرة، تغلقها الأتربة والصراصير. هذه الحجرة تشهد يومياً من الساعة ٢-٤ عصراً اكتظاظاً سكانياً. عمال وضيوفهم ينحشرون لمضغ القات. يتذكر تفاجؤهم بمجيء أخيه الذي على الرغم من أنه كان يجيء يومياً، لكنهم كل يوم كانوا يفاجأون ويتطايرون حتى لا يبقى أحد في مكانه ولا في أي مكان في المكتب، لأن أخاه يحرم عليهم مضغ القات، أما هو فلم يكن يمنعهم. وحين يصادف أن يمر قبالة تلك الغرفة ويكون بابها مفتوحاً، يتجنّب أن ينظر إليهم كي لا يقززه منظرهم، بأوداجهم المنتفخة كأنما ستتمزق لشدة ما يدفعها القات إلى الخارج. يصر القات على التدافع خارجاً فلا يجد غير زاوية من أفواههم، ولأنهم لا يشعرون به وقد سال خارجاً، يظل يشكل بقعاً على شفاههم وحولها. ومع ذلك لا يزال الواحد منهم يدفع بالمزيد من أوراق القات إلى فمه.

المنظر مقزز فعلاً. لكن هل كان يحاصر نفسه بكل تلك الترهات من أجل أن يصلي على النبي ويعوذ من الشيطان ويعود

إلى كرسيّه في المكتب؟ بخطوات متراخية لا يبدو أنها تعرف إلى أين. مشى، واصل المشي، غادر المكتب!

إنه في سوق القات! هذه ليست المشكلة، المشكلة في البارقة التي راودته وآلت في النهاية إلى حزن: يريد أن يُخزِّن مع امرأة! كيف وكل زوجاته لا يمضغن القات ولا يقبلنه. الأولى إخونجية، والثانية الصغيرة كما يسمّيها أهلها ويشجعونها، لا تنزل عن منبر التهكم والتندر على الأشياء ورفضها، والثالثة أخذتها التوبة بالإثم. ما الذي قادني يا ربي لأن أتزوج واحدة بينها وبين جهنم خطوة واحدة، ولا همّ لها إلا أن تباعد بين حياتها وبين تلك الخطوة.

في إثر اختلاف أخيه أمين مع حزبه السنة الماضية، وانخراطه في جماعة تكفير ومناكرة، كثرت مشكلاته وطاله منها نصيب، استدعاء للأمن السياسي أو الداخلية أو الأوقاف والإرشاد. الأخيرة استدعته لتكلفه بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة بدلاً من أخيه. لكنها كانت أول مرة يستدعى فيها إلى قسم شرطة. لم يعرف لماذا إلا في القسم. وطبعاً كانت المشكلة تتعلق بأخيه. أمين كان قد أسدى ضمانة تجارية لمسكين أساء استعمالها. في منتصف المحضر عرف لماذا قادته الأقدار إلى قسم الشرطة. لم يكن من أمر مهم في ذلك اليوم ٢٨/ ١ غير أن رأى زينب. كان اسمها زوزو..

* * *

٢٨/ ١/ ٩٨م

فجأة انتصبت أمامه واقفة، أول ما لمحه كان نهداها، كانا

يسحان من أعلى الحمالة. خصلة الشعر على نحرها كانت أشبه بشتلة من الذهب السائل، لا يوجد ذهب بتلك النعومة. الفوضى التي جمع بها شعر رأسها، غطاء الرأس على ذلك النحو من الارتخاء والفوضى، بدا كأنه يلملم فيضاً، يسيطر عليه ولا يقدر. لكن عندما اقتربت للجلوس قبالته أدرك كم هي جميلة، بشرتها طرية عذبة كأنما هي من الحليب. لكن الذي استوقفه، الذي تحدّاه أن يكون قد التقى امرأة أو عاشرها، هي شفتها السفلى. طلاؤها غير واضح ما إذا كان أصله الأحمر أم الوردي أم اللحمي. إنه طلاء يتقشر منذ ألف سنة، ويقول لك استمر واصل نحتك. لم أكن أعرف أن رؤية شفة معضوضة يمكن أن تكون بتلك الإثارة!

جالس كولد في فصل دراسي، في مقدمة الفصل. ويخاف أن يقول له أستاذه فجأة «اطلع بره» بسبب الواجب. وحين دفعت الطاولة لتدق بركبته، شيء دفع به إلى منتصف الفصل الدراسي، تقدم صف التلاميذ من جانبيه، أصبح صفاً بذاته، ربما لم يعد من تلميذ غيره في الفصل. وحده في حجرة واسعة، أنفاسه تحدث صوتاً. وكل الذي يهمه ألاّ يلفت إليه أحداً، يكتشف وجوده الغلط، ويصيح به «اطلع بره!»

لم يصغ لما يدور بينها وبين الضابط. الأصح أن نقول: لم يصله كلامهما إلى حيث هو في مقعده الدراسي مشغولاً بشفة معضوضة، ورائحة دبق شهي!

لم يعلم يومها، ولا أظنه علم بعد ذلك، أن تلك الرائحة كانت تنسرب من بين ثياب الضابط. لم تكن رائحتها. وحرائق

الجنس التي لفتت الأسماع والأشهاد، وأودت بها إلى قسم الشرطة، لم تطف على جلدها، ولم يكن لها أن تطغى على "CHANEL ALLURE" البرفان الذي اختارته لـ«صيد» زوج.. الصيد الذي أضحتْ، وحدها، طريدته.

...

زوزو راودته عدة ليال. ربما لم تكن زوجته. الحجة. قد استمتعت بقوة باهه كما تلك الليالي. هل يجوز أن يعاشر الرجل امرأة باشتهائه لأخرى! كان رده عملياً بالاقتران بزوزو يوم ١١/ ٢. لم يكن قد مر على زواجه بالثانية «ندى» سوى بضعة أشهر!

يواظب على زواجه الأول ١٢ سنة، ثم يتزوج في سنة واحدة مرتين! يكاد يسمع عمته تردد «الرجل إذا انفتح معه شريط الزواج، لا أحد يغلقه». فما الذي تقولينه لأخيك يا عمة، عدد النساء اللواتي عاشرهن، يزيد على ما بقي في رأسه من شعر! حراماً بحرام. إخلاصه وتشبّثه بأمي، يشبه إخلاصه وتشبثه بوظيفته الحكومية. لكن الوظيفة أحالته إلى التقاعد وأمي لم تفعل.

يبدو أنه صحيح، الزواج الثاني فقط هو الصعب. بعدها؛ على الزوجة الثانية أن تستعد، وأن تتقبل ما قبلته لسابقتها. ندى لم تقبل! أهلها هم الذين قرروا، مانعت في البداية، لكنها بعد أيام من الخطوبة بدت كأنها متحمسة، رأى ذلك في وجهها يوم صحبها هي وأحد إخوتها إلى مصلحة الأحوال الشخصية. أهلها قرروا ذلك، لا يدري هل تسويغاً لحقه في الرؤية الشرعية؟ أم فعلاً لأن له معارفه وعلاقاته في مصلحة الأحوال الشخصية.

وخصوصاً أن هناك ما يستوجب الوساطة، مطلوب بطاقة شخصية بعمر يسمح بعقد قرانها وفقاً للقانون. هو اقترح ١٧سنة لكنها مانعت وكادت تغضب. عمرها ١٣ سنة. حسم أخوها الأمر! لقد سأل القاضي الذي سيعقد قرانها، ١٥ سنة. ذلك يكفي ليكون الزواج موافقاً للقانون.

* * *

٩٧ م

يسترق النظر إليها خلسة عن أخيها وعنها كي لا يربكها. لكنها لا ترتبك، إنها تنظر إليه كما تنظر إلى أخيها، توزّع نظراتها وأحاديثها بينهما كأنْ بالتساوي. يبدو أنها بالفعل صغيرة. قيل لها إن هذا الرجل أصبح واحداً من الأهل، وكفى! بعد قليل يصبح هذا الواحد هو كل أهلك، أو على الأقل أهم واحد في أهلك. يحدثها في سره. عند الخروج أيضاً وفي اتجاه العودة إلى السيارة كان ينظر إليها خلسة، تبدو حديثة عهد بالخمار، يقع منها فلا تشعر، يمر وقت قبل أن تعيد وضعه على وجهها، وأخيراً وضعته في حقيبة يدها. انزعج طارق، حدّق في أخيها، الأخير وجد الأمر مبرّراً. مسألة تعوّد قال له، إنها في الواقع محجبة، قبل أيام فقط خطر لها أن تضع الخمار. خطر لها! لم تعجبه هذه أيضاً.

ببساطة أكبر ومن دون اختلاس ثبّت عينيه في وجهها، لست وحدي الآن أنظر في هذا الوجه، لكنني وحدي أملكه. استوقفته كما تستوقف أخاها حين تكلمه، أمسكت به من ذراعه ليصغي إليها: اسمع! . . . لم يسمع. فوجئ بيدها رغم براءة اللمسة.

ربما احمرّ وجهه. لا يريد أن يظهر عليه ارتباكه. لكنه ظهر، على الأقل بالنسبة إليها.

* * *

ندى في ليلتها الأولى بدت له شجاعة أو جريئة أكثر من المتوقع! تبدو كما لو كانت ذاهبة إلى التنزه، إلى مدينة ملاهٍ، أو حديقة، أو حفل. تتقافز داخل ثوبها الأبيض، تختار أين يجلسان. هنا؟ لا! هنا؟ تشرع بنزع طرحتها، تتوقف: هذه أنت الذي تنزعها. تفتش عن موسيقى، ما الذي ينبغي أن يسمع في مثل هذه الليلة. نسيت أو هي لا تعرف أنه لا يسمع الموسيقى. اختصر عليها كل ذلك، وأخذها إلى حيث تؤخذ الفتنة! في الطريق بها إلى السرير توقفت فجأة: لا! أراد أن يطمئنها، قاطعته: أولاً قميص الزفاف، قصدي؛ قميص ليلة الدخلة. وذهبت إلى حقيبة ثيابها التي حملوها معها، حقيبة هائلة الحجم، كأنها لن تشتري ثياباً طوال المئة سنة المقبلة! فتحت الحقيبة، على الفور؛ أعلى سطحها لاح شيء أبيض. لولا أنه يدرك أنها حقيبة ثياب، لظن ذلك الشيء حليباً مسكوباً. لم تكن إلا لحظات كان الحليب قد كساها، ليس كلها، إنه لا يكسو شيئاً، أشاح وجهه عنها، ثم عاد يصوب عينيه عليها، يحتاج أن يذكره أحد؛ هذه العارية أمامك هي زوجتك، حلالك. البنت في حفلة عرض، سألته: ما عجبكش؟ (ألم يعجبك؟) رد: ما هو؟ قميص الزفاف. تردد قليلاً ثم وجد ما يقوله، إنه لا يحب اللون الأبيض، لماذا لا يخترعون لليلة الزفاف لوناً غير لون المرض

والموت. كان ردّ اعتبار أقرب منه رداً أو حتى درْء موقف. قبل أن يفقد زمام المبادرة ذهب بها إلى السرير. يعرّيها، تساعده، تنفرد بنزع القميص، كي لا يمزّق قميصها، إنه رقيق.

كان قد انشغل بسباحته فوقها، تذكرت فجأة: في مثل هذه الحال، هنالك خرقة بيضاء، لحظة! ووثبت، قطعت الطريق من السرير، إلى الحقيبة، والعودة. مسافة لا يمكن لعدها أن يزيد على دقيقتين، ثلاث، أربع على الأكثر. لكنه التقطها بالبطيء الذي لا يحتمل. الذي لا يحتمل فيها أنها مشت هكذا عارية، من دون أن تستر نفسها بشيء، ولا حتى وضعت يدها على عانتها كما تفعل النساء. بل كما يفعل الرجال، أما النساء فإنهن لا يكتفين بستر العانات!

بعد ساعة أو أكثر شق صوتها أركان الحجرة الأربعة والسقف: ماشتيييييش.. ماشتيش أتزوج! (لا أريد أن أتزوج!). حاولت إزاحته، تزحزح، مسرعة ارتدت ثيابها. حاصرها، افترشها، وثب عليها مجدداً، هذه المرة أقوى، و.... تم..! دخلت عالم النساء.

بعد أسابيع قليلة، أعادت النظر في قمصان نومها. كانت قد أقصتها بعيداً. كان ذلك في الأيام الأولى لزفافها، ولا تزال تعاني آلام البكارة، والاغتصاب. أخرجتها من قعر حقيبتها حيث كانت قد ألقت بها، وشرتها على السرير لتبدأ بترتيبها في الدولاب. رتبتها بعناية. إنها كلها ماركات عالية القيمة، ورائعة حتى التي تفننت أمها بجمعها. لكن التي أرسلتها زوجة أخيها من واشنطن، شيء خرافي.

بعدما انتهت من الترتيب، فتحت خزانة الثياب المعلقة على مصراعيها. تراجعت إلى الخلف خطوات، تتأمل فساتينها، قمصانها، أروابها.. فتحت كل الدولاب، كل ضُلَفه، وابتعدت خطوة إلى الخلف، تحضن بعينيها ثيابها: كلها جديدة، كل شي جديد.

جلست على «تسريحة» التجميل. تحسست بيديها وعينيها أطقم الماكياج والبرفانات. بعضها لم يزل بأغلفته الكرتونية. هنالك قارورة في كل هذه القوارير رجالية. وهذه جاءت بالخطأ، لكن زوجة أخيها استدركت بلطف، وقالت إنها هدية للعريس. عليها أن تفتش وتقرأ بعناية، لتعرف أي هذه القوارير تخص زوجها. هي تعرف العطور الرجالية من إخوتها الذكور، حين يزورهم اثنان من إخوتها في وقت واحد، يحدث صدام عطورات. أما في الأعياد، من أول يوم العيد إلى اليوم الثاني إلى الثالث، بيتهم يعوم في مسبح متلاطم من الروائح الذكورية. لكن العطر النسائي هذه أول مرة تتشرف بلقائه وجهاً لوجه. أمها طبعاً تحتفي بالعطور لكن على طريقتها، احتفاءً كلاسيكياً: دهن العود والعطور العدنية الزباد المجموع، كلها خوام العطر. فاخرة طبعاً وعالية الجودة، لكنها في النتيجة: عطر. لم تشم لأمها برفان كولونيا، كلها من ذلك الخليط القوي الذي يذكر بالملوك والأميرات لكنه ليس رقيقاً. أخواتها لم تعرف نوع عطورهن ولا حتى شمّتها. فهنّ مثل كل النساء لا يتعطرن في الزيارات العادية لبيت أهلهن أو في الخروج اليومي. لكن في «التفرطة» هناك مباريات عطور. هي طبعاً لم تحضر تلك المباريات. إنها فقط

تسمع عنها. لأنها في بيتهم لم تكن قد بلغت مبلغ النساء المتفرطات. لم يكن يسمح لها حتى أن تقتني قارورة كولونيا، لأنها بنت صغيرة وموش متزوجة! رشت على التسريحة لمسة خارجة من خيال جائع: اليوم تدخل المباريات، وتكسبها جميعاً، في كل شيء، فساتين، برفانات، ماكياج. في الماكياج فقط أخذت ثلاث دورات إحداها قبل ستة أشهر، واثنتان خلال ٥٠ يوماً في أثناء فترة خطوبتها. بالإضافة طبعاً إلى البروفات التي استمر تطبيقها لأسابيع بتنافس ثلاثة محال كوافير لأجل ماكياج حفل الزفاف. هذه وحدها كانت دروساً لا تنسى. وأحياناً كانت خبرتها تتفوق وتذهل الكوافيرة.

كان مشروعها حين جلست، يقتصر على فرز البرفانات، وتحديد أي تلك القوارير الكثيرة تخص زوجها. نسيت مشروعها ذاك لأنها غرقت في فن الماكياج.

بعد ساعة واحدة فقط، وقفت قبالة المرآة، بماكياج لا يمكن لأحد أن يميّزه عن ماكياج حفل الزفاف. ذهبت لتغسل وجهها. كان أهم ما تعلمته في الدورات التدريبية، أن لكل وقت ماكياجه، ولكل مكان طبعاً وكل مناسبة.

بعد ساعتين، كانت ندى تتأمل في المرآة حورية خارجة لتوّها من الجنة. هكذا سيقول زوجها. هكذا تخيلت أنه سيقول بمجرد أن يراها، ويندهش.

اندهش طبعاً لكن سلباً: انتابته مشاعر لم يفصح عنها، ربما لأنه هو نفسه لم يعرف طبيعة هذه المشاعر. خبرته في النساء

اقتصرت على امرأة واحدة، زوجته التي يعاشرها من دون أن ينزع ثيابها. الثياب التي غالباً هي ثياب صلاة.

* * *

ألقى من حيث هو واقف بحزمة القات عند قدمي زينب. فزعت. أمامها جثة قديمة ومتعفنة، خرجت لتوّها من صندوق غائر في القدم. ماواذا؟ (ما هذا؟) سألته. هل كان في حاجة إلى الإجابة: قات! سؤالها الذي صدر عنها ربما من دون قصد، لم تكن هذه إجابته.

وضع قبالتها الحزمة، وعليها البقية. لكنها لم تزل جالسة. كل شيء فيها جاثم عند تلك الحزمة. إنها شجرة قات، حاول البائع رصّها في حزمة، ومع ذلك ظلت تقول أكثر من حاجة شخص واحد، أو اثنين، أو أكثر.

جاهدت ذاكرتها لم تستطع. ذكرتها الجثة بحيوات سابقة، بجلسات قديمة ورجال كثيرين، بعضهم يحضر مرة واحدة، مرتين، ثلاثاً على الأكثر. رجال تعرف الواحد منهم من مجرد دخوله من باب الحجرة، بطريقة ظهوره بالقات، من القات. القات بطاقة تعريف، لا تقف عند حدود الاسم والمهنة. تبدأ تستكشف الواحد منهم من قاته؛ هل هو مشذب ومهذب الطول ومصفف ومغسول وملفوف بعناية، هل يضعه برفق في البقعة التي سيجلس فيها كتتمة لإحساسه بما يحمل؟ أم يلقي به بلا اكتراث، ليؤكد لها أن كل تلك العناية بمزاجه هي أشغال شاقة لمن تتولى خدمته في بيته؟

حين يدخل رجل بحزمة كهذه، تعرف أنه محدث! إما

محدث مال، أو محدث منصب نافذ، أو محدث علاقات نسائية.

زوجها محدث قات، ليس إلا!

توقع منها الكثير، لكنها لم تدر ما الذي يجب عليها أن تفعله. غسلت القات وجلست لتهذبه وتصففه. أمسك بها من ذراعها، لتذهب وتهيّئ نفسها لجلسة قات. هكذا كما تجلس امرأة إلى رجل. جلسة خاصة يعني. لم تفهم شيئاً؛ غيرت ثيابها، مشطت شعرها، لم يعد لونه أشقر! وجلست.

في فمها كلام تريد أن تقوله.. بصراحة هي لا تحب مضغ القات. هو أيضاً في فمه كلام يريد أن يقوله. زم شفتيه، نهض واقفاً، وغادرها لأيام، وأيام إضافية!

* * *

٩٧م

بقي للحظة يتأمل جسدها العاري فوق فراشه، إنها قصيرة بعض الشيء. ليست قصيرة يا طارق، إنها صغيرة. هزّ رأسه نافياً: ليست طفلة. يدها تعابث شعر وجهه، تنغمس، تشد! يتجه صوب شفتيها، تصد قبلته وتعطيه بديلاً، قادت وجهه إلى عنقها، أطلقته هنا، ليواصل سفره السحري في مغاراتها.

كفَّ عن النظر إلى عينيها بين اللمسة والأخرى، ربما نسيها. الأوتار في عنقها عزفت، رقصت، هو الآن يقضمها بأسنانه ولا تعترض، يده تشعل حرائق فوق قبتيها، فمه يصب

عليهما الزيت، تسمع أدخنة تتصاعد وبخاراً. يهبط، تعرف تلك اللحظة، حين يستعر فوق سرتها ويعربد، تكون الجنية قد سحرته. رفع فخذها وأبعده، برك، انفتحت كل أبواب المغارة، سوّى جسمه فوقها، أرخى ساقيه ليكون السفر هادئاً وطويلاً. بعد قليل وثب، لأن الجنية تشده وترعده، يدفعها للداخل، يدفع، أعلى، أسرع. . يااااه إنها تمطر من السماء السابعة، وتتوغل إلى الأرض السابعة. .

ساعداها جناحان يحطان إلى جانبيها. عيناها تعومان في وجهه. فمها ثاغر بنصف ابتسامة. زجرها لتنهض وترتدي ملابسها. فوجئت: «لمه؟ (لماذا؟)» المرأة لا تنام عارية، تلعنها الملائكة. «مش نايمة». بقاؤك هكذا مكروه. وقال لها أيضاً، حبذا لو تنهض وتغتسل، النوم على طهارة مستحب. هو رجل، ويكفي أن يغسل باهه، بغسل الباه يطهر الرجل من الجنابة!

* * *

كان يداعبها برضى وطمأنينة. فجأة نزع عنها قميصها، ومزقه. لا يحبه. لا يحب كل قمصانها، إنها فاضحة ولا تليق بامرأة مسلمة.

أخيراً قال ما يزعجه منها. لم يكن عليه أن يسكت كل هذا، بهدوء صرّت القمصان في «بقجة». في أقرب زيارة أعادتها إلى أمها. كانت قد كلفتها الكثير من الوقت والتجوال، لتنتقي لزواج ابنتها أجمل الموديلات وأجود الماركات. هذا يعني أنها لم تُعد إلى أمها إلا ما كانت اشترته هي. أما القمصان التي اشترتها

كرستين فقد أحبتها، لم تستطع أن تفرّط بها. صرّتها كلها في بقجة، ودفعت بها إلى نقطة بعيدة في الدولاب. لم تفرّط بها. لكن حفظتها بعيداً.

لا يحب هذا قالت لأمها، وكفى. الأم أيضاً لم تجد ما ترد به، لم تستوعب الأمر لتعرف كيف ترد عليه. انفعلت لكن من دون أن تعرف طبيعة انفعالها. يشبه الندم أو يحرض عليه. كثيرون حذروها من تزويج ابنتها صغيرة، نموذجك لم يعد يصلح اليوم، زمنك غير زمنها. أمة السلام، أم ندى، تزوجت دون الثالثة عشرة، رزقت رجلاً يكبرها بعشرين سنة، رجل طيب، سبق له الزواج مراراً، والإنجاب بالطبع، لكنها الأخيرة، وأولادها منه هم أصغر أولاده! كان حنوناً عليها ومحترماً معها. لم يكن في حياتها غصة، إلا أنها أنجبت كل ذلك العدد من الأولاد، ستة أولاد! كان «نفسها في بنت»! جاءت متأخرة، وكانت آخر العنقود. كانت تتمنى لو أنها جاءت أولاً، كانتا كبرتا معاً، وكانتا أصبحتا صديقتين كما هي جليلة، ابنة زوجها، صديقتها، مع أنها ابنة امرأة أخرى. لكثرة ما تمنت البنت، خشيت أن يقال لها يوماً أنت تعوقين مستقبل ابنتك، ولا تزوجينها لمجرد أنك ترغبين في بقائها في بيتك! لكن يبدو أنها خشيت اللوم أكثر مما يجب، وتسرّعت في تزويج ابنتها.

* * *

شن حرباً مع التلفزيون؛ كان كلما دخل البيت ووجدها تقلب القنوات، يشد من يدها الريموت، ويثبت القناة على شريط

أخبار، أخبار لا يسمعها. اليوم أغلق التلفزيون بالمرة، منعها أن تفتحه لا في وجوده ولا في غيابه.

لن تقبل هذا! انفعلت وجرت إلى حجرتها. لحق بها، لامسها، أبعدت يده عن جسمها. هرسها تحته كما لو كانت عروسة من القطن. قاومته؛ ليس طويلاً. شيئاً فشيئاً كانت عروسة القطن تنفرط وتتوهج! منذ بضعة أيام لم يلامسها، ومع ذلك لم تقل له إنها استمرأت اغتصابه، على العكس ظلت غاضبة، إلا التلفزيون! ما الذي لديها غير التلفزيون ليسليها. مساءً داهمها مبكراً، كانت في حجرتها، احتدت، هدأت، تفلسفت تقنعه بأهمية التلفزيون، لم يسمع شيئاً، كان مشغولاً بمضاجعتها. إنها أشهى عندما تتمنع.

* * *

عودتها إلى المدرسة كانت باقتراح منه. ومع ذلك لا تدري لماذا؛ كلما أمسكت كتاباً للاستذكار، أو جلست على دفتر لكتابة الواجب، يبدأ يتبرّم ويختلق المشكلات. ولا تحلو له ممارسة الجنس إلا حين يعرف أن لديها صباح اليوم التالي اختباراً، يظل يشاغلها ويؤجل نومها إلى مطلع الفجر.

اليوم دلق العصير على كتابها. حين سألته هل كان يتقصد ذلك؟ لم يرد. نهض يجلب حقيبتها المدرسية، يخرج الكتب والدفاتر ويمزّقها تباعاً.

اليوم التالي، بتمهل كبير وتبختر في المكتبات، جدد لها حقيبتها المدرسية. ذهب معها إلى المدرسة، «يشتري» لها كتباً

بديلة ويعتذر عن غيابها ليوم دراسي، ستستأنف غداً. كان ذلك طبعاً بعد ليلة عاصفة من الشجار والبكاء والحنق، تخللتها ثلاث ممارسات جنسية!

– لا تسمّيه جنساً! اسمه جماع. لم يهبه الله للرجال عبثاً بل لحكمة، لحمده وشكره على هذه النعمة. إنه نعمة. لا تسيئي لنعم الله.

ثم سألها عن النساء: هل يستمتعن، هل هناك ذروة، وقذف وما إلى ذلك.

نظرت إليه شزراً، هل يستخبل. ردّت عليه باحتقار: «لا طبعاً! هبة نزلت بها الملائكة للرجال فقط، كيف يعني! تتقطع لها النساء وتخطفها من يد الملائكة!؟».

بودّه لو يصفعها. السؤال الذي وجهه إليها، وارد جداً أن يوجهه لبنت يقولون إنها في الثالثة عشرة، لكن واضح؛ لسانها أطول منها. كي لا يبدو عليه أنه أهين واصل كلامه، هذه المرة هو يشرح «النعمة» كخصوصية ذكورية، لا يظن أنها تتوافر عليها النساء. لم تكن خصوصية تلك التي تحدث عنها. كان يتحدث عن معجزات:

– ماء الرجل يجيء من كل خلية في جسم الرجل، سبحان الله، كل خلية ينبعث منها الماء، هذا الماء سبحان الله يقطع رحلته ويتجمّع ويتدفق في اللحظة نفسها، هي نفسها لحظة القذف!

في الواقع لم يكن كلامه ذاك ينمّ إلا عن صورة تخيّلية وربما

طفولية، صورة ستحتفظ بها ندى في أرشيفها لحين أن تكبر، لا لشيء إلا لتبحث فيها، لحظتها لم يكن لديها ما ترد به، ومع ذلك ردت، هذه المرة بسخرية لاذعة:

– الظاهر أن ماءك تنزل به الملائكة ببرشوت!

هذه المرة صفعها لكن ليس بيده بل بأن ناكها. لم يكن ذلك الذي فعله ويسمّيه الجماع، أكثر من رد مغتاظ، مسبة، نفس السبّة والشتيمة التي يتلفظ بها أولاد الشارع في سبابهم اليومي. لا فرق إلا أن هذه السبّة ليست لفظية بل فعلية!

* * *

شكته إلى أمها، لا تلفزيون، لا ستريو، أمس حطم مسجلها الهيد فون. استبقتها الأم عندها، حتى يجيء لمراجعتهم فيها. سيربونه قالت. تسلت البنت بالتلفزيون بعض الوقت، ثم انسلت إلى حجرتها، إلى الستريو خاصتها، لم يزل في مكانه. تلفتت حولها؛ كل شيء في موضعه، لا شيء إلا أن بطانيتها مرتبة ليس حديثاً. ألعابها، دماها كلها، مرآتها بالرسوم والصور الملصقة عليها، المقتطعة من المجلات بدءاً من ميكي ماوس إلى محمد فؤاد وراغب علامة ومصطفى قمر وعمرو دياب. صورها المكبرة في الحائط، والمبعثرة على الرفوف والكمودينات. كل شيء في حجرتها يُحَدِّث عن بنت لم تغادر هذه الحجرة يوماً. لم يتغير شيء، سوى كاسيتاتها الكثيرة، صارت أكثر ترتيباً. مسجلها الكاسيت، الستريو الذي يغضب أمها عندما يرتفع صوته يهدد بكسر النوافذ ويوقع الأشياء من أماكنها. الصوت نفسه أو أعلى

قليلاً لم يغضب أمّها هذه المرة. غنّت مع نوال الزغبي، وعاصي الحلاني، وبكت مع أصالة وشيماء.

آخر النهار؛ صعدت إليها أمها لتخبرها برد الأب: لا بد من أن يكون مجيئها من بيت زوجها في حنق صريح. لا يحق له أن يستبقيها عنده، هكذا، من دون سبب معلن! روّحي لبيت زوجش!

* * *

لا مدرسة! لا ضرورة لأن تذهب ندى إلى المدرسة. هكذا قرر زوجها!

* * *

في معرض كلامها لأمها، وليس عمداً، قالت جملة استرعت انتباه الأم. سألتها أن تعيد تردادها؟ لم تفهم. أعادت المشهد كله. وهو يصيح بها، يريد أن تطهو له طعامه! خدامة فلبينية، وأخرى صومالية، إضافة إلى عمة سعدة، التي بقيت معها بطلب من الأم منذ ليلة زفافها. ويصيح بها: «أهلش ما علموش الطبيخ؟ لكن الجنس! ما شاء الله! مدربة وخبيرة!» أوقفتها هنا! هذه هي الجملة التي أرادت الأم أن تكرّرها على مسمعها، ولم تصدق أنها قيلت لابنتها.

في اليوم التالي كان أبوها وإخوتها في بيته يستجوبونه: ماذا قلت، ماذا تقصد! أحد إخوتها أمسك به من ياقته: «شوف! أحنا صدقنا ذقنك إنك محترم، لكن قليل الأصل يبقى قليل أصل.

شوف.. ذقنك هذه إذا كانت كذابة نحلقها لك، ونحلق لك راسك من الرقبة!» لم يزد الأب شيئاً، سوى نظرات الازدراء والتحقير والتحدي! يشبه رئيس عصابة وسط هؤلاء المسلحين. ستة إخوة لم يتأخر منهم أحد، هذا غير إخوتها المنقطعين لأعمالهم في محافظات عديدة! غير المسافرين في الخارج!

لم يرد بشيء، وربما لم يسمعهم، كانت الإهانة التي أخرسته قد أصمّته كذلك. رحلوا جميعهم آخذين معهم ابنتهم، والعمة سعدة!

* * *

خطر له فجأة أن يغيّر ديكور المكتب! ليس مكتباً بل محل. فيه منضدة وكرسي، وغرفة سرية لمضغ القات، وعدد مبالغ فيه من خطوط الهاتف، وعدد أقل مبالغة من العمال. ليس مكتباً، وليس عملاً..

يا لفخر أبيه أنه أسس أعمالاً حرة! حرة ماذا؟ إنها تشبه أعمال تجار الشنطة، و«المفرشين». على ما جمعته من المال، لم ترتق يوماً لأن تصبح شخصية اعتبارية مؤسسة أو حتى شركة. في مجموعها ظلت نثاراً، لا رابط بينها غير شيء واحد؛ ليس رابطاً، إنه تشابه. هل هو تشابه؟ كل واحد من تلك الأعمال يتدلى منه خيط، من يتتبعه فقط وبصبر يوصله إلى سهم، خلف هذا السهم حجر، تحت الحجر ورقة ملكية، وثيقة مكتوب عليها اسم «قاسم عُبيد».

تجارة بنت شارع. كأن لا أب لها، أنجبتها أوقات الشدة.

والده! الرجل المنبسط والليبرالي، هكذا يشاع عنه! ربما لأنه يذهب بانتظام إلى «الساونة» ولا ينزع عن وجهه نظارته الشمسية. ويحضر المناسبات الرسمية ببنطال الجينز. رجل جذاب لكل من يراه. ندى حين قابلته أول مرة ذُهلت! لا يمكن أن يكون هذا الزوج، ابن ذاك الرجل! لم تنم ليلتها في فراش الزوجية. زوجها! إنه يبعث على الاكتئاب. واكتشفت أيضاً، الليلة نفسها، أنه يدهن يديه ورجليه بالوزلي (بالفازلين). اخييه.. وزلي!!؟

* * *

١١/ ٢/ ٩٨م عادت ندى إلى بيت الزوجية، بعد غياب شهور.

إلا أنه رافقها كما تقتضي الأصول من بيت أبيها إلى بيته. لكنه ما إن أتم مهمته في إيصالها حتى غادر. لم يبق دقيقة واحدة في البيت، غادر لأنه مشغول. مشغول جداً.

إنه باختصار يتزوج! اليوم هو يومه الأول مع الزوجة الثالثة. سنها كبيرة، حوالى الثلاثين. لا تكاد تصغره بأكثر من خمس أو ست سنوات. لكنها أجمل سبعين مرة من هذه التي لا يفوّت أهلها مناسبة لا يقولون لك فيها ١٣ سنة. أهلها! مشكلة ندى هي أهلها. سيقولها لهم يوماً: لا أسوأ من قلة حياء البنت، إلا قلة حياء أهلها. ويقولون لك قبائل، ونسب، وأصل! أحط ناس؛ الأهل الذين يأخذون ابنتهم من بيت زوجها عنوة. ليسوا من القبائل، ولا الأشراف، ولا الأخلاق، ليسوا من الناس في شيء.

امرأة بكراسة وحذاء مدرسة وجسم لا يدل على عمرها الطاعن في الخيبة. شكلي في المرآة لين، هل لو ضفرت شعري إلى جديلتين صغيرتين، ودليت من كل منهما شريطاً وردياً أو أزرق أصير ابنة الرابعة عشرة! لكن هذه البنت لن تذهب إلى المدرسة فلماذا الكراس؟ كانت في طريقها إلى المدرسة، لكنها الخمس دقائق التي تقف فيها قبالة عربة جر. إنها لا تقف، إنها تتحرك كفراشة، تبدل الأطباق المتسخة بالنظيفة، تفرغ الصحن من قشور البطاطا المأكول والبيض، وتعاود وضعه لأجل قشور جديدة. تغسل يدها، وتذهب إلى المدرسة. لا يحتاج كل ذلك إلا إلى خمس دقائق.

والآن لنحسب كم ٥ دقائق تأخذها العربة من عمر البنت في ١٢ سنة؟ ٢١٦٠٠ دقيقة. برافو. الحسبة صحيحة، وتدل على آلة حاسبة ممتازة. لكن العربة لها حسبة أخرى.

عربة بيع بطاطا تقف إلى جوارها بنت في الرابعة عشرة، لا بد لذلك من أن يعني شيئاً، تستطيع أن تقرأ ذلك في عيون المارة. من هؤلاء من يخطر ببالهم فجأة أن يأكل البطاطا. وقد يفكر بعد مغادرته أنه نسي شيئاً، ربما كان عليه أن يأكل بيضاً، بيضة يقشرها أطول وقت. كانت الـ ٥ دقائق الأكثر اكتظاظاً بآكلي البطاطا والبيض. مع أنه وقت غداء، الساعة ١٢,٥ موعد لا يصلح أبداً لأكل البطاطا والبيض، لكن عدد المقبلين على أكل البطاط والبيض في ازدياد، وينذر بسكان؛ بمدينة وجبتها الرئيسة بطاطا وبيض.

والآن إلى العقدة الثانية في حسبة العربة.

كل ذلك العدد الشاسع من البشر سيتغير مكانهم، ليصبح على بعد أمتار من العربة. ولن يأكلوا البطاطا والبيض. هل اكتشفوا أن الوقت غير مناسب؟! لا. بل اكتشفوا أنهم غير مناسبين، أو أن مكانهم غير مناسب. رحم الله امرأً عرف قدر نفسه. المارة والمشاة والباحثون عن عمل والعمال بالقطعة والعمال بالسخرة، إنهم هنا منذ البداية للفرجة، لكن المشهد كان ناقصاً. كانوا يشعرون دائماً بأن ثمة شيئاً، وجود بنت إلى جوار عربة لا يمكنه أن يكون بريئاً. هذا الأب لا يبيع البطاطا، إنه يبيع البنت! بالسيارة الفارهة التي وقفت من أجل البطاطا اكتمل المشهد! حتى لو لم تطل السيارة الوقوف، ولم يفعل راكبها أكثر مما كانوا يفعلونه، عندما كانوا يأكلون البطاطا. هل هو حقد على الأغنياء؟ أم هو الفقر؛ لا يعيش أصحابه إلا على اللحم الميت.

اكتمل المشهد؛ في الصورة أب يعرض ابنته ويدلل عليها يومياً، بوقوفها خمس دقائق إلى جوار عربة جر.

كيف تخرج من صورة بهذا الإحكام.

تمتم الأب ربما بأدعية ربما بشتائم. لقد كسر الله ظهره. وكل عمل يفكر فيه أو يشرع فيه لا بد له من مساعد. ولا أحد غير زوجته وابنته الكبيرة. آخر عمل له كان دكانة أشبه بكشك لبيع الخضروات والفواكه.

كان أول عمل لها الخضروات والفواكه. لا عربة ولا خمس دقائق. الخمس دقائق كثير. إنها الآن تعمل بنظام الثواني. الثانية الأولى كانت من صنع الجمهور أو بالاشتراك معهم.

نعم هي جميلة وشابة وجذابة. وربما هي سعاد حسني، ومارلين مونرو، وهند رستم، و. . ومع ذلك، هي لم تفعل شيئاً من الأشياء التي حدثت لها في الصورة. نعم حدثت لها والدليل الصورة. باختصار؛ الثانية الأولى كانت تعليمية. هل من حرفة من دون تعليم، وخصوصاً هذه؟ جمهور واسع أوسع من مدينة، يمكن أن تطيحه بثانية، ليس دفعة واحدة طبعاً، لكل واحد منهم ثانية.

هي ثانية لا أكثر، ووحدك تقررين متى وكيف ومن؟ لا تكترثي لآلات تصوير ولا للتصوير، الصورة جاهزة منذ مئات السنين. وأنت بهيئتك هذه وربما بالثياب نفسها موجودة في الصورة منذ مئات السنين. كل الذي عليك في تلك الثانية هو أن تثبي له من تلك الصورة، في ثانية لا تنسي! إذا لم يحدث ذلك في ثانية، فلن يحدث أبداً. بقي أن تحددي ما الذي تريدينه أن يحدث: حب، متعة، طيرفة، طيش، أكل عيش!؟

في تلك السن الصغيرة، ومنذ الوهلة الأولى، عملت بتخطيط واحتراف. احتاجت إلى مساعدة والدها. عمل هذه المرة المساعد فيه هو الوالد. هل كان ظهرها مكسوراً؟ لا ظهر لها أساساً. لكن في ما بعد. . بعد سنين، ستشعر بأن شيئاً ما يؤلمها، لا تدري أين؟ أهو ظهر أبيها؟

هي الآن تحمل كراساً، وتستعد لتذهب إلى أول درس. تحتاج إلى دروس في اللغة الإنكليزية. ولأنها محترفة وتخطط، وقفت أمام المرآة ملياً. تسألها؛ ما الذي ترتدي، أية شخصية؟ الاسم الذي دوّنته عند التسجيل، هو الاسم نفسه الذي ألحقها به

أبوها بالمدرسة، الاسم نفسه الذي أخرجها كذلك. بقي أن تختار البنت!

هذه التي خرجت لها من المرآة، محنطة منذ اثنتي عشرة سنة. بعد الدرس ستذهب لزيارة زينب. ستفرح كثيراً بهذه البنت التي لا تضحك.

* * *

٨٧م

حوش، حديقة منزل صغيرة بشجرة واحدة وبعض الأغصان، بضعة أمتار كانت متنفساً لبيت. قررت صاحبته الاستغناء عنه، لتفيد من إيجاره. اجتثت شجرته الوحيدة وأغصانه، وسقفته، زرعت داخله بعض الجدران، وأعلنته بيتاً للإيجار.

هو الآن بيت لأسرة من ستة أشخاص، ثلاث بنات وولد وأبوين.

أرضية البيت من الطين. طين خصب، يطفح جلده بالأخضر. لم يقنع بعد بمصيره وأنه صار مسقوفاً، وخصوصاً عند المغسلة التي مطلوب منها أن تسمي الزاوية التي هي فيها مطبخاً. أسفل الجدار غير المتصل بالسقف خلفه حنفية، وبجوار الحنفية مرحاض، دليل كافٍ على أن هذه المساحة المجتزأة والمبتلة هي حمام. بقي مجتزأ آخر بسعة تقارب ٢×٣ متر. هذا المجتزأ كان للفترة الأولى من السكنى غرفة نوم الأبوين. لم يعد كذلك الآن. هنالك في ركن ما؛ شق غير واضح ما هو. طوله يزيد على مترين، بعرض لا يزيد على تسعين سنتيمتراً. ستارة

على وشك أن تتدلى من أعلاه، لكنها مرفوعة. بأسفله لوح إسفنج يقف على أحد أضلاعه، بالملاءة التي تغطي لحمه يبدو فرشاً لكنه مرفوع مؤقتاً. شق بجدارين، على الستارة المرفوعة أن تتم بانسدالها الجدارين الباقيين لتصبح غرفة. هذا الشق كان سابقاً باب حوش. يفتح بمصراعين لدخول سيارة حميدة وخروجها. كان ذلك سابقاً، عندما كان لحميدة سيارة. بالوضع الجديد؛ لم يعد لحميدة سيارة ولا حوش.

فيما عدا ذلك من المجتزآت والشق، هنالك أرضية سيصبح اسمها الصالة. تشي بالسعة نوعاً ما، بثلاث نوافذ إحداها لا تطل بك إلا على جدار الجيران، لكن بمسافة تسمح بتخلل الهواء وربما بتنفسه أيضاً. الأخريان لا تفتحان إلا في الضرورات، لأنهما تطلان على الشارع.

بيتهم السابع. بهذا البيت تكون رجاء وأسرتها قد انتقلوا للمرة السابعة، منذ باعوا بيتهم الملك قبل خمس سنوات. كل بيت كان يشهد أثاثاً أقل. عند انتقالهم إلى هذا البيت، لم يكن قد بقي لهم من الأثاث ما يكترث الواحد لحمله.

كل من الجارتين، المؤجرة والمستأجرة، قصت سيرتها للأخرى. حوش حميدة، الحوش المفتوح السقف، بشجرة البلس التركي (التين)، وأغصان الريحان والشذاب واللزاب والنعنع والكزبرة والفلفل الأخضر والطماطم والبصل البلدي. الحوش الذي آلَ إلى بيتٍ للإيجار. البيت نفسه الذي من الطين، المسقوف الناضح بالرطوبة والعشب آلَ إلى سكنى إبراهيم عبد الواحد المشرعي، المقاول الذي أبدعت يداه أجمل الفلل

والعمارات، وكاد يشرع في تنفيذ منشأة حكومية تنفيذاً منفرداً. هو اليوم يدس أسرته في جرف ينخفض عن مستوى الشارع المسلفت من حوله بمتر أو أكثر.

للجارتين فاطمة وحميدة السيرة نفسها. لا قيمة للتفاصيل واختلافها. تشكوان غدر الزمان وتبدل الأحوال، تذرفان الدموع نفسها، على هذا الطين نفسه، هل لمزيد من الرطوبة والعشب!

بالنسبة إلى فاطمة لم تكن تعرض سيرتها لمجرد الفضفضة. إنها تعي تماماً، مع كل كلمة تقولها، أنها تتكلم إلى المؤجرة، مالكة البيت التي يمكنها بلحظة واحدة أن تطردهم.

كان ينبغي أن تعرف هذه الحميدة، لكن بكثير من الأدب، بالكثير من الدموع! أن زوجها هو إبراهيم عبد الواحد المشرعي. جار عليه الزمن، وكسر ظهره، بَيّعَه ملكه، والكثير مما ادّخره في زمن العز. لكنْ بقي لديه من أيام الرخاء واليسر، القليل من المال وكثير من الناس الطيبين، أصدقاؤه الذين لم يتخلوا عنه أبداً، لا يمر أسبوع من دون أن يزوره واحد أو أكثر منهم.

مسوّغ بسيط ولا بد منه لتبرير زوار أثرياء. لم يكونوا زواره طبعاً، بل زوار رجاء. أما هو فليس له أصدقاء. حتى المقاول الذي حمل عنه عبئه لسنوات، أكثر من ٥٠٪ من مقاولاته هو الذي نفذها. سنوات كان يظنه قد أصبح أخاً وصديقاً، رب عمله هذا تنكر له، لم يزره أكثر من مرة إلى مرتين بعد مرضه، ثم نسيه بالمرة، كذلك فعل أصدقاؤه الميسورون وحتى غير الميسورين، لكنه لم يكن ليعتب يوماً إلا على رب عمله، كيف لم يحفظ له عيشه وملحه وعرقه.

كلهم زوّار الأب على أية حال، لكنهم يزورونه في هذا البيت من أجل رجاء. البيت الذي قبل هذا تماماً، لم يكن عددهم قد زاد على ثلاثة. كان المسوّغ أو مبرر الزيارة: خطبة البنت! مسوّغ معقول لكنه قصير الأجل، ولا يصلح لعدد أكبر من الزوار. استدركوا الأمر قبل حدوث أية مشكلة. كان انتقالهم إلى أيّ مسوّغ جديد، يقتضي انتقالاً من البيت. الوضع مدروس. لم يحدث أن انتقلوا من بيت بسبب سوء السمعة. لتوّها بدأت، في البيت الذي قبل هذا تماماً، وعلى أعقاب بيع البطاطا والبيض المسلوقين، وأعتاب الخضروات والفواكه، هناك قررت البدء وباحتراف. لكن عملها في البيت السابق لهذا، كان كله بروفات. إنها إلى هذه اللحظة لم تفقد بكارتها. ليست مستعجلة. تارة تسأل أمها عن الافتضاض كما يسأل جندي عن معركة فر منها. وتارة كما يسأل مهاجر عن مدينة ستكون موطنه، هجرة لا رجعة فيها. أبوها يقترح التأجيل وبكثير من الممالأة. لم يقل ذلك شفاهية. لكن هناك كلام يصبح أبعد مدى وأطول عمراً حين لا يحط على شفتين.

١١

كانت تعرف أن هذه الحرفة لها سنّ محدودة. بعدها تحال الواحدة إلى التقاعد. صحيح أنها لم تضرب لنفسها موعداً. لم تقل مثلاً سأعمل إلى سن كذا، ولعدد سنين قدره كذا. كانت تعرف أنها سنوات محدودة، لكن ليس إلى هذه الدرجة. في

بداياتها وهي تخطط لكل شيء، سألت نساءً كن فوق الأربعين. خدعنها بنات الكلب! لكنهن لم يقلن شيئاً. أنت بنيت معلوماتك، على العدد الكبير الذي زاملته، من نساء بين ٤٠-٥٠ سنة. هذه مسألة تعنيك.

نساء في تلك السن، وما زلن في أوج نشاطهن؟!

ربما هو الزمن الذي تغيّر!

ما الذي تغيّر؟ على العكس زادت فرص النشاط بالعائدين من الخليج، والنازحين من العراق، وبهذا العدد من الجنود. آلاف مؤلفة من الأميركان. فرج يقسم إنه قرأ قبل عامين وثيقة رسمية تتحدث عن ١٥ ألف جندي أمريكي، وإنه مطلوب بحسب الوثيقة نفسها، تدريب أكبر عدد ممكن من البنات، لسد حاجاتهم الجنسية! جنس عسكري! مهمة مثل أية مهمة عسكرية. عائدو الخليج؛ مساكين كانوا أفقر حالاً، لكن بناتهم ما شاء الله، لم يرفدن السوق بعدد جديد فقط، بل كذلك بنوعية شكلت إضافة، ما شاء الله عليهن، خبرات. والنازحون حفظهم الله وردهم إلى بلادهم، ليسوا بأفضل حال. إذاً، كما قال صهيب — قائد قواد صنعاء وضواحيها — «خربت، أصبح الباعة والبضاعة أكثر بكثير من عدد المشترين. رخص الشيء! لو مش عاجب لش دوري لش عمل ثاني!».

لا عمل آخر. التي تدخل هذه الحرفة لا خروج لها، ولا بقاء بعد سنّ معينة. إنها لا تخرج بل تُرْكَن! تظل تحت الأنظار، تظل الأصابع تشير إليها: هذه كانت فاعلة تاركة صانعة، لا أحد

ينسى ماضيها، لكنها تُهمل. ماضيها حاضر وهي مهملة. يضعون بدلاً منها في نفس مكانها بنتاً جديدة، وهي تُرفع وأمثالها مخلّفات. مجرد مخلّفات تنظف منهن شوارع المدينة. المدينة تجبُّ مخلفاتها ببنات صغيرات.

هي أيضاً لم تزل صغيرة، لم تجاوز سنّ الـ٢٦.

كان زمان. ما يرد إلى السوق الآن يبدأ من سن الثامنة. أسر تجيء ببنات في هذه السن وترد، لا تقبل! لكنها في الطابور. تبدأ بالعمل على سبيل التأهيل من ١٠-١٢ سنة، لكن مع التشديد على البقاء في بيت أبيها وتحت إشرافه بل تحت قوادته. إنها لا تتدرب طوعياً طبعاً بل بأجر، وربما هنّ أعلى أجراً. لكل سنّ حلاوتها. الأصغر هنّ الأحلى عند الزبون المحلي. الخليجي أيضاً يقبل على السن الصغيرة، لكن علاقاته هي مع المراهقات من ١٦-٢٠ سنة. ينفرد بها، ينقيها من قواديها، من أكبر عدد منهم. يفضّل المقيمة عند أسرتها وعندها إيميل لأنه يهوى المراسلة قبل النيك وبعده. وقد لا ينيك، قد لا يجمعهما فراش فعلاً طوال العلاقة، لكنه «يدفع» للعلاقة. لماذا؟ لا أدري، ليكون عنده «واحدة» في اليمن. ولأنه غالباً ليس لها إيميل فإنه كل فترة يرسل لها موبايل. الرسائل أولاً. الأميركان فقط يفضّلون الأعمار من ٢٢ وصاعداً. لكن هؤلاء جرت مقاولتهم على أعلى صعيد. خطط وبرامج ولجان. صهيب يزاحم، يناضل من أجل أن يحصد أكبر قدر من تلك المقاولة. قد ينجح، قد يكون صاحب أنجح خطة ويكسب، إنه دائماً يكسب، ليس من المستبعد أن نسمع لصهيب مثل كل الوزراء خطباً، عن دور النيك

الأميركي في التنمية المستدامة! هذه الجملة التي يكثر ترددها هذه الأيام، ولا ندرك معناها.

٢٦ سنة سنّ كبيرة. صحيح لم يزل لها سوق لكن إلى متى؟ إلى كم سنة بعد؟ أربع خمس سنوات، حتى لو عشر، فإنها لا تكفيها لتأمين العاقبة. لم تدّخر شيئاً. أجهز المبنى الذي تبنيه لأسرتها على كل مدّخراتها. هذا بالإضافة إلى الإنفاق على الأسرة. تسعة أشخاص مهما ادخروا واقتصدوا، إلا أن لكل واحد منهم حاجاته. ليسوا وحدهم من يستنزف مالها، القوادون أكثر استنزافاً، ولا حصر لهم، كل من يتعرف ولو على سبيل المصادفة إلى بائعة يضيف نفسه تلقائياً إلى قائمة نفقاتها، عليها أن تدفع له، نظير ماذا لا تعرف! ابتزاز وبلطجة. دائماً هناك رسم عبور أينما ذهبت.

عليها أن تردّد هذه المخاوف يومياً. قبل درس اللغة الإنكليزية، وعند استذكاره. لا بد من اكتساب اللغة. صهيب يقول إن الأميركان يفضلون الأكبر سناً، لكن لا بد من لغة، لأن المسألة بالنسبة إليهم ليست «نيكة» والسلام! لا حل آخر. زينب من البداية اكتسحت الأميركان، ومن دون لغة. بماذا؟ «بطاعة الوالدين وصلاة الفجر حاضراً».(٢٠)

زينب!

بدون أسئلة كهذه لم تعد تتقبّل الكلام معها، كيف لو سُئلت.

---

(٢٠) جملة يقولها الشارع منسوبة لأحد رؤساء اليمن في رده على سؤال صحافي: كيف أصبحت رئيساً؟

زينب أصبحت من سكان هذه المدينة الذين يجبّون واقعهم بالتوبة، المدينة التي تجبّ سكانها بالمزيد من الرخص!

١٢

نهاية النصف الأول من النهار. الوقت الذي يبدأ فيه بالنظر إلى منبهه على المكتب، من أجل صلاة الظهر. فكر في القات. إنه على أية حال الوقت الذي يبدأ فيه المتعاطي بالانشغال بالقات، بجلبه من السوق، بتحديد مكان مضغه، والصحبة المشاركة من الأصدقاء، أو الذين تربطهم به علاقة عمل ومشاريع. القات يفتح خطوط الحوار، ويذلل صعوبة القرار، ويتخذه أحياناً.

طارق ليس متعاطياً. منذ آخر مرة، منذ فشل مشروع «التخزين» مع زينب، لم يقربه. اليوم فكر فيه وفي بيته عند ندى تحديداً. لا يدري لماذا ندى! لكن إذا لم تكن إحدى هاتين الأخيرتين فمن؟ بشرى لا تطيق القات. وإذا كان لها في إخونجيتها دعوة أو قضية فهي محاربة القات! هي ليست إخونجية إلا في دعابات المحيطين ومشاكساتهم. هذا على مستوى الأهل، أما الناس فهذه سجيتهم، كل من لبست جلباباً ونقاباً أصبحت عندهم إخونجية. وكل من طالت ذقنه قليلاً أطلقوا عليه وصف إخونجي!

ندى؟ القات؟ لا يدري لماذا يستبعد الفكرة. كل أهلها على أية حال مخزنون. هي لا يليق بها القات. ومع ذلك قرر: اليوم قات وندى!

ندى يوم غادرها، يوم زواجه بأخرى. لم يكن قد رآها إثر عودتها من بيت أهلها. أوصلها إلى البيت لكن لم ينتظر حتى تغير ثيابها ويراها. ولم يعد إليها إلا بعد أسبوعين. يوم عودته وبمجرد رؤيتها فوجئ بها، صدمته تغيّرات جسمها ونموه على ذلك النحو. لم يستطع أن يكتم انصدامه. كان يتفحصها بعينيه ويديه ويستغرب. خطر له احتمال أن تكون حاملاً. يعرف أن النساء يعتري جسمهن التغيّر في الحمل، وربما هو أكثر في الحمل الأول! مهما تكن أمها قد عنيت بها! يتفحصها عن بعد.. ليست سمنة وحسب. ثمة شيء ما. سألها: «أنت واحمة؟» نفت. وأضافت أنها الآن عندها الدورة! سكت قليلاً وفجأة هب يسأل: «هي جت لش الدورة في بيت أهلش؟» طبيعي جاءتها الدورة! ردي عليّ بأدب متى؟ لم تفهم، سكتت قليلاً لتعيد ترتيب سؤاله. الثواني التي سكتت فيها كانت بالنسبة إليه كافية ليشعر بأن ثمة ما تخفيه. رفع صوته:

- أنت وحمت وأجهضت؟!

- لا..

لم يعد السؤال على مسمعها، لأنه شغلته حسبة الوقت، منذ غادرت بيته إلى أن عادت مئة يوم بالتمام، فترة كافية لأن تحمل، وأن تجهض كذلك! سألها:

- كم مرة جتش الدورة؟

- متى؟

- أنت بتراوغي! عندما كنت في بيت أهلش؟

– ٣ مرات

كم هو غبي إذ يسألها وينتظر أن تقول له الحقيقة! لن تقول له إنها أجهضت طبعاً. لكن إذا كان حملها مني، فلماذا تجهض؟!

من هذا السؤال بدأت جهنّم تدخله. لم يعد يتكلم إليها. إنه فقط يفكر، ويحلل، ويستنتج، ويشك، ويجزم.. هذه البنت ليست بريئة وأهلها يتسترون عليها، ويلصقونها به! شك في أنهم يكذبون بالنسبة إلى عمرها، لم يكونوا في حاجة إلى وساطته في الأحوال الشخصية. حتى وإن كان لديه من ينجز المعاملة في ساعة، هم؛ في أسرتهم من ينجزها أسرع من ذلك! وطلبوا أن يذهب هو. لماذا؟ إنهم يصغرون عمرها، كي يخفوا أنه كانت لها قبل الزواج علاقات.. إنها مدللتهم لا يعاقبونها على شيء. شك في أنهم يتربصون به، بأية إساءة منه، ليستردوها. لتذهب هي وهم إلى قعر جهنّم! لكن لماذا يستغفلونني! وجدوني رجلاً بسيطاً: مسكين متدين، لا يعرف شيئاً! أم هم استضعفوني، ففرضوا خطتهم عليّ، جعلوا من بيتي فندقاً لابنتهم. مجرد إجازة، رحلة سياحة والعودة!

في طريقه إلى غرفة النوم ليغيّر ثيابه، وجدها في الغرفة المجاورة، لم تره، كانت ممدّدة على أحد جنبيها، تقرأ مجلة نسائية. تأمل اندماجها في القراءة، كأنْ لم يحدث شيء، لم يدر نقاش من ذلك الذي تندفع فيه النساء لتحمل حقيبتها وتغادر! دخل الغرفة، غيّر ثيابه، تمدّد في سريره، نهض! ما يشغله الآن، ما يهينه؛ هو استرخاؤها على ذلك النحو، كأنما لتقول له لا شيء يهم! عاد إلى السرير، فجأة صاح يناديها بأعلى صوته.

جاءت. ضاجعها اغتصاباً كالعادة، وكالعادة لم تعترض. كان يبدو لها منفعلاً ومنهمكاً في الجنس. لكنه منهمك في الواقع بمشكلته: هل يطلقها ويقطع على أهلها الطريق؟ لكنه بهذا لا يفعل شيئاً، لقد مر وقت كافٍ ليجعل من طلاق ابنتهم أمراً عادياً. لكن هل ينتظر حتى يجيئوا ويأخذوها من بين يديه عنوة؟ المسألة ليست حباً، لكن ما الذي يبقى لرجل من كرامة، حين تؤخذ منه زوجته بالقوة؟

بمجرد أن قذف، وقبل أن يجفف عرقه، طلقها!

كل الذي قالته أمها، أنه رجل غريب الأطوار ومختل، لا أمان لابنتها معه، وعموماً الخيرة في ما اختاره الله. الأب لم ينبس بكلمة. لكنه مصر على أن ابنته أخفت شيئاً. غير معقول أن يطلق رجل زوجته هكذا من دون سبب. هي لم تقل شيئاً مما دار بينهما، لم تشعر بأن شيئاً دار بينهما، غير تلك الأسئلة التي طرحها وردّت عليها. هل دار شيء آخر؟ صياحه ومضاجعته. أخبرت أمها بذلك! لم يعد لديها ما تضيفه في حضور أبيها، غير أنه منذ عاد بها إلى البيت، لم تره. غاب عن البيت أكثر من أسبوعين. عندها قالت الأم إنه تزوج! وواصلت إنه رجل مختل و.. و.. انهمرت دموع البنت. أوقف الأب كلام زوجته، مشيحاً نظره عن الجميع، كي لا يبدو أنه يكترث لدموع ابنته، أو أن ما يقوله هو بسبب تلك الدموع: «أما الزواج فمن حقه. للرجل أن يتزوج بأربع، المهم أن يكون كفؤاً، والأهم أن يعرف كيف يعامل بنات الناس» وسكت. لم يزد على ذلك شيئاً إلى أن كان يوم عودتها إلى زوجها، قال ما يقوله أب

في مثل هذه المناسبة، كأنما على سبيل الترداد. كلام عادي لمناسبة عادية.

١٣

لم يحتج حتى لاسترجاعها كمطلقة، لأن الطلاق على جماع باطل. بهذا يفتي الناس في الجامع. هذا لو أن أحداً سأله كيف عادت. السؤال: كيف عاد هو؟

كان خجلاً للغاية من نفسه. البنت في مرحلة نمو. إنها لم تزد فقط في البنية، بل في الطول كذلك! وستظل هكذا تطول، حتى سن الحادية والعشرين! هذه الفتوى لم يحصل عليها من جامع، بل من زينب. بالتأكيد لم يكن يسألها عن زوجته! لكن كخطيب جامع هو معنيّ بحال البنات في بيع الهوى، الصغيرات كيف يحملن، ويجهضن، وما الذي يحدث لهن.

لقد وجد مرجعاً يسأله في الجنس، وإن كان إلى الآن لم يجد منها من الجنس إلا الخيبة. زوجته الحاجة أكثر إمتاعاً منها.

خلال سبع سنوات، وفراشه مع بشرى يأخذ الوتيرة نفسها، الإيقاع نفسه. يدخل حجرتها وهي تصلي العشاء أو النافلة، أو تقرأ القرآن جالسة على سجادتها، أو تغرق في دعائها ساجدة. يداهمها حيث هي. لا تنقطع عن الذي هي فيه. حتى وإن كانت تصلي. يفترشها في مكانها لا تعترض. تدع له أن يتم، وتذهب من فورها ومن دون أن يشعر أحد تغتسل لتطهر. كان يظن تأوّهها في السنوات الأولى تألماً، لكن لا، كان تأوّه لذة، بل

لاحظ أنها بدأت تؤخر صلاتها، حين بدأ يتأخر في العودة إلى البيت. وفي الفترة الأخيرة (قبل انقطاعه عنها وقبل زواجه) كان يخطر لها فجأة أن تنهض للوضوء والصلاة، بضع ركعات على سبيل النافلة طبعاً. أحياناً كان يطلب إليها أن تعود إلى الفراش ليضاجعها. وأحياناً كان يدعها في ما هي فيه، وينام.

رغبة الرجال مشكلة، لكن رغبة النساء مصيبة، كيف يفعلن بأنفسهن عند غياب الزوج؟! هو لا يقصد بشرى، فهذه آخر من يزل! وزينب يبدو شربت البحر عن آخره، لم يعد في جوفها متسع لكوب. لكنه لم ييأس، مسألة وقت، إلى حين أن تعتدل في توبتها! ثم إنها تهتاب منه، بشعر وجهه الكث، وورعه البادي عليه.

يحتار الذين يتكلمون إليه بماذا يخاطبونه: أستاذ، فقيه، إمام، شيخ! يشعر بهم يترددون، يختار الواحد منهم اسماً، ثم يعود يغيره إلى آخر في اللحظة نفسها. يحدث أن تندفع وتتزاحم فوق لسانه كل تلك الأسماء دفعة واحدة، ثم يسكت، يحدق في طارق طالباً النجدة. لا ينجده. ما اسمك؟ ما الاسم أو الصفة التي تحب أن تنادى بها. ينظر إليه، ينتظره حتى يتلعثم من دون أن يتدخل. بماذا يتدخل! يختار صفة؟ لا يقدر. يختار ماذا؟ إذا كان هو نفسه لا يعرف ماذا؟

أستاذ؟ لقد انتهى من الثانوية بإعجاز، وبعد محاولته الرابعة! كان أخوه أمين، وهو يصغره بسنة، قد دخل الجامعة. أمين دخل الجامعة لسنة واحدة فقط، كأنما كانت هذه السنة هي كل ما بقي ليستوفي غسل دماغه آخر حلقاته.

فقيه؟ لم يحدث أن أمسك بكتاب فقه طوال حياته. وكل الذي يقوله من فتاوى، هو مما تعلمه من المحاضرات والندوات وحلقات الذكر. حضر معظمها مع أخيه، لكن طريقهما اختلف. أمين جنح إلى التطرف والتشدد، بينما هو استطاع أن يحافظ على التوازن. لهذا أخذ مكان أخيه في إمامة الجامع وخُطَبه، مع أنه ليس خطيباً مفوّهاً. المسألة لا تحتاج إلى خطابة، إنها خطبة جمعة، ثم إنها تجيء من وزارة الأوقاف. مطلوب فقط أن يكون مقنعاً في طرحها على الناس. ولا أسهل من إقناع الناس، وتخويفهم من أنفسهم.

أمّا الشيخ فهذه جديدة. ربما أخذها الناس عن التلفزيون. لأن كلمة «الشيخ» عندنا تحددت كصفة لرئيس قبيلة. وهي صفة تورث كوظيفة ونشاط قبلي، وليست مجرد مكانة. يسمعها، يُنادى بها، تصبح اسمه ولا يعترض. لكن بمجرد سماعها يخطر له أبوه. لم يسخر منه بسبب هذه الكلمة.

في الواقع، لم يعد أبوه يسخر منه أو يتهكم عليه منذ زمن بعيد. لكنْ إزاء هذه الكلمة: «شيخ» غريب عدم تعليقه. منذ سنة وهي تتردّد أمامه ولم يسمع له تعليقاً. ما الذي يتبادر إليه؟ ما الذي يشعر به حين يسمعها تقال لابنه؟

١٤

هذا الرجل اغتصبني! تشعر بأنها خُدعت، غُدرَ بها. . .

رجاء جاثية على الأرض. ظهرها يتقوّس، ورأسها المصوب

باتجاه الأرض يتم القوس. ترفع رأسها ببطء، وببطء أشد تدير وجهها إليه. لولا الأدب، أدب المهنة، لما فتحت عينيها في وجهه. هذا النوع من الاغتصاب بالذات لا تقبله! يده لا تزال ممدودة بحفنة نقود، وصوته منذ ليل أمس لا يزال يخدش أذنها «شكراً، مع السلامة».

للّيلة الثانية؛ يردد هذه الجملة نفسها في هذه اللحظة نفسها. لا يريد شيئاً آخر! هكذا يكون قد أشبع حاجته بالكامل. في الليلة السابقة رقصت بعض الوقت. لم يكن رقصاً، كان كشف هيئة لا بد منه، قبل أن تجثو أمامه هكذا، أمام ساقين يتصالبان أحياناً، يتربعان أحياناً. أمام كأس لا تفرغ. تقبضها أصابع غليظة وشائخة. عينان وكأس بينهما خيط تحديق. هذا الوجه لا يتجه إلى شيء آخر غير الكأس. وأذنه مصوبة باتجاه هذه الجاثية، تتكلم من دون انقطاع. كلما سكتت زجرها، من دون أن يرفع بصره إليها، يقول لها: «خبّري». لم يعد لديها ما تقول.

– أخوك الصغير ما تكلمت عنه.

– ما شفتوش من فترة. من زمان ما شفتهمش كلهم. تسمح لي أمشي!

– تمشي وين؟ تو الليل!

تعرف أن هذه الكلمة، غير مسموح بها في قانون المهنة. غير مسموح لها أن تستأذن بالمغادرة. أن تعترض على سير الليلة. والآن غير مسموح لها أن تسكت.

هذا الرجل يعبر القفار، والمدن، والموانئ، والمطارات. يحدث جلبة بسيارته الفارهة، والذباب الذي يحط عليها. ذباب من السماسرة، والقوادين، وأصحاب الخدمات المعتادة، والخدمات التي تبتكر لتوّها، لتعرض عليه، ليرفضها. ويظلون يتطايرون حوله. ما الضير، ما دام رفضه يعني أن يدفع «ماريد! روح» «خذ، حل عني» «شكراً، مع السلامة». يمشي ويده لا تكف عن هش الذباب. حفنة نقود لهذا، حفنة لذاك. وحين يتعب، يضع الرزمة في يد مساعده «صرّف هذول الناس».

كل هذا، ليجلس هكذا كومة لحم على مقعد وثير. إلى يمينه طاولة شراب بالعديد من القناني، بمازة متعددة الأطباق. طبق بخليط عجيب من المعجنات، طبق مكسرات، قطع لحم، قطع خضار، قطع فواكه. وقبالته قطع بنت!

القوارير إلى جواره تشبه جنوداً ناموا واقفين. لكنهم على أهبة! أربع قوارير مفتوحة بلاك ليبل جين فودكا، ويده لا تمتد إلا إلى المارتيني. كأنْ ليس على الشيء، على كل شيء، إلا أن يحضر فقط، وأن يكون في وضع الاستعداد والطاعة!

كلما سكتت صوّب باتجاهها سؤالاً أو زجرة: «خبري!». ولا يقبل كلاماً آخر. كان يمكن أن تحكي له حكايا شهرزاد. كان أسهل أن تحفظ حكايات شهرزاد كلها وتصبّها في أذنيه. لا يريد حكايات شهرزاد! كان يمكن أن تبتكر له مثلها وتزيد. لا يريد شهرزاد، لا غنى له عن مواجعها: «ويش صار؟» ولا يغفل. تظنه غافلاً ومشغولاً عنها، ومنقطعاً إلى قواريره ومازاته. إنه فقط يدير لها ظهره، وعليها أن «تخبّر»، وإياها أن تكذب. صار يعرف

أين هي كذبتها لكثرة ما تكرّر وتعيد وتقف وتعود. يديرها كآلة تصوير، بآلة ضبط، لا تكذب!

«خبري!» لم يعد لديها شيء! أفرغها. ربما هي القارورة الوحيدة التي أفرغها إلى القعر، من دون أن تلامسها يده، ليس إلا نظراته الآمرة كلما توقفت، وإلا أسئلة أغبى من أن تطرح. كأنه لا يسمع ما تقوله. يطرح سؤالاً يقرب مما كانت أجابت عنه قبل قليل. يدور في مواجعها بمحراث. يبحث عن المؤثر، والأشد إيلاماً، يجمع أوجاعها، ويقطعها، ويعاود رصها كمكعبات على الطاولة. هذا الشكل أفضل؟ لا، هذا أفضل، بل هذا. ولا يكتمل الشكل، يعود ليسألها: «ويش صار؟».

لم يعد لديها ما يسليه. فرغت! كشدها إلى العظم. كلمة أخرى، وتتقيأ في وجهه. لم يزد، اكتفى. اكتمل الشكل كما يبدو، أو اكتملت متعته. يده ممدودة بحفنة نقود: شكراً مع السلامة!

أغرب وأعنف ما صادفها من اغتصاب. حدث أن جربت الجنس الجماعي. مرات يحوّلها بعضهم إلى حجرة ويظلون يدعون إليها أصحابهم المتشردين ليناموا ليلة! وحدث أن ضُربت في سرير زبون. وحدث أن شُتمت وأهينت. وحدث أن سُرقت. حدث في مثل هذا السرير أن اتهمت زوراً. تارة بالسرقة، وتارة بالإساءة، وتارة بالترفع وعدم تمكين الزبون. تهم لا أحد يصدقها ولا يكترث لها، زوابع في فنجان، مردها في الغالب إلى حرج الزبون، تأخر انتصابه أو تورّطه بطلب شيء لا يقدر عليه... مشاكل بسيطة، اعتدنا عليها وعلى حلولها. ما من زبون خرج من

تحت يدها إلا بخير. إنه تحديها الكبير الذي تكسبه كل مرة. عايشت حالات من ضعف الرجال وعجزهم المؤقت والمحلول في الآخر. لم تنهزم أمام أي منها. فيما عدا الإتيان من الدبر. الوضع الجنسي الذي لم تجربه أمها ولو مرة واحدة. ومع ذلك لم تكن تحذرها من شيء أكثر منه. كانت تحذرها من وضع غامض، لا تعرفه. وتصف آثاراً محتملة، تخمّنها.. إنه يحدث جرحاً في الدبر، جرح يسيل في إثره الدم، قد ينتهي الجرح لأن يكون نواسير، بواسير، تكرار هذا الوضع، قد يفقد الواحدة قدرتها على التحكم بالإخراج. كانت تحذر من وضع غامض، من نتائج غامضة، تخمن، وتصف، وتبالغ أحياناً. هكذا هن الأمهات، يبالغن في وصف الأخطار التي يتمنّين أن نتجنبها. أمي قالت الكثير. لكنها لم تقل إنه الجرح الذي لا يلتئم أبداً. جرحٌ لا موضع محدداً له، ولا دم مرئياً يسيل في إثره. الإتيان من الدبر، إنه الهزيمة التي لا تتناقص مراراتها بالتكرار، العكس، كل مرة هي أشد، إنه الهزيمة التي يتكرر حدوثها كل مرة، بأكثر من ألم أول مرة. والقوادون لا يرحمون، مكاشفتهم بألم ما، لا تعني أكثر من الكشف عن فرص جديدة للاستثمار. كان عليها دائماً أن تتجنب هزيمتها، وحدها، أو أن تتحمّلها من دون أن يعرف أحد.

كم لا يزال في هذه المهنة، من مخابئ لم تخبرها، وتلبث لها فيها هزائم لا رادّ لها، كهزيمتها اليوم، هذه التي من نوع آخر، وجديد. لقد اغتُصبت في روحها.. اغتصاب يخلف المرارة والإنهاك.

«قلت لي أنه أمك حلوة. أوصفيها لي شعرها، عيونها، أوجانها، كله. . كله».

«قلت لي أمك حلوة طيب ليه ما اشتغلت بدالك».

«قلت لي أنه أبوك مكسر، طيب ليه ما صلحتيه من أول شغلك ورجعتيه يشتغل».

«قلت لي أنه الولد اللي حبيتيه كان سياسي ليه ما هربتيه وهربت معو».

«قلت عملت شوية فلوس وانت عذرا، ليه ماستثمرتيها بعمل بعيد عن شغلك هاذ».

«قلت لي جبت مدرس يساعدك تواصلي دراسة، ليه ما جبت مدرسة».

«قلت لي أخوك صار عنده ١٦ سنة لي ما يشتغل بدالك».

«قلت لي أنه أبوك بيساعد بشغل البيت بغسل ويقشر طبيخ، ويرتب، يعني بيقدر يدبر شغل».

منهكة. تشعر بإرهاق عجوز يتعذر نهوضها عن الأرض.

بمقربة منها، على السجادة نفسها التي شهدت جثوها لساعات، حفنتا نقود، تربض الواحدة منهما بعيدة عن الأخرى، في تقرير صارم: دفع مرتين! لقد دفع لها من قبل، قبل أن تدخل جناحه الفاره هذا، ودفع للقواد، لحفنة قوادين. هذا الدفع إضافي، ومكرّر، ومهين. لا يُسمح لداعرة بأن ترفض مال زبون وتمشي هكذا. سيكلفها هذا الموقف الكثير، ليس قواداً واحداً الذي أبرم هذه الليلة. كل منهم سيعاقبها على طريقته. لكن رغبتها جامحة في أن تسير بقدمين قويتين، من فوق هذا المال،

وفوق هذا الرجل، وفوق قواديها جميعاً، من أول سنيها إلى هذه اللحظة.

أخذت المال، وغادرت. لم تنس عند الباب أن تقول له «شكراً مع السلامة».

انكفأت على وجهها أياماً بلياليها. لكن لم يدعها أحد تواصل رقدتها. لو بيدها لرقدت لأيام، لشهر. لكن عملها ليس حراً إلى تلك الدرجة. عملها حر فقط في عدد الكؤوس التي تجرعها، وعدد الرجال الذين تعاشرهم. تنتهي حرية عملها عند أول اتصال من صهيب، يطلبها لليلة تقرر أنها الأصلح فيها. إنه صهيب قائد قواد صنعاء وضواحيها، والمسؤول المعتمد عن تصدير واستقدام البنات بحسب الطلب. يخضع له القوادون. يقدمون له كشفاً بحركة تنقل الفتيات، يحدد بموجبه من هي البنت المناسبة. من التي ليست في مهمة ليلية. حتى وإن كانت في مهمة، يقطعون مهمتها، إذا قرر صهيب أنها الأصلح لما يريدها له.

الزبون عن طريق صهيب شيء آخر. كان يمكن أن تفرح، لولا أنها لم تزل منهكة من آخر مرة. تلك التي كفأتها على وجهها.

* * *

هل هو موسم العنّة، والرجال العنيين...

ليلة كأنها الليلة نفسها،

الجناح نفسه. بترتيبات تينك الليلتين المضنيتين نفسها.

طاولة بعدد القناني نفسها، والأطباق. إلى جوارها مقعد بالرجل نفسه. لولا أنه أطول قليلاً، وأقل امتلاءً، وأصغر سناً. بالكأس نفسها.

رجل بمواصفات السابق نفسها، لولا أنه لا يريد منها أن تتكلم. فقط تتعرى، وتؤدي وصلة رقص بهلوانية بلا موسيقى. لا يكلمها. لا يقرب منها. لا ينظر إليها.

شارف الليل على الانتهاء. اللحظة التي كرهتها في تلك المرة، لحظة يمد لها يده بحفنة فلوس، وشكراً مع السلامة. اللحظة التي أرهقت روحها. صارت الآن أمنية لا تجيء.

لا تدري متى نامت، متى نام هو.

استيقظت بعد ظهر اليوم التالي، على مائدة احتشد عليها كل ما خلق الله من حيوان، وشجر، وشراب. مطهوّاً ومقطعاً مثلها. ورجل يسألها: تأكل أولاً أم تستحم؟ كانت هذه أول مرة تسمع فيها صوته! إذاً فله صوت، ويتكلم، ويسأل امرأة عما تريد وتفضل.. تريد أن تعود إلى نومها، في السرير الذي أخرجها منه صهيب. استأذنته. لم يسمح، بل إنه تململ منزعجاً. تذكرت شروط المهنة، وحده الزبون يقرر متى ترحل، ما دام يدفع عن كل فترة إضافية.

على الغداء طلب إليها بضعة أيام في تجوال قصير في بعض المحافظات، نظير مبلغ يومي مغرٍ. سكتت. أردف «ممكن تكون أيام أطول. والمبلغ لو ما عاجبك نزيده» تريد أن تجد كلاماً، قبل أن تزداد المشكلة تعقيداً. «لا» وحدها لا تكفي. لاء المستضعفين لا بد لها من سبب مقنع، بل جملة من الأسباب

والمبررات المقنعة. كل ما يمكن أن تقوله لا يصلح أعذاراً لبائعة. قالت «لا» وحدها. ضاعف المبلغ! تتحاشى بلوغ نهاية غير محمودة. عيناها تدوران في رأسها. تستجمع أعداد القوادين الذين يسدون له خدمات. كلما قالت لا، ازداد هذا الرجل إلحاحاً. لا تحب القوادين، ولا الطرق التي ينفذون بها رغبات زبائنهم، ولا الطرق التي بها يردون اعتبارهم. وخصوصاً زبائنهم الذين تتكلم فلوسهم بالنيابة عنهم. مثل هذا الرجل، الدفع عنده غاية!

– ألف ريال سعودي في اليوم!

– أنت ما تشتي مني؟

– هذي مسألة تخصني مالك خص بها!

– فيه بنات كثير غيري، ليش أنا!

– ألف دولار في اليوم وكافي عاد!

أصابها الرعب. لم يعد عرضاً، هذا الذي حمله صوته. أصبح تهديداً. أطلقت صوتها بالموافقة. وشرعت بالدعاء في سرها، ليقيها الله شر هذا الرجل، وشر أيامه.

بعد عشرة أيام احتفلت بعودتها كأنْ من الجندية. في اليوم الحادي عشر فقط فتحت صرتها، لترى إلى حصيلة الأيام الصعبة، وااا و.

كان يسلم لها قسط كل يوم، آخر كل ليلة. بعد أن يجلسها قبالته عارية لساعات من دون أن يتكلم. ولا هي تكلمت أو طلب إليها أن تتكلم. أدّت ما أملاه عليها، من دون أن تزيد أو تنقص شيئاً: تبرك على الأرض، تباعد بين فخذيها، تجلس، تتمدد،

تتلوى، تنثني، تنبطح، تميل، تستدير، تتقوس، ترفع مؤخرتها، تملس فخذيها، تقف، تبدأ من جديد.

عيناه في كأسه. كل بضع دقائق يسبغ عليها نظرة ويعود إلى الكأس! آخر السهرة الصامتة حتى من بعض الموسيقى، يبسطها على ظهرها، حيث هي في الأرض. يبرك عليها. يحدد هدفه، كأنه يتجنب أن يلامسها. ويبدأ نشاطه من تلك النقطة. بعد دقيقتين أو أكثر قليلاً، يخرج منها. يهب واقفاً، يجفف عضوه في طريقه إلى السرير. يضع لها فلوسها على الكمودينو. لها أن تلحق به إلى سريره، للنوم على طرف منه، ولها أن تنام حيث تشاء.

* * *

٨٦م

وضع على ركبة أبيها بضع أوراق تساوي في مجموعها ألف ريال. وشرع في الكلام:

– اسمع! بنتك فعلاً حلوة وصغيرة، وممكن فعلاً يجي لك واحد بالمهر المطلوب، لكن أين يطرحه لك. فوق العربية؟ ويأخذها من جنبك من جنب العربية ويمشي؟ خذ!

صفف له الألف ريال على ركبته وواصل:

– أنت خذ هذا، والباقي على غيري.. جمعية، أنت مهر بنتك جمعية!

أخرج رزمته ليعد ألفاً آخر، ألقى به وواصل:

– بما إنني أول واحد في الجمعية خليني أدفع نصيب الأسد، هذه مرتب اثنين عمال عندي. مالك!!

انفجر فيه الأب. ألقى المال في وجهه ونهض ليخرجه عنوة، لكنه وقع على الأرض بسبب من وجع ظهره. ما إن أُغلق الباب، حتى غرق في نوبة بكاء مسموع. غرقت رجاء في حضنه باكية. كللتهما أمها بدموعها. ترجوه أن يخفض صوته. أرعب أطفالها الصغار. وخشيت أن يسمع الجيران.

أمسكتا به كل من ذراع، وأوصلتاه إلى فراشه، ليكمل نشيجه بهدوء.

لم تكن تلك المرة الأولى، التي ترى فيها رجاء دموع أبيها، أو حتى تسمع نشيجه ببكاء صامت. بكاء هذه المرة لم تر مثله إلا لدى النساء! كانت تلك المرة هي مفتتح قادمات الأيام، ليس في ما يتعلق بنشاطها، فقد بدأت به منذ بضعة أشهر، بل في ما يتعلق بحياة هذه الأسرة عموماً.

بعد عشرة أيام انتقلوا إلى بيتهم التالي، بيت حميدة. البيت الذي كان على تواضعه، وغرابة شكله، ورطوبته التي تصر على التهام كل شيء، لا القطن والإسفنج والخشب فقط، إنها تخترق الثياب إلى أبدانهم، وعلى الرغم من كل ذلك كان دافئاً نوعاً ما. أبواها كانا حنونين إلى أبعد حد. غادرا غرفتهما التي لا تزيد على ٢×٣ متر، بعد أن ضاعفا لوح الخشب العازل للرطوبة، لتصبح غرفة نوم للصغار. رجاء بينها وبين أكبر إخوتها ست سنوات. أنجبتها أمها في سن صغيرة، وعانت بعد الولادة بها بشهور من تقيّحات في الرحم، استغرق علاجها وقتاً طويلاً.

رجاء، غرفتها تحددت بذلك الشق المقتطع مما كان في السابق باباً. له جداران من الأسمنت، وجدار وبوابة من

القماش. وضع فرش الإسفنج خاصتها على رافعة خشبية مستطيلة، لا تصلح لها تسمية طاولة، ولا مصطبة، إنها أقرب إلى سندان هائل يبلغ ٩٠×٢٢٠ سم.

بعد تمحيص يمكن لزبون أن يدخل هذا البيت. وهو ليس زبوناً إلا بعد التاسعة، أي بعد أن ينام إخوتها. فيما عدا ذلك هو ضيف أبيها. يجلس حيث يجلس الأب، يمضغ القات أو يحتسي القهوة. غالباً يجيء الزبون بعد التاسعة، شرط ألا يحط بسيارته عند بابهم، ولا في الحارة كلها. يستحسن أن يجيء بدون سيارة. وليجلب معه بعد ذلك ما يشاء من شراب وطعام. علوان جلب معه شيئاً آخر. «شلحة». تعمد أن يشرها أمام الجميع. كأنما هي لغة بكلام محدد: أريد امرأة! تعب من المص واللعق والجنس الفموي. وليصبح أكثر وقاحة شوح بهديته باتجاه الأم:

— والله ما تصلح إلا لش قومي البسيها واسحرينا.

احمرّ وجه الأم، ونهضت كأنْ لم تسمع. ذهبت لتجلب طبقاً وأكواباً لتبدأ المائدة. نهض خلفها وبيده الشلحة. بقفزة تبعتهما رجاء لتشده عائداً. كانت يده قد حطت على خصر فاطمة. واليد الثانية تمتد إلى الصدر. وفاطمة تتملص. ورجاء تُجنّ؛ كل هذا في لحظات؟ لم تشدّه إلى المائدة، بل إلى خدرها، إلى السندان:

— ما تشتي؟

— أشتيش أنت

— بعد العشاء

لم يكد يصدق. نجح! شيء ما التمع وسرب من عينيه!

أثناء العشاء تحاشت النظر إلى أمها. لكن حادثة المطبخ قبل دقائق لم تزل تدور في عينيها. خصر أمها وصدرها ووجهها المحمر! أبوها كومة رجل. ويده لا تمتد إلى الطعام، وعيناه لا تلامسان وجهاً. لو كان خِدْرُها غرفة تتسع لموضع قدم، كانت أخذت هذا الشيء العاهر وأبعدته وأبعدت أذاه عن كومة أبويها. نظرت إلى أمها، ليست فقط أمها، إنها امرأة بخصر، وصدر، ووجه يحمر. صغيرة، لم تدخل الثلاثين بعد! لكن هي؛ قفزتها تلك هل كانت غيرة على أمها، أم غيرة منها؟ نظرت إلى ذلك الكوز الذي اسمه علوان، وقررت حمله إلى الحجرة! بلى هي حجرة، وتصلح أن يتم فيها رجل سهرته. لم يمهلها، ناولها الشلحة. لبستها. لم تمانع أبداً. لم تمانع البتة! كانت تبدو له، على الرغم من ضيق الحجرة وسوء إضاءتها، غابة نساء نبتن فجأة وتمددن له. لا يدري من يحضن، من يبوس، من يعتلي، ويلعق، ويمضغ، ويمص. سمحت له بكل ذلك، إلا أن يلامس ولو بمجرد يده ما بين فخذيها. وقَبِلَ. لا بأس بهذا، على الأقل لهذه الليلة. هذه الليلة فقط! هكذا وعد نفسه. ليبدأ دوامه كل ليلة عندها، طلباً لـ الليلة الفاصلة. لكنها أقسمت داخلها: إلا هذا الرجل. لتكن بكارتها نصيب أي رجل كان، إلا هذا!

وسيظل هكذا لسنين، حتى بعد أن تغادرها بكارتها. إلا أنه لن يعرف، ولن يكف عن الأمل. بل سيصير إلى حال معها، يتمنى ليلة يستمني فيها على حاله بمجرد قربها. تتواضع الأمنية إلى ما هو أدنى من ذلك، لتمضي معه تلك الليلة على الهاتف،

ثم أدنى، وأدنى. لم تعد حتى تقبل منه اتصالاً بالهاتف. ومع ذلك عنده أمل، لا أحد يعرف أمل في ماذا!

...

استيقظت رجاء على هاتف فرج. وكان قد اتصل قبله عبد الله. والآن صهيب. لا زبائن اليوم، لكن؛ هنالك حساب متأخر، العشرة أيام محافظات ومتع وسفر، وهبر و...

لن يبقى لها من حصيلة الأيام الصعبة، إلا الأيام الصعبة!

١٥

شقة حرة، لا صاحب لها غير الفوضى.

قوارير فرغت. كؤوس تمددت بطولها لتُفرغ ما بقي. أوراق صحية متسخة ملقاة حول السلة. مساند كنب متطايرة. رماد سجائر وأعقاب خارجة من منافض مقلوبة. وريقات قات تتكوّم على نفسها، مفشية سرها؛ لم يكن هنا البارحة إلا مُخزّن واحد، ويبدو كان يُخَزِّن وحده على استحياء. أطباق بلاستيكية ببقايا طعام. القطط تفتش عن شيء آخر لا تجده، تتصادم وتتصارع. أبواب غرف شاغرة ومفتوحة. غرفة نوم ملونة، سرير، رجل وامرأة يفترشانه بالمقلوب. أقدامهما تعبث بوسائده. ملاءة تستر عريهما إلى منتصف الظهر. قررت نشوى أن تطرده فجأة. صديقتها قادمة الآن، قالت له. التقطت الهاتف النقال، طلبت «أماني» لتحضر فوراً. .

لا أحد يقول لها لا، وخصوصاً أماني، صديقتها المتزوجة

منذ سنين. تحب زوجها ليلاً، ونهاراً تخلص لحبها الجديد نشوى. حب! غريبة هذه الكلمة، لم يخترق طبلة أذني بها رجل، تخترقني امرأة؟ لكنها تواعدها من حين إلى آخر.

لم تحضر أماني. «بعد الغداء» قالت لها. هي الخسرانة، ستظل بعد ردها هذا تلاحقها لشهور، ولا تجدها. بمجرد هاتف حضرت أخرى.

نشوى عارية في المرآة. سماح تفتش لعينيها عن مهرب. الشقة ترفل في الفوضى، نهضت لترتبها.

لا شيء في هذه الشقة ينقصه الترتيب أكثر من نشوى.

بعد العصر، كانت الشقة موصدة في وجوه الضيوف. أساساً؛ لا أحد يجرؤ على الاقتراب من هذه الشقة، ولا من نشوى، من دون أن تكون هي التي طلبته.

الشقة وادعة وتهنأ بنظافتها. لم يعد هنالك ولا قطة واحدة. حتى القمامة صرفتها سماح، وعادت تتغزل بصنيعها في الشقة. تعرف أن نشوى بكلمة ستركل تلك الجهود بعيداً. إنها لا تكترث لنظافة الشقة ولا لوساختها.

قد تتحرش بها نشوى. حدث ذلك مراراً، أول مرة استغربت سماح، لا لأنها تحرشت بها، بل لأنها فرحت برفضها، ومع ذلك لم تكف عن التحرش من حين إلى آخر. من مرة إلى أخرى تأكد لسماح أن صديقتها تتحرش برفضها، لا تعرف لماذا؟ فماذا لو أنها لمرة لا ترفض! ستضاجعها مثل غيرها، ما الذي يكلفه ذلك. سماح على أية حال جاهزة بالرفض، رفضها الطيب الذي لا يجرح ولا يعد ولا يعني أنها ستبتعد يوماً. سماح تحبها فعلاً،

لكن ليس الحب الذي يفعله رواد هذه الشقة. الرواد الذين تكرههم، وتكره أن تعرف من هم، ولو بمجرد ترداد أسمائهم أو اتصالهم بالهاتف. ومع ذلك نظفت مخلفاتهم في الشقة عن طيب قلب، على أن بوسع بضعة قروش أن تنظفها. تخاف على صديقتها، كلما عرفت أنها في هذه الشقة، تضع يدها على صدرها في انتظار مصيبة. متى ستثوب إلى رشدها. متى تستوعب وتعرف؛ هذه المغامرات وإن كانت تُمرَّرُ للرجال بسهولة، لكن ضبط واحدة منها لامرأة يقصم الظهر. ومع ذلك، سماح تجيء إلى هذه الشقة، على الرغم من أنها ترفل في الوساخة. تكتفي وتثق بوعد صديقتها، لن يدق جرس الباب أحد.

قاربت اللحظة، سماح تعرف هذه اللحظة! حينما تنزل نشوى من أريكتها، لتجثو على الأرض. إلى طاولة زجاجية عليها قارورة وكأسان إحداهما تظل فارغة. منذ الكأس الأولى تبدأ نشوى بالانسكاب. تدلق كل وساختها. هذه هي الوساخة التي تهرع سماح من بيتها كي تجيء لتنظيفها، ولا تقدر. كل مرة تندلق الوساخة نفسها. تعرفها سماح. ومع ذلك لا تقدر أن تفعل شيئا. أصلاً؛ لا يجب عليها شيء غير أن تسمع.

صوت نشوى ثمل. لم تنتصف كأسها. إنه ثمل من زمان. من الكأس الأولى. متى كان هذا؟ لا أتذكر! بارك الله فيه، في خزانته! هذه القارورة أيضاً من خزانة أبي. هل تصدقين هذا! أنا لا أشتري الخمر. وربما كذلك لا أشربها. قربت الكأس من فمها، وسألت كأنْ بدلاً من صديقتها: فما الذي أفعله؟ والله ما أنا عارفة! ربما أنا أخمّرها في جوفي.

نشوة أبيها، لم تعد ترى وجه ذلك الأب. حتى حين يقف قبالتها، لا تراه. لكنها لم تزل سادنة خزنته. عمرها ٢٩ سنة، ولا يزال شق في باب يكفي كي تزلق. تعلمت ذلك الانسراب من سن صغيرة. لا تذكر متى. كانت صغيرة، أصغر من أن تستوعب التواريخ أو تحفظها. أين أنت؟ في غرفة بابا. حتى عندما أصبح يغلق غرفته بالمفتاح ليخرج. تخرج بعده، لترجع قبله. يسألها الجميع أين كنت: في غرفة بابا.

هي الآن في شقة بابا...

سماح تفسح القارورة لزحف صديقتها. كلتا ذراعيها تحطان على الطاولة. وصدرها على وشك. بعد قليل تحط نشوى بمنتصف جذعها على الطاولة. رأسها لا يزال يراوح. لم يحن بعد سقوطه على الطاولة. لا يزال على هذا الرأس أن يصب الكثير قبل أن يترنح. الكلام الذي تسمعه سماح، وتعود هكذا كما اليوم لتسمعه من جديد.

بصوت يرق ويثمل بحسب مواضعه في الكلام. هناك كلام ثقيل، ينكسر به ظهر صوتنا لحد السكوت.

أنا نشوى. هذا هو الاسم الذي أفرضه على أصدقائي، بفلوس أبي!

في الآخرين اسمي نشوة.

عند عمتي اسمي «حمام بيت عُبيد». نشوة هي حمام بيت عُبيد. لماذا يا عمتي؟ ليش يا حورية! أنا فقط الوسخة! كل بيتنا وسخ. فيما عدا أمي لا أحد ينظف في بيتنا.

في بيتنا الوساخة مزاج. غير صحيح أنها بدأت بنجوى، أختي الكبرى، بكر أبويها، لقد أصبحت مسخاً. ثيابها تلتصق بجسمها كأنها بعض منه. نادراً ما تبدل ملابسها. على أي جسد تبدل الملابس وقد آلت كلها إلى خرقة بالية تقبع في البيت. هذه بدأت من الدرجة العليا في الطيش. لقد كادت تسخرني لخدمتها يوماً. ألست أمينة سر أبيها. ما الضير في أن أكون أمينة سر ابنته؟ مسكينة! صدقت أن طفلة تحرس سره. الجميع كان يحرس له السر نفسه في الطفلة نفسها. مسكينة صدقت أن بوسعها أن تمرر حاجتها بالبساطة نفسها. هذه البساطة في الطيش، وهذه السدانة الجماعية، والتمريرات، والتغاضي، هذه الفاحشة المبجلة لا تكون إلا للمالك. ما الذي تملكه هي؟ المسكينة ضبطت من أول مرة هربت فيها رجلاً إلى داخل حجرتها. غير أن تَنَكُّر الرجال بلبس النساء أكثر سهولة. من يسأل الشرشف[٢١] واللثمة[٢٢] هل ما بداخلك امرأة أم رجل؟ وانغلاق غرفة على صديقتين حميمتين لا يثير الشبهة نفسها التي يثيرها انغلاق باب غرفة على رجلين. الغبية، ارتكبت غلطة واحدة أنها طلبت إلى أمينة سر الحاكم أن تخدمها، تحفظ سرها. حفظته، لكن في أذن الحاكم. هذه وظيفتها، أن تنقل إلى الحاكم كل ما يدور. أختها غبية ولا تعرف: وظيفة أمين السر ليست أن يحفظ سر الواحد فقط، بل وأن يفضح أسرار

---

(٢١) الشرشف: رداء أسود من قطعتين ترتديه المرأة عند خروجها من البيت.
(٢٢) اللثمة: لثام ملون وبطول يسمح بلفه حول الرأس.

الجميع، عند هذا الواحد. لكن غباءها الكبير أن سوت رأسها برأسه! كسر رأسها.

بعد شهور انتقل بها إلى القاهرة، ليجري لها الأطباء هناك عملية إجهاض. في ما بعد أصبحت تعتمد على نفسها لإجراء هذه العملية نفسها عند أطباء محليين وبأسعار زهيدة. عمرها الآن ٣٨ سنة. لكنها؛ وجهها أكثر تجاعيد من وجه أبيها. أولادها لا يجدون فيها أماً، مجرد خرقة متراخية، تمضغ القات صباح مساء.

أصلحت سماح جلستها وانتباهها. لم تكن تتوقع كلاماً كهذا. كانت معظم قصص نشوى لا تزيد عن شكاوى، من كلام قاله أحدهم. أخوها أخذ مفتاح سيارتها. أحد أولاد إخوتها أحدث فوضى بغرفتها. أمها أعطت أخاها مالاً، وحين طلبت هي منها لم تعطها. صديقها فلان أزعجها إلحاحه على الحب. فلانة تلتصق بها أكثر من اللازم... إلخ...

نهضت تجلب ثلجاً وفواكه. وعادت لتجد نشوى تواصل كلاماً لا يكترث لحضور ولا لغياب أحد:

سلوى، بعد ما جمعوه من مآخذ على أختها الكبرى، تربصوا بها وزوّجوها قبل أن تتم الثامنة عشرة!

سامية الابنة الثالثة في البنات، الخامسة في نسل قاسم عُبيد. هذه ليست لها نزوات ولا زلة، لا أنوثة لها ولا حتى فحولة. بلغت الثالثة والثلاثين من دون أن تجد لها عمتها ما تدينها به. معقدة. مقفلة تماماً. إذا ما قيلت أمامها نكتة واضطرها أحد للمشاركة تسأله عن التفاصيل، ماذا بعد؟ أحداث النكتة موش

منطقية. لا تضحك. لا علاقات لها، لا حب، لا صداقة، لا رجال، لا نساء، فقط الدكتوراه. هي الوحيدة في أسرة قاسم عُبيد واصلت دراستها.

من أيضاً؟ طارق وأمين لحيتان، جريمتان تمشيان على الأرض.

عارف هلفوت. يكاد يكون هذا الوصف لعارف إجماعاً. إلا عند ماما. مثلما نشوى دلوعة بابا، عارف دلوع ماما. مع الفارق: نشوى استعملها بابا سادنة الخزنة. وعارف استعمل ماما خزنة. إنها تفتح له كل ما انغلق عليه، بالمال الذي توفره له كل حين. عمره ٢٧ سنة. اشترى الثانوية منذ سنين، ومنذ سنين وهو في سنة أولى جامعة، لا يتزحزح. ليس هذا ما يقلق أمي. التعليم آخر ما يعني أمي، آخر ما تكترث له. تُسكت أبي حين يعنف أولاده من أجل التعليم، وخصوصاً عارف، بالجملة ذات الرنين القديم الجديد: «يحفظ من ورّث! ما يفعل بالتعليم» أمي كل الذي تكترث له، بالنسبة إلى عارف، رجاؤها الذي أصبح بكاءً بين يدي ابنها أن تزوّجه. إنها حتى لم تر له علاقة ببنت، على الرغم من «صياعته». إنه لا يعود إلى البيت قبل أن ينتصف الليل. وغالباً يعود مخموراً. هذا ما يثير قلقلة عمتي وشائعاتها. لكن الولد لم يضبط عليه شيء.

أمين وطارق قصة تسابق وأطماع. بدأت بالتنافس على رضى الأب. ليس لوجه الله، أو لذاته، بل لماله الذي كان يقبض عليه بكل قوته. وإلى الآن لا يزال كل شيء باسمه، وإن وجد طريقة لتحصيص بعض المال، فإن التركة نفسها لم يقسمها بعد. لو

قسمها لانتهى أمره. منذ تسلم الولدان العمل، أصبح هو على الرف. عزلاه. ولو بيد الواحد منهما لقذف به إلى خلف الشمس. لقد وصل الأمر بأمين، حد أن استصدر في حق أبيه فتوى تجرده من ماله. إنه سفيه، ويهدر المال على الفجور والفسق! أمين كان سيهدر المال على الجهاد في سبيل الله.

عيلة! لكل واحد فيها وساخته. وساخة بدأت بحورية، وستنتهي إن شاء الله عندها. من أين لها كل ثروتها؟! وارثة؟ وراثة عجيبة. لا تنقسم إلا على واحد من ثلاثة إخوة!

مماشٍ تحت الأسفلت

١

فوجئت زينب بهدية زوجها، تقلبها بين يديها، تشرها أمامها. مجموعة قمصان نوم شفافة، دي شامبر واحد يصلح لارتدائه في البيت، ما بقي لبسه عري. كيف استطاع شراءها، من دون أن يكترث لنظرات الباعة. لا بد من أنه سيبدو لهم «إخونجي»، وينكرون عليه شراء مثل هذه البضاعة.

هي؟ إنها فقط متفاجئة، فيما عدا ذلك لا شيء غريب، إنه من حقه أليس رجلاً! إنه فقيه ويعرف حدود الله، لكنه لا ينكر على نفسه وعلى زوجته، ما أحل الله!

يحل لها ماذا؟ مجرد تخيلها، تخيل جسمها في قميص منها يربكها. هل تستطيع؟ حملت القمصان إلى غرفة النوم، نية تجريبها وقياسها. نزعت ثيابها التي عليها وهي مغمضة العينين. استدارت تفتش في القمصان أيها أولاً. كان عليها أن تحدد ذلك مسبقاً. سترت جسمها بما نزعته لتوّها من ثياب. إنها وحدها. رددت في نفسها أن الملائكة لا تغادر الأمكنة أبداً، هي معك أينما ذهبت ومهما كانت حالك، عدا مكان واحد وحال واحدة هي جماع الزوجين، فيما عدا ذلك المرأة ملعونة في عريها.

أصبحت الآن بالقميص. لا تنظر إلى جسمها. التفتت إلى المرآة إنها عارية! بهذا القميص هي عارية. لا يصلح هذا! لن تجرّب قميصاً آخر. تعوّذت من الشيطان بسبب مكروهين اثنين اجتمعا الآن: عري، ومرآة.

لكن كيف تلبسها مساءً؟ ستفعل! إنه من حقه. ما دام يريد هذا، فلْيُعنّي الله عليه.

لا شك في أنها لبست مثل هذا وأكثر، في الماضي، الفترة التي تسميها فترة الحرام. ربما لأنها لبستها تلك الفترة، تجد صعوبة في أن تلبسها اليوم.

في الواقع، لقد نزعتها تماماً. ولو كان بمستطاعها لنزعت جلدها معها. لكن هذا حقه. هو نفسه يجدها محرجة، لم يعطها إياها إلا عند مغادرته.

عِشاءً لم يكن متحرّجاً، اختار لها قميصاً وسبقها إلى حيث يجلس في غرفة التلفزيون، ينتظرها لسهرة تبتدئ من أول المساء. كيف هذا! إنها قبل أن تخرج إليه ووحدها الآن في الغرفة، ومع ذلك عيناها مغمضتان ولا تقوى على فتحهما. لكنها عنده ستكون أفضل حالاً. المرأة تستتر بزوجها. «هنّ لباس لكم، وأنتم لباس لهنّ». حلت مشكلتها، ستلقي بجسمها الآن من هذا الباب إلى ستره. اندفعت. عادت. التقطت روباً يسترها. على الأقل إلى أن تصل إليه. فرحت بالـ دي شامبر الوحيد، إنه قطني ومرسل إلى تحت الركبة. تأملت نفسها في المرآة، الآن بوسعها أن تمشي.

لم يُرِد هذا. ندم أنه اشترى هذا البالطو، وكرهه. بودّه لو ينهض وينزعه عنها ويمزقه. كان يتخيّل امرأة تخرج إليه من الجنة، أو حتى من جهنم. المهم امرأة. هذه التي خرجت كانت شرطياً.

إنها حتى لم تضع على وجهها بعض الأصباغ. هل عليه أن يشتري طاقم ماكياج ليقول لها باللغة التي تفهمها أريد أن تضعي لي على وجهك ماكياجاً. اللغة التي تفهمها؟ إنها لا تفهم! هذه الملابس كانت معروضة باهتمام أكبر من هذا. كانت في المعرض أكثر إثارة، وهي فوق أجسام من الخشب والبلاستيك.

نزع عنها البالطو. مزاجه تعكر نوعاً ما. لكن؛ ليحظ بالباقي! ذهب الباقي! انحنى رأسها من الخجل. صار جزءاً من صدرها. إنه خجل فعلاً، ليس تمثيلاً ولا ادعاءً. وجهها يحمرّ تارة ويمتقع أخرى. ويداها تحوّلتا إلى قطعتي ثلج. تشد بيجامته كأنما تريد له أن يلبسها إياها. يتأملها ويتعجب. إنه خوف بنت للتو ستفتض بكارتها. رفع وجهها بيده، وكلم نفسه بصوت يكاد يكون مسموعاً: طيب، لننسَ مسألة أنها قحبة. هذه البنت جاوزت الثلاثين. سألها في نوع من استهزاء:

– كم عمرش؟

– هاه..

– كمان فقدت الكلام؟

– بس استغربت! عمري ثلاثيـ..

قبل أن تتم قاطعها:

– قومي ارقدي، والا أقول لش قومي صلي! أصلاً أنت جيت لهذا البيت معتقدة انه جامع. وهذا الرجّال اللي قبالش ما هو؟ زميل صلاة؟

* * *

أيلول ٩١م

لم تكن تعرف أنه إفراج مشروط بصحبة إلزامية ومهمات. لم تكن الصحبة إلزامية إلا لتضعها في مهماتها، لكن بالتدريج. كانت في السجن، لم يكن أحد يقدر عليها. لم تكن لتتنازل مهما لاقت. ولم تكن لتخاف حتى لو قالوا لها: هذا الضابط هو صاحب أعلى رتبة، ويستطيع أن يقطع رأسك. لم يكن رأسها يعنيها. كانت لا تزال تتشبث بأمنية. هذه الأمنية هي أن تصفع أباها، الصفعة التي تدميه ندماً كيف ظلمها. طال تخيلها وتفننها في رسم حلم يقظة لتلك اللحظة. حلم اليقظة نفسه. لا يختلف في مفتتحه كل مرة. ما إن ترى فيه أباها، ولا يزال وجهه عابساً، حتى تصيح فيه، ترفع صوتها: فتشني. أنا بنت بنوت. شوف أيش عملت بي، وجرحتني، وأهنتني، وانا النقية الطاهرة.

أبوها ينذهل، في الحلم، يذرف الدموع ويفتح ذراعيه ويضمّها ويستسمحها ويبكي. يبكيان معاً. وتبدأ تشكو إليه، تقص عليه ما لاقته طوال غيابها.

الحلم نفسه، تعيد تصميمه كل مرة. فلا يتغير إلا الجزء الثالث منه، وقد صارت في حضنه، وتقص عليه ما لاقته. تضيف في هذا الجزء من الحلم، ما لم تكن قد لاقته قبل آخر حلم.

صممت أحلام يقظة، أفلام لقاء كثيرة. كل مرة كان الفيلم يزداد طوله، بتفاصيل لا أحد يصدقها.

كانت هذه صفعتها التي أغلقت عليها قبضتها طوال ١٦ شهراً. وفجأة انفتحت القبضة! انبعثت ريح لا تدري من أين. كان لكل ذلك العراء أن يحدث، مهما تكن الجدران تنغلق من حولها. لقد حدث أن نامت في الشوارع على الإسفلت وتحت شحم السيارات. لم تكن تشعر بمثل هذا العراء الذي داهمها بمجرد أن سقط الحلم.

كانت نكتة يتندر بها كل من في السجن، من سجينات وسجانات وضباط: عذراء! في السجن! السجينات لم يكن يصدقن. السجانات بين بين. الضباط صدقوا على طريقتهم!

صحبة السجن التي خرجت بمعيتهن كُنَّ يتغامزن. قوادوهنّ كانوا يتفحصون بضاعة طازجة تسلموها لتوهم، من بوابة السجن إلى السيارة إلى البيت إلى السهرة، وهم يتفحصون ويعاينون: بضاعة مثمنة!

القوادون وحدهم صدقوا. لم يكفوا عن تمحيصها وعن التفكير: لأي شيء تصلح؟ وأين؟ ومتى؟ الأرجح أن كل شيء كان قد تقرر مسبقاً. ربما قبل خروجها من السجن. خروجها صادف الحفلة التي يُعدُّ لها منذ وقت. فكانت هي الامتياز، الديك الرومي الذي يضعونه في قلب المائدة، غير مجتزأ منه شيء. لم يسبق أحد إلى أكل هذه البنت! لمن نقدمها؟

غير مستبعد أن تكون بكارتها هي التي أخرجتها من السجن. حلمت بهذا بالمناسبة، حلمت بأن بكارتها تكفي كي تخرج من

السجن. في أحلام اليقظة التي كانت تصمّمها، كان أحد المسؤولين يزور السجن، يتكلم معها فيمن يتكلم معهن، يعرف من كلامها أنها عذراء، يستوقفها ليستوضح، يسألها وتجيب: نعم بنت بنوت! ويستغرب، ثم يستمع لقصة مجيئها إلى السجن المركزي بصنعاء مرحَّلةً من سجن النساء بالحديدة، وينفعل كيف هذا! ويأمر بإطلاقها. وأحياناً في بعض مرات الحلم، يجد لها حلاً مع أبيها. وغالباً يتوقف الحلم عند أن ينفعل ويصيح: كيف هذا؟

الحلم نفسه، كانت قد صمّمته على جماعات من المنظمات الحقوقية والدولية. لكن الحلم لم ينجح، مرة عن مرة أصبح يتقطع ولا تجيد أن توصله. لأن هؤلاء تتكرر زيارتهم للسجن، ويطرحون أسئلة، وتجيب، ويعدون، وتنتظر ولا شيء، لا يفعلون شيئاً. لم يكن لمجيئهم من نتيجة، سوى أنهم خربوا الحلم. المسؤول لا يجيء لزيارة السجن، لهذا لا يخرب الحلم، تعود تحلم به كل مرة!

إذاً بكارتها هي التي أخرجتها من السجن. مساكين كل أولئك الذين جربوا حظهم معها داخل السجن وخارجه، عساكر وضباطاً ومسؤولين وتجاراً وأرباب بيوت دخلتها، وأرباب عمل رحبوا بعملها عندهم ليوم واحد، كان الواحد منهم مجرد أن يعرف أنها قادمة من الشارع، وأحياناً تنام فيه، يظن أنها يمكن أن تقبل بكل شيء. كل هؤلاء مساكين، لا يعرفون ما الذي يلزم لافتضاض زينب!

المسألة في غاية البساطة:

يلزمك أن تكون واحداً من الذين يُعدُّون لأعياد الثورة. ولا

تنس؛ هناك احتفالات تنظم في النهار واحتفالات تنظم في الليل. احتفالات النهار تبث عبر التلفزيون، واحتفالات الليل لا تبث. ليست للشعب، ولا حتى لليمنيين، إنها للضيوف الأجانب.

في مثل هذا الحفل أنت لست ضيفاً. لكن عليك أن تكون واحداً من المرافقين. فإن لم تكن مرافقاً، فأنت لا ريب أحد المتعهدين. ولا تنس؛ إنها سلسلة حفلات، أهمها تلك التي تختص بالضيوف وراحتهم. هنالك متعهدو رحلات سياحية، متعهدو حفلات فلكلورية، متعهدو وجبات، قات، شراب، بنات.

الضيوف ستبدأ واجبات إكرامهم من الصباح، بنزهة إلى ضاحية من ضواحي صنعاء أو إلى خارجها. نزهة برقصة بَرَع[١] على طاسة[٢] وطبل ومزمار. بعد العصر مقيل قات بفنان بعود وبعض راقصات وراقصي وزارة الثقافة. هذا لا يعني أن الجلسة مختلطة. الراقصات في مهمة فهنّ لا يرين ولا يسمعن، لا يخالطن، فقط يرقصن ويمضين لحال سبيلهن. مهمة زينب لم تبدأ بعد.

المساء فقط وليس المساء والسهرة، حفل استقبال لا شراب فيه ولا مازات، فقط مصافحات وأحاديث قصيرة للضيوف في ما بينهم. ليس حفل استقبال بقدر ما هو حفل توزيع. الحقيقة، لن يوزع أحد عليهم شيئاً. في الصالة متخصصو توزيع. لا أحد

---

(١) البَرَع: رقصة فلكلورية للرجال.

(٢) الطاسة: آلة موسيقية: حلة نحاس مغطاة بغشاء رقيق من جلد البقر. تعزف بقرعها بواسطة عصوين ناعمتين.

يعرف عنهم شيئاً. لا يُقدَّمون على سبيل التعارف إلى الضيوف. ربما ليس هناك تعارف حتى في ما بينهم. كل واحد من هؤلاء يعرف من يقصد من الضيوف، وإلى أين يقله. تعرف؛ لكل دولة بروتوكولاتها. فالتوزيع هو: كل حسب دولته، أي كل حسب أهميته. وفي الترتيب بحسب الأهمية الأميركان هم الأهم.

لا تنس؛ في بنات الليلة زينب هي الأهم. انتقل الحفل إلى مكان آخر، انتهت ترتيبات المكان الآخر، لم تنته الليلة، لم تبدأ بعد. لم يزل هنالك مرافقون وكؤوس وعشاء وأناس من الجنسين. أناس غير واضح لماذا هم هنا! ربما للرقص. في ما بعد سينتهي كل هذا الحشد إلى أميركي واحد وزينب واحدة. هنا يجيء غباء المتعهد، آخر لحظة همس له بشيء، كان يظن أنه الذروة في الإكرام: «إنها عذراء!» لم يفهم «دانيل» شيئاً، على الأقل لم يفهم لماذا!

في السرير قالت له: لا! استدار لينام على الجانب الآخر. هؤلاء اليمنيون يقدمون لضيوفهم أشياء لا يطلبها الضيوف. وحينما يجيء الضيف لتقبلها يجدها لا شيء، لم يأخذ شيئاً.

طبيعي وكما هي عادة اليمني والعربي عموماً، صباح اليوم التالي موعد للمباركة. يباركون له مازحين لا يدري بماذا. شرحوا له، ضحك لهذه الكرنفالات العجائبية التي ليس طرفاً فيها، لا تعنيه.

في تلك اللحظة حدث شيء. المستر دانيل فعل شيئاً لا أعرفه. قال شيئاً ما، في إثره حدث ما حدث. لا تدري هل بعد دقائق أم بعد ساعة، لم تدر بشيء، لم تشعر بشيء. فقط صحت

على دمها مسكوباً. كانت تتوقع ليلة أخرى، بأميركي أو جنسية أخرى، بمعارك تقاوم فيها، قد لا تنتصر كالعادة، لكنها على الأقل ستقاوم.

الافتضاض تم في حفلة خاصة لم تحضرها. لم تعرف حتى من الذي فعلها، واحد وربّما أكثر. أحدهم أو نفر منهم دخلها وخرج منها من دون أن يترك دليلاً عليه. أقصد دليلاً من قبيل ما يمكن لزينب أن تفحصه. زينب كما تعرف لا معمل شرعياً لها، ولا مباحث جنائية ولا نيابة ولا قضاء ولا قانون ولا دولة! التحقيق الذي لم تجره أساساً، هو لمجرد أن تعرف. لكن لماذا تعرف؟

مجهول قد يكون أنت! هل أنت من الذين يعدون لأعياد الثورة، أو من مرافقي ضيوف العيد، أو المتعهدين أو المنسقين أو السواقين أو الحراس.

هكذا بكل بساطة.

الحقيقة، لقد كان زفاف زينب الذي لم تكن تعرف أنه زفافها، بحفلات على أوسع نطاق. إنها فقط لم تجد عريساً، ليست بمشكلة كبيرة. سيصبح لديها كل يوم عريس، الدخلة فقط هي التي فاتتها.

الحقيقة، أنه إذا كان لواحد من كل سكان هذه البلاد، أن يحتفل بأعياد اليمن الوطنية مايو وسبتمبر فهو زينب. لا تنس في اليوم الأول للوحدة، يوم توقيع الوحدة كان اليوم الذي أبرم فيه افتراقها عن أهلها. لكنها احتفلت بـ ٢١-٢٢ مايو ٩١ على طريقة البرامج الوثائقية في القنوات الفضائية، بالجملة الذائعة: حدث

في مثل هذا اليوم. كان عليها أن تدعو ضيوفاً أجانب على الأقل دانيل.

لم ينسها. كانت أكيدة أنه لم يحضر دخلتها. ولم يعرف من الذي دخل. لكنه حضر في الوقت المناسب للدهشة. وهي ممدّدة بنصف عار، بثياب ممزقة، فخذين مفتوحتين على مصراعيهما، ودم. لن ينسى ذلك دانيل. كان مندهشاً دهشة من وقع من مركبته الفضائية مصادفة ومن دون ترتيب إلى كوكب آخر. لم يكن بوسعهم أن يضعوه في دهشة كهذه، بكل تلك النفقات والمراسم والكرنفالات والعروض العسكرية، و. . . بدون زينب لم يكن هنالك عيد وطني يشهده دانيل.

أين كان وكل ذلك يحدث!

لم يقبل الذهاب في يوم آخر إلى الحفل نفسه «رقصة البرع». وبعد شراب البارحة آثر أن ينام قليلاً. فيما عدا ذلك هو في البيت، البيت نفسه. أخذ حماماً، عاد إلى غرفة النوم، الغرفة نفسها التي شهدت رفض زينب البارحة. ونسي الأمر. اعتقد أنها غادرت فيمن غادروا. لم يعرف أنها في غرفة أخرى تغتصب مخدرة. بينما هو في الغرفة لا يفعل شيئاً. رتب بعض أوراقه، والثياب التي لن يلبسها بعد، دس كل ذلك في حقيبة سفره. لم يكن الوقت يتسع لأكثر من ذلك. الوقت الذي يتعمّد إتلافه في انتظار إجباري لوجبة غداء تطبخ في الطابق الأسفل لهذا البيت. وجبة صنعانية. التفت إلى زينب متسائلاً بينه وبين نفسه: وجبة من كانت هذه الشابة، تبدو صغيرة، لا يزيد عمرها على ٢١-٢٣ سنة.

كانت قد بقيت له ليلة في الضيافة. جمعهما فيها سرير واحد، لم يقربها. ونظراته من حين إلى آخر إليها، كانت من قبيل التمعن في حيوان بريء ذُبح غدراً. أمس كانت في موضعها هذا، في الجزء النائي من سريره، وتشبه ديكاً نافراً، أو هرة على وشك أن تخمش. وكان مستغرباً لماذا جاؤوا بها إليه، لماذا هي تحديداً ما داموا قرروا مضايفته. هي أيضاً تمعن فيه التحديق، بالنسبة إليها كانت تحدق في أول رجل يجمعها به سرير واحد. يبدو أنها لم تزل مخدرة، ترى ولا تدرك، لا تنفعل، لا تتألم، لا تخاف. تخاف مماذا بعد؟

وهو يودعها مغادراً لا يدري لماذا أعطاها كرتاً. هي أيضاً لا تدري ما الذي تفعله بهذا الكرت. وليس لها عنوان محدد لتتبادله معه. لكنه يعرف كيف يجدها، حين يريد أن يجدها.

الغريب أن زينب في ذلك العيد الوطني لم تبك! وستظل لوقت طويل لا تشعر بشيء. لا شيء إلا فراغ. ريح تنبعث لا تدري من أين، عراء فصّلَ نفسه ثوباً لا تلبس غيره. مهما كست جسمها الثياب، ثمة دائماً عري يتهددها.

٢

لقد ترك إمامة صلاة الظهر لغيره. لم يزل يذهب في الموعد نفسه إلى صلاة الظهر. لكن تحديقه في المنبه الرابض على مكتبه الآن، هو لموعد آخر. اتصال ندى الذي أصبح يومياً تقريباً، بالجمل نفسها، بالأسئلة الكريهة نفسها، «ع تشتري لي قات والا

أخلي بيتنا يرسلوا لي؟» «ع تخزن معي والا أسير أخزن عند أمي؟!».

كانت غلطة! شعر بهذا منذ البداية. لكن لم يكن يتصور هذه النتيجة. ومن مرة واحدة يسمح لها «بالتخزين»، تصبح تلك المرة إذناً مفتوحاً، وواقعاً لا يستطيع التدخل فيه. يقول لأمها لا أريد لزوجتي أن تُخزِّن! ترد بلا اكتراث، «ما فيها كل الناس بيخزنوا. إذا على شرا القات، إخوتها يشتروا لها معاهم». لقد فصلت فساتين جديدة لطقس القات. كأنه كانت تنقصها الفساتين. وعارية كالعادة، وقصيرة، بعضها فوق الركبة بشبر. ويستغرب كيف تلبس هكذا بين الناس. يقول لأمها، لا أريد لزوجتي أن تتفرط. تقول له «شرع (عُرف) الناس، ما أنت معك شرع ثاني! كل النسوان بيتفرطين، للمه ماهي ع تجس في البيت» (لماذا هي بالتحديد تجلس في البيت!).

يضطر أحياناً إلى أن يجلس في البيت، وأن يُخَزن، لا لشيء إلا ليعوق خروجها للتفرطة. تظنه راغباً في الجلوس إليها. إنها لا تحتمل، بزنتها (ثوبها) شبه العارية، وساقيها العاريتين إلى ما فوق الركبة، معظم فخذيها خارج. تضع على رأسها، على شعر ملون بالأشقر ومسشور، تضع «المصر الطالعي»(٣) كأنما لتصبح امرأة، ليست امرأة! إنها عروسة حلوى، لعبة. وجهها الملطخ

(٣) المصر الطالعي: قطعة قماش مطرزة تلف بسماكة، واستدارة، تسمح بوضعها على الرأس في ما يشبه التاج. لا تلبسها المرأة إلا بعد أن تكون قد تزوجت.

بالأصباغ يكسبها عمراً غير عمرها، يزج بها في النساء، ليس أية نساء. يزيد من ذلك طول لسانها، يعطيها صورة امرأة.. والعياذ بالله... مش محترمة.

تذكّر زينب! يتحسّر على حظه في النساء.. إما بنت لم تكمل الرابعة عشرة لا أحد يكبح جماحها أو يسكتها، وإما امرأة ثلاثينية تركت أنوثتها في العتبة قبل أن تدخل إلى بيته.

رن جرس الهاتف بالمكالمة المرتقبة ذاتها. من دون تردد ترك لها أن تذهب إلى أمها. أمك الفرحة بك، عندها بنت تتأبطها إلى التفرطة وتستعرضها بين الناس. يجب على هذه الأم أن تشكره. لقد أعطاها أكثر مما تحلم. لو أن ابنتها بقيت معها لما غادرت حجرتها، عاكفة على مجلة أو منهمكة بمتابعة مسلسل تلفزيوني. لم يكن بوسعها أن تصطحب بنتاً لم يسبق لها الزواج إلى التفرطة. بقاؤه عليها زوجة يزيد من تباهي أمها وثقتها، تصطحبها إلى التفرطة بكل تلك الثقة والتباهي، لها بنت متزوجة، مرة رَجّال. أيش من رَجَّال هذا الخُرْج[٤] اللي ما يقدرش يقول لمرته ولا لأمها: لا!

عصراً اصطحب زينب إلى واحد من أرقى محال العطور وأدوات التجميل، لتختار أفضل ما يلائمها من الماكياج. هو لا يفهم في الماكياج، ولا يقدر على شرائه وحده. ولتفهم! ليضعها في صورة ما يريده منها مباشرة. أليست هذه الطريقة أفضل من

---

(٤) الخُرج: يؤدي وظيفة الحقيبة ويحمل على الظهر وهو من جلد الأغنام. للرجال.

حشر ما يريد في علب، وتقديمه على شكل هدايا. كان بذلك يشبه المراهقين الذين يدسّون قصاصة حب في حقيبة بنت خارجة لتوّها من المدرسة.

مراهقته كانت هادئة، ربما هادئة أكثر من اللازم. لم تكن له علاقة ببنات. وأخوه أمين كذلك. لكن على الأقل كان أمين يتكلم إلى زميلاته في المدرسة. بينما هو كان يتردد. والواحدة التي يختارها ليتكلم معها، يقرر ذلك فيقفز له أمين: هذه لا! لماذا؟ هذه سبق أن تكلمت معي! أيش يعني؟ يعني ما تعرفش البنات؟ الواحدة منهن تتكلم معك، وعينها في شي ثاني! النسوان كلهن لجهنم. مش من قليل قالوا إن معظم أهل النار من النساء.

ليس بسبب كلام أمين يعدل عن قراره. لكن القرار كان صعباً بذاته. انتهت الدراسة الإعدادية ولم يكلم بنتاً. الأول ثانوي كان يعني انتقاله مع أخيه إلى عبد الناصر، مدرسة «أعفاط»[٥] لم يعد من مجال لشيء غير الدراسة. الدراسة وبس! منذ بداية الصف الثاني الإعدادي ولا يزالان في المدرسة الأهلية[٦]، كان أمين يقول له: ما دمنا في مدرسة بنات، فلن نفلح أبداً. نصف تفكيرنا متجه لعندهن.

لم يفلحا كذلك عند الأعفاط. أمين تارة من الزهاد المستقيمين الذين لا يفوتهم فرض، وتارة يصبح من المشاغبين الكبار. يقطع النهار كله في التسكع، لا يجيء المساء إلا وقد

---

(٥) أعفاط: شباب غلاظ.

(٦) المدرسة الأهلية: مدرسة مختلطة حتى نهاية التعليم الأساسي ـ الإعدادية سابقاً.

قطعت سيارته المدينة طولاً وعرضاً. في المساء يجلس ليعدَّ سيئاته من النساء. عدة أيام ويعود بعدها إلى الزهد. عده هنا ليس لحسناته، بل للسيئات في الدنيا. السيئات التي يجب على الواحد أن يقنع منها بل وأن يحاربها.

السيارة نفسها بشلتين لهذا وذاك. أصدقاء الزهد يصطبرون عليه إلى أن يعود، إلى أن يهديه الله. وأصدقاء السوء يسألونه عند عودته بلهفة: أين كنت! في البيت هو شخص آخر. ليس مزيجاً من هذين المتناقضين اللذين لكل منهما أمكنة ورفاق. شخص آخر غير كل ذلك. شخص معتدل، ورع، خدوم، سخي، ذكي سريع البديهة، مقدام، مبارز، شجاع، إلى غير ذلك من الصفات التي أطلقها عليه أبي تباعاً. فبدا أمين في منتهى الجاذبية عند نفسه وحتى عند الأهل وحتى عندي. أنا أعجبت به! كان يمكن أن أنسى أنني أخوه الأكبر منه لولا معاملته لي، التي تعكس احتراماً أكبر بكثير من المطلوب. كل الأسر، كل العائلات ذات الشرف والقدر أولادها يحترم صغيرهم الكبير، ويسلم عليه كما يسلم على أبيه وأمه بلثم ركبتيهما. هو كان يفعل هذا وأكثر! كيف لا أحبه، لم يعد غيره يذكرني بأنني أخ كبير ومحترم.

منذ الإعدادية كان قد أصبح رجلاً في نظر أبي. منذ السنة التي كان يجب عليّ فيها أن أغادر مدرسة البنات، التي لم تكن أكثر من مدرسة مختلطة، لكن أخي يترفع عليها ويهزأ منها، فيسمّيها هكذا مدرسة البنات. لم أنجح في الإعدادية لتلك السنة. انتظرته لنغادرها معاً إلى عبد الناصر.

لم تكن انتظاراً تلك السنة، كانت هماً لم أعهد مثله،

وخوفاً، كنت أرتعد من مجرد تخيّلي أنه يمكن أن أرسب سنة أخرى وينجح هو ويغادر المدرسة، ليبدأ يهزأ منها ومني.

في الأول الثانوي ازدادت حظوة أمين عند أبي. أبي كان مستعجلاً يريد رجالاً يُحملهم اسمه، ويريدهم متعلمين وناجحين. لم يكن أمين وحده الذي يعنى أبي بتعليمه وتفوّقه. حتى أخواتي البنات كن يُحطن بمدرّسين وبدروس خصوصية، لكن أنا وأمين كانت الدروس الخصوصية تنهال على رأسينا. وأحياناً عليّ وحدي، لأنه كان يضجر ويخرج. وفي الثالث الثانوي لم يعد خروجه بسبب الضجر. هكذا أراد أن يبدو الأمر. كان يذهب إلى العمل مع أبي في المتجر. يصيح به: دروسك! وفي اليوم التالي يجده مندساً في العمال. يذهل أبي بردوده وفصاحاته. كلانا رسب في الثانوية. لكن رسوب أمين كان مبرراً بانشغاله بالعمل. سيرغمه أبوه في السنة التالية على الانقطاع للدراسة، ولا شيء آخر غير الدراسة. أنا لن يرغمني على شيء. ولن يطلب مني شيئاً. ينظر إليّ كأنني حالة ميؤوس منها. طوال السنين كان غضبه الذي لا ندري له سبباً، ينقسم على كل أسرته، وخصوصاً الولدين الكبيرين. في الثانوية أصبحت هناك سياسات جديدة وغير مفهومة، فيها إعادة توزيع للإهانات. كان أمين أقدر على حيازة احترام الآخرين. كان احترام من يسمّيهم رفاق السوء، لا يختلف عنه احترام من يسمّيهم أهل العبادة. لكنه في النتيجة اختار أن يضع حداً للسوء ورفاقه. بمجرد انتهائه من الثانوية تزوّج. الزواج، قال لأبي في واحدة من فصاحاته، يصنع الرجل. ليس من فراغ قيل إنه نصف الدين. تُعجب أبي هذه

الـ «قيل» في مثل هذا الموضع. إنها من ابتكاره، إنها لغته حين يحتاج إلى حديث شريف أو آية قرآنية يوردها مسبقة بـ «قيل» أو «كما يقولون». هكذا يحافظ على صورته الثورية بين أقرانه المارقين والمردة. الأحرار! أحرار لا يفعلون شيئاً، لا يعملون حريتهم هذه في شيء غير الشراب، والنساء، والتهكم على الله. ظل على تلك الحال هو وحده. أما أصدقاؤه فلم يعد لهم من كل ذلك غير الشراب، وسراً، وليلاً. أما النهار فهناك ما يفعلونه فيه، ليواكبوا منجزات الثورة وليحصدوها. في غضون شهور منذ آخر سهرة شراب في بيتنا.. كانت عدة سهرات متتالية طوال أيام عرس أمين، لم تكن هناك ليلة لا تشهد ضجيج هؤلاء الأقران، واحتفالهم ليس بالعريس بل بشرابهم. هكذا هم على أية حال منذ عشرين سنة لا يفترقون، ولا يكفون عن البحث عن مناسبة لضجيجهم. منذ آخر ضجة، بدأ أبي بعدّ خسائره من هؤلاء الأقران. من كان يظن أن شيئاً يمكن أن يفرّقهم. وتفرقوا! لا شيء يردّهم. إنه نوع من افتراق لا نقاش بشأنه. أصدقاؤه يتناقصون يومياً، وهو لا يفعل شيئاً غير أن يعد تناقصهم: لحية، لحيتان، ثلاث لحى، أربع. تعب من العد. عليه أن يسلم: هذه ثورة اليوم. اللحى هي متطلب هذه الثورة.

كان أمين وكذلك أنا قد التحقنا بالعمل جدّياً، بمهمات موزعة والتزامات. عندما عاد أبي من رحلته لعلاج أختي الكبرى نجوى في القاهرة، وجد أمين ملتحياً. كنت طوال الوقت أترقب لحظة يراه كذلك. ما الذي سيفعله؟ سيُجنّ بلا شك! أترقب ما الذي سيفعله به. لا شيء، شكره لأن ثورة اليوم تقتضي ذلك!

بالطبع لم يفعل ذلك، ولم يتكلم إليه، كان يكلمني حين قال: ليس أي رجل يقتدر على الطريق الذي مشيته. هذا أفضل له، يحميه حتى من نفسه. مهما يكن فإن الطريق إلى الجامع أفضل من الطريق إلى الخمّارين.

كانت لحيتي تحصيل حاصل عند أبي. مثلما كان رسوبي ونجاحي والتحاقي بالعمل، كله تحصيل حاصل. لا جديد فيه. لا يعني شيئاً. ليس صادماً ولا مفرحاً ولا محزناً. لا أدري كيف تبدلت الأمكنة وحتى الأزمنة بيني وبين أخي. ومع ذلك ظل يعطيني حق الأخ الأكبر في الاحترام. حتى عندما كنت بين الكفرة الذين يجيء لهدايتهم إلى دين الله في المدرسة. كان يأتي محاضراً، بينما لم أزل ألاحق الثانوية. هل كانت الثانوية تستحق مني كل ذلك الإصرار، كل تلك «الحَمْيَرة» أنا الكبير لكنني الراسب. وهو أصغر مني لكنه ناجح. الطلبة ينادونه يا «أستاذ»! يقيم الحلقات في منتصف ساحة المدرسة، ولا أدري ما أفعل. أدخلها طبعاً! قالها أسامة صديقي الوحيد في المدرسة. ستكبر الشقة بينكما. ليس بيننا أي شقاق. لكنه سيحدث. تذكرت أصدقاء أبي والفرقة التي جدّت. لقد كانوا يقتسمون الكأس الواحدة، وربما المرأة الواحدة. وتفرقوا.

من أول يوم جلست فيه في الحلقة، قدمني إلى الطلبة بإكبار: هذا مساعدي. حين أغيب أنا ينوب عني. والكتب التي أزوّدكم بها وشرائط الكاسيت، هو سيتكفل بإيصالها إليكم. لأنني قريباً سأنتقل إلى مدرسة أخرى.

كأنما جاء يقصدني أنا، يقصدني وحدي. مثلما في الأفلام،

كل أولئك المحيطين بنا كانوا كمبارس. نحن الاثنين فقط بطلا تلك الدعوة. صلينا الظهر حاضراً مع الطلبة، في واحدة من زوايا المدرسة. كان هنالك جامع. أذكّر أخي بأن في المدرسة جامعاً. قال: «المدرسة كلها وسخة، ويلزمها جامع يبنى من الأساس جامعاً. كل هذه الغرف الفائضة في المدرسة استعملت للمسرح، والرسم، والموسيقى، والمسخرة. اتفقت مع إخوة لنا؛ هنالك بيت بالجوار للبيع، سيدلوننا عليه، ونحن بل أنت ستشتري هذا الجامع، ستهيّئه جامعاً إن شاء الله. هكذا ستدخل الجماعة من أوسع باب».

على الفور تخيّلت صورة أبي، الحريص على ماله إلا في الشراب و... لكنه ويا للعجب هلل ورحّب وموّل مشروع الجامع. عليّ بعد هذا ألاّ أستغرب شيئاً. أبي كان يبحث لنفسه عن دور في الثورة الجديدة! لكنه لا حضور له بالمرة ولا اسم في هذا المشروع. تبرّع بجامع لا يحمل اسمه ولا يعود عليه بشيء. نعم! هكذا تُرفد الثورات بعطاء لا يشترط البطولة. ثم إنه بطل عبر ابنيه. ألا يكفيه هذا!

لا جديد في أنني أصلي. منذ الابتدائية وأنا أصلي، وأمين أيضاً. كانت أمي لا تكف عن مناداتنا لنصلي معها. أحدنا أنا أو أمين كان يصلي بها جماعة، ونفرح بهذه الصحبة. كانت الصلاة قد أصبحت بالنسبة إلى أمي قوتها البديلة والمناهضة لجنوح أبي. بالنسبة إلينا أنا وأمين كانت فسحة طيبة، ومهرباً من قسوة أبي معنا وشدته وغضبه الذي لا نعرف سببه.

لا جديد في الصلاة، ولا حتى في إمامة المصلين. الجديد

هو حيرتي إزاء العادة السرية. لقد كانت فرضاً هي الأخرى دخلته لسنين. وبالصورة الحلمية نفسها كل مرة.. بنت هي بنت الجيران التي بالكاد عرفت اسمها. كنت لا أرى منها منذ سكنوا قربنا إلا جلباباً ونقاباً. لم أر لها حتى عينين. ومع ذلك كانت بطلة حلمي. ليست هي بل جلبابها الذي أخرقه كل ليلة. حدث أن ضحكت مراراً، وأنا أراها في النهار، ليس لها ولا عليها طبعاً. كنت أضحك لخيالي، وعيناي تبحثان في جلبابها، هل من ثقب أو ما شابه!

ظننت طوال الوقت أنها لا تراني. لكن اتضح عكس ذلك. لقد كانت تشعر بي. حتى وإن سبقتني في الخروج من منزلهم، وصارت قبلي بمسافة. كانت تشعر بي، وتعرف أن هذا الذي خلفها هو طارق ابن الجيران. لقد حَلَمتْ، مراراً، أنه يتزوّجها. حلم نوم طبعاً من ذلك الذي لا يؤاخذ الله عليه. حلمت بابن الجيران! تزوجته! صحيح، ما من جلباب ما من جدار يعوق المرأة عن الشهوة، وحتى عن التمتع بها.

لم تقل لي كل ذلك إلا بعد أربع سنوات من زواجنا. سألت نفسي يومها تحت كم جلباباً تتخفى هذه المرأة.

كنا كلنا في الحارة قد تيقنا أن هذه البنت لا تتلفت خلفها. إنها لا تنظر إلى الأولاد حتى وإن كانوا قبالتها. نلعب في الحارة أولاداً وبنات، ونتجنب هذه الغريبة أولاداً وبناتٍ أيضاً. كنا نسمّيها: السعودية. إلا أن أباها وحده هو الذي اغترب إلى السعودية، وعاد ليحجِّبَ كل البيت. ربما لم يكن عمرها عندما ارتدت الجلباب تسع سنين، ربما أقل.

عموماً، أبوها هو الذي خطبني لها. بمجرد أن التحيت تبدّى له أنني دخلت دينه، بخطوة منه صرت صهراً في الله.

* * *

مساءً كان طارق يتأمل وجه زينب ويسبح الله ما أجملها. لن ينظر إلى أي شيء آخر، إلى لبسها مثلاً. يخشى ألاّ يكون قد تغيّر شيء. أن هذا الجمال هو الأصباغ التي اشتراها عصر اليوم. ليست الأصباغ، كل الناس عندهم أصباغ لكن ليس عندهم هذا الفن. لن ينظر إلى شيء آخر. حتى جلستها لو تأملها سيجد امرأة مرتخية لا تنم عن شيء. تعمد أن تحط عيناه على الشفة السفلى. لم تصر بعد إلى تلك الشفة التي رآها أول مرة.. الشفة المعضوضة مجرد مرورها بخياله يشعله. الشفة المجففة ومع ذلك ينبع منها شيء. الشفة المرشوفة إلى القعر. الشفة المنحوتة واااا... منذ زمن لم تنتب طارق هذه الثورة.

* * *

أتمّت لبسها. تتأمل شياكتها في المرآة. ثمة شيء ناقص لا تعرف ما هو. رأته واقفاً عكسته المرآة، إنه خلفها ويجتر شَكَلاً. شَكَل كل يوم: القات، اللبس، التفرطة. اليوم ستكون المشكلة فاصلة إن رفع صوته، لأن التفرطة عندها في بيتها. جيد أنها كلمت أمها. مع أنها جلسة بنات، إلا أنها ستجيء، ستجلس في حجرة مجاورة، فقط لتحرس هذه الجلسة، ستكون فاصلة. أي موقف له ستحضره أمي، وتقنعه بطريقتها: هذه الجلسات من حقها، مثل الناس، أو كما تقول أمي، «شرع الناس ما أنت معك شرع لوحدك». وجدت الشيء الذي تبحث عنه، إنه

"Touch of Pink" أول برفان تشتريه هي، جاء بالطلب وبالدي إتش إل من باريس!

سارت بقفزة واحدة إلى خارج الغرفة. بدأت صديقاتها يتوافدن. نزلت الدرج مهرولة إلى الطابق الأول. غير مصدقة أنه تركها تنزل من دون مشكلة. استقبلت صديقتيها، حادثتهما أحاديث من قبيل ما يتطلبه الوقوف بغرفة نزع الثياب الخارجية وتضبيط الماكياج. قَدِمت صديقة ثالثة. رائع؛ لتنتهي تلك الأحاديث المربكة، أو على الأقل تتزحزح. الواقع، ارتباكها هو بسبب الطابق الأعلى وما يتربصها فيه. صديقة رابعة، خامسة. عينها لم تزل في الطابق الأعلى، وتعصر ساعتها عصراً لماذا تأخرت أمها. الصديقة السادسة. بدأت تسترخي، لم يفعل شيئاً، لن يفعل. البيت يضج بالناس، غير معقول أن يسيء لنفسه بالإساءة لأحد في بيته. الدفعة التالية كنَّ جماعة. أوقفت العد، تستقبل، وتضحك، وتجيد أحاديث الاستقبال، لم تعد تلك الأحاديث مربكة، تعانق، وتسأل، وتضحك، وفجأة ناداها. لم يكن يصيح، إنه فقط ينادي، ومع ذلك احمرّ وجهها خجلاً من صديقاتها. استأذنتهن لدقيقة واحدة. الدقيقة اتسعت لإحدى وأربعين أخرى، وثلاث لتبدل ملابسها، ودقيقة لتصلح ماكياجها. حين نزلت، كانت أمها تقوم بواجب الضيافة، وتملأ الجو بالبشاشة. وتزجّ بابنتها في البشاشة، تعلمها كيف تمتص الأحداث:

– الحمد لله ان انتي ما حرقتيش بالقهوة اللي انسكبت عليش، أما الفستان مش مشكلة!

إذاً فكانت بالأعلى لهذا السبب؟ جيد! وماكياجها الذي

أُتلف؟ وتسريحة شعرها؟ و. . هل بسبب من القهوة؟ لن تغفر له هذا!

بعد ذهاب الصديقات شكته إلى أمها، ردت: «قليل حيا ما نفعل» (قليل حياء ما الذي نفعله!) وأردفت بما معناه: المشكلة لو تكلمنا بشيء كهذا إلى أبيك، أعرف رده، سيقول لنا: من حقه. الرجل يجيء زوجته وقت يشاء.

دخولها الفراش متبرّمة وغاضبة وعاصية كما يسمّي هذه الحال، كل ذلك لا يعني إلا استثارته. وكلما طال تجهّمها وإبداؤها الألم، طال انتصابه وتدفقه وإقباله عليها. الليلة إلى جوارها رجل لم تعتده إلا حين تكون راضية عنه وتلاطفه وتستأنسه وتشده إليها. رجل ساكن لا يلتفت ولا يتكلم ولا يرد. ما إن غرقت في النوم، كان الرجل الذي إلى جوارها قد انتعض، وطال اغتصابه، وطالت لذتها.

٣

الصباح جميل. قالت رجاء لنفسها وهي تتلفت حولها لترى صباح المارة. الصباح جميل بذاته بمجرد أنه صباح. ليس صباحاً إلى تلك الدرجة، إنها تقارب الحادية عشرة. توقفت فجأة، لم يكن لوقفتها تلك من سبب في الشارع، جردت مشترياتها من الكيس، ستحضنها هكذا بلا كيس. تشمّها، للكتب رائحة خاصة. كانت تظن ألاّ وجود لرائحة الكتب إلا في مكتبة سيف. حين رآها واقفة إلى جوار المكتبة، وأدرك أنها تتشمّم كتبه، بادأها بالقول

«سجاير!» بعد أيام، ربما أسابيع، ستقول له ليست رائحة سجاير، إنها رائحة الكتب نفسها. في سريره رفعت كتاباً وقربته من وجهه، ليشمّه. أخذه منها وفتحه وقلب صفحاته يريها:

- شوفي الورق لونه أصفر. سجاير. كل شي في هذه الغرفة رائحته ولونه يتغير بسبب السجاير.

لا! اليوم وبعد مرور كل تلك السنين. تصر عليه أنها رائحة الكتب.

والصباح أيضاً له رائحة. يصبح للأشياء رائحة حينما تنبض بالحياة. وتصبح الأشياء تنبض بالحياة حينما نحبها. تمنت لو ارتدت نقاباً محايداً، بدلاً من نقابها هذا الذي يفوح ببقايا رائحة "Nina Richi". كيف خرجت بنقاب معطر؟! إنها حريصة ولا تمرر شيئاً كهذا أبداً.

تتأمل حولها، هو الشارع نفسه، في المدينة نفسها مدينة كل يوم، لكنها اليوم لها رائحة. ربما ليست رائحة المدينة، إنها رائحتك.. هذه الجملة تكون أجمل، لو قالها سيف من حيث هو راقد لا يصحو. يقول لها اليوم فقط هذه رائحتك أنت يا حبيبتي. ثم يعود لنومه. اشتاقت لسيف لأي سيف، أي حبيب يكون لكلامه رائحة.

فكرت بشراء طعام غداء «سفري». لتعود إلى البيت، لتجلس إلى كتبها وتذاكر. كتاب لتعلم اللغة الإنكليزية، كتاب لتعلم الكمبيوتر، مع إنه مافيش كمبيوتر. ورواية ستجهد لإخفائها وإبعادها عن أيدي البنات في البيت. ما إن يعرفن أن كتاباً ما من كتبها رواية حتى يسرقنها، ولا يقرأنها طبعاً، تصبح

أكسسواراً جديداً ولافتاً وجذاباً. لكم من كتبها فُقِدَ، وعرفت في ما بعد أنه كان يقوم بمهمة، يعمل، يساعد واحدة في اجتذاب زبون. هل تصدق هذا يا سيف؟ الكتب أيضاً تعمل في الدعارة، ومن دون أن تُفتح. هل تظل لها رائحة؟ تتذكر كتباً مارست الحب. الحب الحب لا الدعارة. كتب سيف مارست الحب معهما. يجيء لرفع الكتب عن السرير، تقول له دعها! أحب أن أغرق فيها، أن أطعمها عرقي، أن ترشف مني ما دامت ترشفك.. هاه يا سيف، رائحة ماذا؟ هذه التي لصقت الآن بكتبك، على هذا السرير؟!

لم تشتر الأكل السفري. قررت أن تعزم نفسها على الغداء. لكن الوقت مبكر بعض الشيء. لا بأس ستجلس لتذاكر، وليجئ الطعام على أقل من مهله.

كان الوقت مبكراً، فكان المتوقع أن تكون وحدها في الصالة. لكنْ هنالك اثنان، واثنان آخران، وآخران. تستطيع بحكم المهنة أن تميّز؛ أيهما اثنان بمعنى: حبيبين، وأيهما دكان. ما همّ. ستبدأ بالقراءة. هنالك اثنتان تحدقان فيها وتتكلمان. الكلام عنها لا بد. إحداهما تصغي وتنظر إليها. والأخرى تتكلم وتتلفت إليها. أيضاً ما همّ. بعد لحظات قَدِمتْ إحداهما إليها، طرحت عليها بعض الأسئلة تباعاً. لم تجب قبل أن تتعرف إلى محدثتها. كانت نشوى تسألها عن زينب:

– نشوى من؟

– نشوى قاسم عُبيد! خلاص؟ تعرفي زينب طبعاً؟

– تقصدي زوجة طارق عُبيد.

– أقصد! نعم! تعرفيها؟

– أنت تعرفيني؟ التقينا في مكان، شفتيني من قبل؟ تشبّهي علي؟

كان لا بد لكلام يطول هكذا، أن يحدث في طاولة واحدة، لكن ليس من قبيل الإكراه أو حتى الاضطرار. تألفت الطاولة عن طيب خاطر من جانب الاثنتين، كانت الطاولة الواحدة بالغداء الواحد والأحاديث التي لم يكن لانتظامها أن يسير إلا إلى التناغم. وحدها سماح كانت متململة، بل وتردّدت قبل أن تجلس إلى الطاولة نفسها.

سماح لا تعي نشوى إلا «بنت ناس» تمر بمرحلة حرجة وسترجع ثانية. لهذا هي على صلة بها وتقف إلى جوارها، هذا واجبها. لكن رجاء! لن تقبل أن تكون لها علاقة بها أبداً. ونشوى تعرف ذلك، بينهما شرط ألاّ تجمعها بمثل هذه الأشكال أبداً. حينما فرغت سماح من هذا الكلام الذي كانت تقوله لنفسها، بدأت تتأمل رجاء. هل رأيتم أحداً في عينيه ملقاط؟ هي كانت تنظر إلى وجه رجاء بملقاط. وكثيراً ما كان يقع منها على الأرض! تدير وجهها، وتعود تنظر إلى رجاء بنفس الملقاط. رجاء تعودت، ليس أول ملقاط تتشاغل عنه. كأنما لا تريد أن تصطدم بلصوصيته وقرفه. ولن تسألها: هل قرفها هو بسبب أنها تسرق، أم هو قرف مما تسرقه؟ نقلت سماح نظرها إلى الكتب المجاورة مراراً. هذه المرة مدّت يدها إلى الكتب. عندها كان قد آن لرجاء أن تغادر. لديها فعلاً موعد مع نفسها. حددت أن هذا الموعد هو مع نفسها. نشوى تستبقيها لكنها لا تبقى. تسدي إليها

عروضاً مغرية: ستوصلها بسيارتها، ستدعوها إلى كأس في شقتها، إلى قات، إلى صحبة حلوة برجال حلوين. لا جديد في كل هذا الذي تعتبره إغراءً. رجاء عندها من هذا الكثير ويومياً.

٤

تقلب هدية زوجها. تعرف قنينة البرفان هذه. عرفتها بمجرد رائحتها. ومع ذلك قربتها من ضوء الأباجورة لتدقق فيها: "Lacost Touch of Pink". إنها هي. قدّمها لها ذات مرة دانيل في واحدة من زياراته. تعرف سحر هذه الرائحة، لكنها؛ عندها تحسس من الروائح التي تركت بصمة على جسدها. لن تقول له ذلك. يكفي قات تلك المرة وترددها وتململها إزاء فكرة القات والجلسة، وما أثارته فيها من ذكريات. لقد شعرت بأن زوجها قفز مباشرة إلى رأسها، إلى ذاكرتها. وذهب مغاضباً. كم مرة كتلك سيمررها لها ويغفرها. وخصوصاً أنها امرأة ملآنة، كل شيء مخزون عنه نسخة في ذاكرتها.

لكن الذي لا تعرفه هو لماذا جاءها بقارورة عطر مفتوحة، ومستعملة. تعرف أنها لا تتوافر في السوق المحلية، لكن ليس لدرجة أن يجيء بها ولو مفتوحة! قارورة من هذه؟ زوجته؟ لا يمكن لزوجة أن تفعل هذا! ولا يمكن أن يأخذها عنها خلسة، سرقة!؟ وجدها؟ أين؟

ما من إجابة توصلت إليها وبدت لها مقنعة. ومع ذلك لن تسأله. زاد من حيرتها شكل احتفائه بهذه الرائحة. لأيام ظل يقيم

طقوس فراش خاصة بهذه الرائحة. بدا كأنه لا يضاجعها هي بل الرائحة. وربما المرأة التي لم يبق منها غير تلك الرائحة. امرأة ذهبت سريعاً. مثله لا يقرب النساء إلا زوجات. ربما كانت علاقة شرعية، لم يعلنها، وانتهت بشكل ما.

٥

لم تعمل ليلة البارحة. استغرقت ليلها رواية إلياس خوري «مملكة الغرباء». ولم تذاكر. كان هاجساً أن تقرأ الرواية التي اشترتها أخيراً. فإذا سُرقت منها تكون على الأقل قد قرأتها. هكذا هي المعيشة المشتركة أو المختلطة بأناس غريبي الأطوار. زميلاتها في المهنة؛ على أنها انتقتهن بالفرازة كما يقولون، وفرضت شروطاً وافقن عليها جميعاً بل وأعجبتهن. استطعن بمجموعة من الأحاييل أو الأقنعة أن يصمّمن بيتاً ينال احترام الجيران المحيطين. لا استقبال لغرباء في البيت، لا زبائن، ولا حتى أشخاص عابرين. ليس لواحدة أن يوصلها زبون بسيارته إلى البيت، ولا حتى سيارة مخصصة، أيْ تاكسي بسائق محدد مهما كان محترماً. الحرص واجب. أكثر من ذلك؛ ليس للواحدة أن تمتلك أو تقود سيارة حيث يمكن لتتبعها أن يوصل إلى هذا البيت.

أوجدن سبباً لخروجهن غير المبرّر، اخترعن عملاً، وسمّين جهات عمل عديدة، منها مستشفى واحد، اثنتان فقط يعملن في هذا المستشفى. وطبعاً لم يكن ذلك يعني أكثر من أن جلبابين اثنين يتناوبن جميعاً على دخولهما ليلاً، للخروج بهما إلى العمل.

في الواقع هنالك سبعة جلابيب بالمقاس نفسه لكن لا يعلق في بوابة الخروج غير جلبابين فقط، يمكن أن يسمّى الواحد منهما الجلباب المناوب. اختيرت الأعمال بمقاس الأسئلة التي يمكن أن يطرحها الجيران في ما بينهم. لماذا «واحدة» لم تخرج هذا الصباح، لأن عملها بعد الظهر. لماذا «واحدة» كثيرة الترداد على البيت، لأنها تعمل وتدرس، فهي تعود إلى البيت كلما فرغت. وهكذا ليس لهنّ أسماء عند الجيران لأن أحداً لا يزورهن ولا هنّ يزرن أحداً، ولا أحد يرى وجوههن إنهن منقبات ومجلببات، لا فرق إن كن واحدة أو سبعاً. ثم إنهن يخرجن فرادى، بمعنى أنهن دائماً واحدة، وليس مهماً الواحدة نفسها أو واحدة أخرى، والمهم أنهن بنات محترمات، أنهن بيت نظيف.

الأعمال التي يخرجن إليها، أو العمل الواحد الذي يخرجن إليه، يذكرهن كل يوم بأنهن لسن محترمات. لكنهن يعدن يومياً إلى بيت نظيف، هنالك أيام يرجعن فيها إلى هذا البيت ويقسمن ألا يخرجن منه أبداً. هذه مشكلة البيت النظيف، يعلّم الكسل.

قوادوهن في بادئ الأمر، سخروا من بيت بهذه الشروط. لكن لم يلبثوا أن وجدوا مصلحة في الأمر. القوّادون لا يفوّتون شيئاً من دون أن يكسبوا منه. أعجبتهم الفكرة، من اليسير أن يدبّروا بيتاً ثالثاً لأنشطة البغاء، هنالك فنادق بكامل تجهيزاتها تستضيف نشاطهم. لكن هذا البيت بنموذجه هذا من الاحترام والنظافة، وفر لهم فرصاً أسهل للابتزاز والتحكم. حينما تحرص البنت على الاحترام والنظافة، تكون أكثر عرضة للابتزاز، وبتهديد لا يكلف شيئاً، بمجرد أن يرسل لها سيارة لزجة لتقف

بباب البيت، يجدها فوراً بين يديه، تستجيب لطلباته، وقد ترجوه أن يطلب، فقط يرفع يده عن حياتها بين الناس، عن بيتها المحترم النظيف. كيف لا يكون القوّاد أكثر حرصاً على بيت كهذا.

البيت الذي اخترعته رجاء، أصبح نموذجاً ينفذه قوّادوها لافتتاح بيوت جديدة. بل كانوا أكثر تفنناً وهم يزرعون في كل بيت أسرة، أصبح البيت الواحد من هذه البيوت يضاف إليه ثلاثة إلى أربعة إلى خمسة أشخاص، من آباء أو أمهات أو إخوة ذكور أو أطفال، لا عمل لهؤلاء غير تأكيد الصورة: هذا بيت أناس محترمين.

يتقاسمن أعمال البيت، الغسيل، التنظيف، الطبخ، كل مشتريات البيت يتقاسمن ثمنها. حتى الطعام يتشاركن ثمنه، ويطبخنه كل حسب «دولها»[٧] من دون أن تقول الواحدة منهن لن آكل هنا اليوم فلماذا أدفع. إنها لا تدفع لهذا الطعام فقط، إذا كان دولها فإنها تطبخه قبل أن تخرج. هذه هي الغربة واليتم، تصبح الواحدة تقف إلى عمود من الخشب، تسمّيه شجرة، تجلس عند قدميه تستظل. سبع بنات من بيئات متعددة. بعضهن من مدن وقرى بعيدة. بعضهن من الحيّ نفسه، بيت أسرتها على بعد شارعين، مئتي متر على الأكثر. يتصادف أن ترى أحد أفراده في الشارع، تمر به أو يمر بها، لا هي تتكلم إليه ولا هو يتعرف إليها

(٧) الدَوْل: هو الموعد الذي يحين. دولها في المطبخ: ميقات اشتغالها بالطباخة.

في جلبابها، في سوادها الذي يجبّ كل شيء، ليس فقط الماضي والعشرة، إنه يجبّ كذلك الحاضر والشوق والعيش والملح.

* * *

٨٧ م

بيت رجاء، الذي بأبوين وثلاثة إخوة، سارة، شذى، وليد. البيت الذي أرضيّته من الطين، الطين الذي يرشح ويصر على العشب. ليس الحنان على الصغار ما أخرج أبويها من حجرة نومهما. إنه الخوف عليهم مما أصبح شاشة سينمائية في الصالة وتشف مشاهد فاضحة. ومن يدري ربما هو الخوف منهم.

الشق الذي كان باباً لدخول سيارة، وأصبح حجرة بجدار من القماش، الجدار اللين الذي يشف ما خلفه.

في الصالة رجل في الخامسة والأربعين لا يكف عن الدمع. وامرأة في الثلاثين تلتصق به لتكفكف دمعه أولاً بأول، دمعة فدمعة. تلتصق به لتعطي ظهرها للشاشة. خلف الشاشة ابنتهما لا تكف عن التفكير فيهما. تُرى ما هي حالهما الآن. تثبّت الستارة، عبثاً تحاول تثبيتها، المساحة ضيقة وللحيوان الوحشي الذي تروّضه هنا ساقان لا تعرف أين تجيء بهما.

في الصالة أبوان يرقبان المشهد بتوتر، بقلق، برهان مع القدر: دخل، لم يدخل. حدث، لم يحدث. تخرج كل مرة لتطمئنهما: لم يحدث.

خدع صغيرة نبتكرها كي نحجب خدعاً كبرى. هذا الرجل قبل سنوات قليلة كان مجرد النظر إلى زوجته من قبل رجل غريب، وعلى قارعة الطريق، كافياً ليشرع في جريمة قتل. اليوم

هو يتوتر ويقلق على غشاء بكارة. هذا لا يعني أن كل ما يحدث لا يؤلمه. لكن سؤاله عن الغشاء كان مهرباً من أسئلة كبيرة بإجابات لا يقدر عليها. حين يصبح المرء عاجزاً عن إعالة أسرته، عن الذود عنها، يسقط حقه في التعبير عن غيرته. بالتدريج، ومع الوقت تسقط تلك الغيرة، يسقط الألم الخاص بالغيرة، لكن هنالك آلام أخرى.

من قبلُ كان غشاء بكارتها غشاءً لبراءتهم جميعاً. انهتك هذا الغشاء. اعترف جميعهم لم نعد أبرياء. شيء ما يحدث ليس بريئاً. غشاء بكارتها اليوم هو غشاء لخدعهم الصغيرة التي يتواطأ على ابتكارها ثلاثتهم. الأبوان والابنة، أبطال الشاشة نفسها. هي طوال الوقت تفكر فيهما. هما طوال الوقت يقلقان عليها. خدع موزعة بالتساوي، خدع، أدوار.

الشاشة نفسها، تقسم الأبطال إلى دورين اثنين: جمهور، ومنصة.

ربما لم تكن رجاء أول من يعرف أهمية الجمهور في النص، وتدخلهم وسيطرتهم عليه وعلى مساره. لم تكن الأولى، لكنها في سنها هذه، قررت متى تسدل الستارة ومتى ترفعها، وعلى ماذا بالضبط. كل هذا ولم تنكر على أبويها حقهما في التخفي، وفي إنكار ما يحدث، وابتكار المبرّرات والمسوّغات والأغشية. لتكن صريحة معهم، غشاؤها ليس بذلك الجدار السميك، ولا الكيس الذي يتسع لهم جميعاً، ولا العربة أو القارب الذي يقلهم إلى المرفأ. على الجميع أن يعرف، إنهم في طريق لم يكن الغشاء أولها ولن يكون النهاية.

انتهت خطبة رجاء الملقاة على والديها وعلى الدنيا بكاملها. الخطبة التي لم تنطق بها شفتاها، ولم يسمعها أحد هذين الأبوين، انتهى شرودها بينهما، الشرود الذي يشبه سكون ما قبل عاصفة، أو عدّاد قنبلة موقوتة. انتهى صمتها، والآن ستشرح هذا الصمت..

جلست لتتكلم إليهما، وستبدأ، إنها فقط تنتظر أمها التي ذهبت لتجلب الشاي ولم تعد. الشاي الذي يتطلب أحياناً وقتاً طويلاً، وقد لا يأتي. ذهبت لإحضارهما معاً، أمها والشاي، وجلست مثلما يجلس زعيم يقرر بشأن المستقبل.

شوفو...

تكلمت بإسهاب. طوال النصف الأول من كلامها، لم يلمس أحدهما كوب شايه. لكن في الجزء التالي شرباه، وتنفسا الصعداء. لا مشكلة. الأمور على ما يرام. والبنت بخير.

ليست مستعجلة على فض بكارتها. ما دامت قد أعطيت حق تقرير الدخول، فلماذا لا تتخيّر! قليلات جداً يمتلكن هذا الحق. إنها محظوظة، ولن تفوّت هذا الحظ، حقها في أن تقرر من، ومتى، وكيف. أما لماذا فهذه مسألة أخرى. الظروف هي السبب! هذه كذبة أو خدعة فات أوانها. لأنه ثبت أنها تقدر على الكسب من دون فقدانها. العذرية! هنالك من يعاود المجيء خصيصاً من أجل هذه الإثارة، ويرجوها أن تحافظ عليها، ويدفع أكثر كل مرة. لماذا يفعل ذلك؟ لا تعرف. إنه يبلغ أقصى إثارته، ويسألها بالله أن ترفض ثم ترفض لو ألح عليها أن

يدخل. وهنالك شخص يريدها أن ترفض، لكن ليس للأبد، وليس على سبيل الرفض، فقط المقاومة. دفع لها مبالغ خيالية لتنتقل معه لمرة واحدة، ليوم واحد، لساعات إلى مكان آخر، ولا تفعل شيئاً غير أن تقاومه بمكان فسيح يصلح حلبة لصراع هذا المسكين مع غشائها ربما مع غشائه من يدري.

كانت رجاء تطارد نومها الذي تأخر وقد لا يأتي. في السرير الذي هو الآن سرير. كان، قبل ساعات قليلة ربما ساعتين فقط، مضمار حروب بمعارك لذيذة أحياناً.

كانت الصالة تعوم في الهدوء والظلمة. لهذا كان لبكاء أبيها صوت على الرغم من حرصه. نهضت إليه لتجد أمها قد سبقتها. واصلت مشيتها إليهما، لكنها توقفت فجأة. سمعت لهما كلاماً ذكرها أنهما ليسا فقط أبوين، بل زوجان. هما في بعد ما: رجل وامرأة، ذكر وأنثى بينهما شيء. لكن أباها ظهره مكسور! عادت إلى سريرها. سمعت كيف تعالج النساء كسور أزواجهن. ودموعهم كيف تؤول إلى همهمات وشهقات ورعود مكتومة. الصوت يزداد ارتفاعه. احمر وجهها، شعرت بتوهّجه هل خجلاً أم استثارة؟

في النهار سألت أمها عن التفاصيل، عن السنوات الماضية؛ معقول هذه أول مرة منذ الحادث؟ قالت لها كانت سنوات عذاب، بالذات السنتان الأوليان. تارة كان يبكي على زوجته التي ترمّلت وهو على قيد الحياة، وكثيراً ما عرض عليها الطلاق من أجل ألاّ يظلمها. وتارة كان يبكي من زوجته، تحسّساً من أي شيء تفعله. كل شي كان يجرحه منها. إذا لم تلبس وتتزيّن يقول

لمن؟ ليس أمامها زوج، ليس رجلاً لتتزيّن له. وإذا لبست وتزينت يقول إنها لا تبالي َبه وبمشاعره. وفي واحدة من المرات التي كان فيها يبكي، وحده، في فراشه، هبّت إليه كالعادة، وجدته يبكي ويستمني معاً. جرحها ذلك، أليس لك امرأة! وهكذا بدأت علاقة جديدة. سألتها كما تسأل طالبة علم في معمل: هل لا بد من هذه الطريقة كل مرة، هل لا بد من أن يبكي؟ لا! لكن أخاف أن أقاربه وهو ليس مقتدراً أو راغباً في تلك اللحظة، عندها لن يقف البكاء به عند حد مرضه ورقدته. ممكن أن يقول إن زوجته نهمة وهو لا يكفيها. والله أعلم ما الذي يمكن أن تنتابه من وساوس وشكوك وأفكار. تهدّه، وتهدم البيت كله.

أمها تفصّل رغباتها وفقاً لمقاسات استطاعته وحاجاته، متى يريد هو، متى يقدر، وحتى كيف هو الذي يحددها. يا لهؤلاء الرجال، يا لهذه الحياة التي تتوقف عند حالة أير، قد ينهد فيهدم ما حوله.

٦

زيارة غير متوقعة، لزائرة غير مرغوب فيها. الزيارات عموماً غير مرحّب بها. والزوار أياً كانوا، غير مرغوب فيهم. هذه النقطة تحديداً تجعل من هذا البيت، ليس بيتها، ولا بيت أحد غيرها، ليس بيتاً.

أتمّت لبسها مسرعة، تخرج إلى هذه التي تسأل عنها، لا

تدري من. نشوى كانت هي الزائرة. وكانت تقف أمام بيت أغلق مؤقتاً في وجهها، إلى أن «يشوفوا» إذا كانت من تطلبها موجودة. فتح الباب، فتحته رجاء. نشوى تنتظر كلمة «تفضلي» لتتفضل، ولتطلق عينيها في البيت. صار أكثر تشويقاً وهو يغلق بابه ريثما يأتي الإذن. أبقتها في الصالة دقائق، ثم رأت أنه يستحسن ألاّ تضيّق على زميلاتها حراكهن في البيت، المستحسن ألاّ تلتقي غيرها. هي وبزيادة وكثير! أخذتها إلى غرفتها. لم تتم نشوى تصويرها الفوتوغرافي للبيت. أول ما يلفت فيه نظافته وترتيبه. لا يشبه البيوت التي دخلتها، البيوت التي أُدخلت إليها وأحياناً عنوة.

غرفة رجاء للوهلة الأولى رأتها غرفة طالبة، لكن في المرحلة الابتدائية. هذا الترتيب وهذه النظافة هما درس من دروس الابتدائية. حتى الكمبيوتر يجلس مؤدباً، ولم يغادر أغشيته البلاستيكية. من دون شعور سألتها:

– تدرسي؟

– أيوة لكن على طريقتي، بدون مدرسين، ولا مدرسة!

– صف كم؟

– صف مفتوح. مؤخراً سجلت في مكتب الأمانة، أروح للاختبار فقط. تشربي حاجة؟!

طلبت المعدوم، لا أحد يشرب في هذا البيت. تأكد انطباع نشوى أنه بيت مدرسي. وجدتها فرصة لتأخذها في فسحة، بعيداً عن هذه المدرسة. اعتذرت رجاء، بل رفضت رفضاً صارماً لا يلتزم الأدب، لعلّها تتخلص من هذه النشوى. ما الذي تريده

منها. كانت إجابتها صريحة وواضحة حين سألتها في المطعم عن زينب. بكل اختصار قالت لها إذا كان لديك أسئلة بخصوص زوجة أخيك فلتسألي أخاك. ما الذي تقوله لها بعد؟

– أريد أن أراها؟

– من؟

– زينب.

– هل قيل لك إنها سجينتي ويلزم لزيارتها إذن مني!

– أنت صديقتها. خذيني إليها!

– أخوك أولى بهذا. بيته وهو حر من يدعو إليه.

– أنت تزورينها.

– أنا أزورها لا أحد معي. في زيارتي لها لا أخرج من جيوبي غرباء أفرضهم عليها.

– أخي يعرف بأمر زيارتك لها!؟

– اسأليه! تشربي حاجة؟

– عندك حاجة؟

– حاجتك؟ لا!

غادرت نشوى من دون غضب يذكر. لم تشعر بالإهانة، على الرغم من أنها كانت حاصلة. صُدّتْ، على الرغم من أنها بنت قاسم عُبيد، الاسم الذي تنفتح له الأبواب. كما هو متوقع، ستحتاج إلى سماح لتتقيأ في حضنها. لا أحد يصلح لهذه المهمة أكثر منها. هنالك أناس خلقهم الله لمهمات لا يصلحون لغيرها. وهنالك أناس خلقهم الله من دون سبب. لا مهمات لهم بالمرة، ولا عمل، ولا معنى، مثل نشوى مثلاً. كررت ذلك على مسمع

نفسها. وسألتها، سألت نشوى: ما الذي تفعلينه في الدنيا غير أن تجوبي البيوت والأشخاص، بلا سبب، بلا هدف. ما الذي تريده من زينب؟ لا شيء. ما الذي ذهب بها إلى رجاء؟ لا شيء.

طاولة زجاجية عليها قارورة وكأسان إحداهما فارغة. حضن للقيء. ونشوى التي ليست نشوى، ولم تعد نشوة أحد كذلك:

في ٨٢ م بعد عودة أبي من القاهرة، من الرحلة التي سافر فيها ليخلص نجوى من حملها، أو يخلص نفسه من الفضيحة. عاد شخصاً آخر. معذور. كانت أول مرة لا يكون سفره إلى القاهرة لغرض الطيش و«الطيرفة». ربما لم يكن حمل نجوى وإجهاضها، لم يكن بذلك الشيء السيّئ إلا لأنه كدّر مزاجه وعطل استمتاعه المعتاد في القاهرة.

القاهرة بالنسبة إلى أبي لم تكن إلا باراً كبيراً، وملهىً مفتوحاً. كانت مكاناً للمتعة. في القاهرة يكون في أحسن أحواله. والذي يحظى بصحبته فيها، يكون حظي بفرصة عمره. لو سألت أمي عن أجمل أيام حياتها معه، لقالت لك في القاهرة. إلا أنه لم يكن ينسى أنها زوجته، ولا بد لهذا من كلمتين أو ثلاث جارحة. غالباً كان ينتقد ثيابها، ليست كما ينبغي لامرأة يصطحبها رجل وسيم إلى السهرة. أمي لم تستطع أن تلبس القصير والعاري مثل حورية. لكنها كانت الأجمل في فستان السهرة السواريه، وتسريحة الشعر، ومسحة الماكياج الناعمة، على وجه يحمرّ خجلاً من كل ذلك. لكنها سهرت وكأفضل من يسهرن.

تصوري، أمي حضرت حفلة أم كلثوم. خمس حفلات

حية، حفلات متفرقة خلال ثلاث سنوات. لكن أمي تعدها هكذا ثلاث سنوات في القاهرة. والمهم أنها لوت عنق أبي، من أول مرة، من أول سهرة. كانت السهرة التي سيقسم أبي بعدها أن يصطحبها إلى القاهرة كل شهر، كل حفل غنائي للسيدة أم كلثوم. ليلتها اعترف بهذه المرأة، وأنها تصلح خليلة ورفيقة «طيرفة». لكنها خيّبت أمله آخر السهرة. في البيت حين صبّ لها كأساً كما ينبغي لنديمة، عندها تلوّن وجهها ليعود إلى سيرته الأولى، لما قبل السواريه والكوافير والسهرة وأم كلثوم. هذه المرأة لا تصلح إلا زوجة. عبَّ كؤوسه يقسم لن يصحبها في سفر أبداً. كذاب، صحبها مجدداً، وإلى القاهرة، وأم كلثوم.

أمي تسرد تلك الأيام كما لو كانت سيرة سرية وحميمية، من تلك التي تحتفظ بها النساء كمغامرات ما قبل الزواج. كانت فعلاً أياماً خارج المعتاد منه معها في حياتهما الزوجية. كانت أياماً تخصها وحدها. مع رجل خارج عقله دائماً. خروجاته القليلة تلك التي معها في القاهرة، كانت ملكها، كانت سيرة تخصها، وتحتفظ بها بعيداً في رف في ذاكرتها، لا يطاله. ترفعها عن تناوله، كما ترفع الأمهات دفتراً ثميناً عن متناول الأطفال كي لا يمزقوه. كان يكفي أن يتندر عليها أمام الجميع، وأنها كانت تشبه ريفية في باريس. لا تجيد أن تلبس، ولا أن تأكل بالشوكة والسكين، ولا أن تمشي بالكعب العالي، وتتبختر بالجيبة القصيرة. الجيبة التي حين تلبسها النساء، يصبحن محض مؤخرة وصدر، محض أنوثة. إلا هي، كانت تلبس الجيبة لتصبح شجرة في برميل. وفي البنطال هي شرطي ساعة خدمته العسكرية. كل

هذا يقوله على سبيل خفة الدم. ومع ذلك هي ترفع مذكراتها الثمينة عن متناول يده.

كان هذا في السنوات الثلاث تباعاً من ٧٠-٧٢ كنت أنا قد جئت إلى الدنيا، لكنه لم يجئ زمني، أو أنه جاء لكن أحداً سرقه. حورية حظيت بنصيب من أبي. كانت مدللته ومكايدة أمي. تنافسها على سلب وقته واهتمامه. حين يأخذ هذه إلى القاهرة، يأخذ تلك. حتى في صنعاء كان يخرج بأخته، وصديقاتها طبعاً، للنزهة. يظل طوال النهار في خدمتهن، يتنقل بهن من ضاحية إلى أخرى، وأحياناً تأخذهم الطريق إلى مدينة ومبيت. حين تعود لا تنسى أن تعرِّج على أمي. قبل أن تصل إلى بيتها تصل أولاً إلى أمي، تستعرض نهارها الضاج. تصوري كانت أحياناً تختار أن يكون انطلاقها خاطفاً أبي للنزهة من بيتنا، من بين يدي أمي، ومن دون أن تدعوها إلى الخروج معهم. تسرح شعرها، تربط بلوزتها إلى خصرها، وتقول لها بلؤم: باي. تظل تتبختر في الحارة قبل أن تصل إلى السيارة. تكون سيارة أخيها بباب البيت، ومع ذلك لا بد من المرور بباب بيت حظية وباب أمة الباري وأمة الرحمن، جارات أمي وصديقاتها. ليرين هذه الميّاسة المدللة أثيرة أخيها ويخبرن أمي، ويصعّدن غيظها إلى شجار مع أبي. في الواقع لم يكن أبي يخرج بها للنزهة، لم يكن يخرج معها وحدها، وإلاّ كان اصطحب زوجته أيضاً. لكن في تلك النزهات كانت تقول له إنها ستجيء صباحاً لتطمئن زوجته إلى أنه مجرد مشوار يخصها أو خدمة يسديها إليها. بينما عند أمي يظهر لؤمها، يبدأ تداعي الصديقات، تتصل بالواحدة

منهن لتقول لها، هكذا لمكايدة أمي: «اخرجي لنا للباب، نحن على بعد عشر دقائق» وتقول للأخرى كلاماً مشابهاً. وتزيد: «لا تنسي التنورة البامبي، قاسم يموت في هذا اللون» وللأخرى تقول: «الشارلستون الكحلي والبلوزة الـ. . .» طبعاً بامبي وشارلستون وشعر طاير و. . قلت إنه لم يجئ زمني؟ دعيني أصحح؟ لقد فات. هذه البلاد عرفت الشمس لبضع سنين، وما إن بدأت أتفتح عليها حتى غربت. ليس صحيحاً أنه لم يجئ زمني. الصحيح أنه فات.

بعد عودة أبي من القاهرة في ٨٢ تغيّرت معاملته. كنت حينها في الثالثة عشرة. شعرت به قبل غيري. طالني تغيّره قبل الجميع. ومع ذلك لم أصدق. كأنه اكتشف فجأة أن لديه أولاداً ذكوراً. سلّم إلى ولديه الكبيرين مقاليد حكم الحريم. هكذا فجأة. هو الذي لم يكن يسمح لهما أن يتنفسا. هو لم يتغيّر في هذه. في الواقع لم يزل لا يسمح لهما أن يتنفسا. لكن البنات أطلق أيديهما فيهن: لا تضيع بنات لهن إخوة أشداء. غير صحيح يا أبي، الصحيح أنه لا تضيع بنات إلا إذا كان لهن إخوة أشداء. ما بالك بأخوين ليسا أكثر من لحية تبحث عن مهمات ووظيفة، وعن مسرح تؤدي فيه وصلة الأمر بالمعروف والنهي عن الحياة. على الفور زُوِّجتْ سلوى. كان هذا حكم أمين، ذيّله بفتواه: «الزواج المبكر أستر للبنت يحفظ فرجها، ويكبح جماحها» يقصد: يقص كل أجنحتها. سلوى لم تكن قد أتمت الثانوية، ولن تتمّها، ولن تفرغ لشيء غير إنجاب الأطفال، ومطاردة زوجها في علاقاته خارج البيت. إلى اليوم لا عمل لها غير ذلك.

لم يتزوّج غيرها، ولم تكف هي عن قلق من أن يتزوج، لأن زوج نجوى لا يكف عن الزواج، لا يزور زوجته نجوى إلا كل بضعة أشهر ليدس جنيناً في أحشائها ويغادر. سلوى تقضي جل وقتها في تعلم الزينة والطبخ، ربما أجادت الطبخ، لكنها لم تجد يوماً رسم عينيها بالأيلاينر، أو حتى اختيار الروج المناسب لبشرتها أو حتى لثوبها. يوترها ذلك فتعكف على المجلات وبرامج التلفزيون المخصصة للمرأة، ولا تقنع بفشلها ولا تيأس. أو هي من الأساس يائسة وهذا ما يفعله اليائسون.

سامية اتخذت الخط المعاكس تماماً، وبفعل السوط نفسه الذي أطلق عشواء على البنات. تحولت إلى محض ألف مستقيمة، لا رغبات، لا مغامرات، ربما لا أسئلة من تلك التي تراود البنات. فقط دراستها. هكذا تحدّت السوط بألاّ تدع له مبرراً لضربها. لكن العصا جائعة. بنت تشبه الحمار الذي يعرف طريقه من أول مرة، ومع ذلك هناك من يقف خلفه رافعاً عصاه. لماذا؟ الحمار يسير في الطريق، ولا يعرف غيرها، ولا يشيح بوجهه عنها. ولا يرى العصا. أهذا هو ما يؤلم سائق الحمار؟

السوط نفسه سيفرض على نشوى الحجاب، بل الجلباب، لولا تدخل أبيها. يا إلهي، ما زال هذا الرجل يتذكرني! كنت قد شككت في ذلك. سيكتفي بالحجاب، وليرضي ولديه اللذين لن يلبثا أن يتطاولا حتى عليه، قرر أن يكون حجاباً مشدداً. لا تخرج من دون سيارة، سيارة أحد أخويها، إذاً فهي لا تخرج. المدرسة لها باص. ولإخوتها رأي: ألاّ تدرس، لكنه لم يفرض بعد. حين لم يستطع أمين إخراج البنات من المدرسة، صب

كامل إصراره على تغيير مكان دراستهن، المدرسة الأهلية مختلطة، ليذهبن إلى «مدرسة أروى»! حتى هذه لم يفلح فيها وخصوصاً مع نشوى، لم تذهب إلى «أروى»، إلا كما ذهب هو إلى «عبد الناصر» أي بعد الإعدادية. ما يخص التعليم؛ المدرسة وحتى معاهد اللغة التي كانت تتنقل فيها من معهد إلى آخر، في هذه فقط كان لا يزال لها بعض دلالها على أبيها، كما لم تزل لها بعض مهماتها في غرفته. تؤديها كمتقاعد طرد من الخدمة. ترتب له سريره وحجرته، ترد على اتصالات عشيقاته، وتحمل رسائلهن بأمانة، وخصوصاً المواعيد. مهمّات تقبل على أدائها إقبال المطرود من منصبه، وعنده أمل بأن يستعيد مكانته الأولى.

أبي لم يزهد ولم يتغير، حتى معي لم يتغير، لكن انتهت مهماتي، كنت مجرد مهمات، حينما انتهت؛ لم يعد لي عنده أية قيمة. الآن القيمة لأخويّ الكبيرين، حمّلهما الدور الذي كان يناط به هو، رعاية البيت. ليس مستعداً لأن يضيّع وقته على أشياء فارغة كشؤون البيت، وخصوصاً البنات. لقد ضاعت نجوى بسبب إهماله. عيّنَ من يقوم بمهماته ويضبط البيت. والحق أنه انضبط البيت، لم يعد بيتاً لأحد، حتى له. حتى شربه، مجاهرته بالشرب لم تعد إلا من قبيل المكابرة. في داخله كان يرتعد من ولديه، وخصوصاً أمين، كانت قوته وتسلطه ووقاحته في زيادة مستمرة. انقلب السحر على الساحر. كان يطلقهما في ماله وفي بيته، ليكونا قوة له، عصاه، عضده. أصبحا قوة عليه. هو أيضاً فات زمنه. إنه زمن هؤلاء، الواحد منهم يكون أمين أبيه، وفجأة بمجرد أن يطلق لحية يصبح لديه حق في مقارعة أبيه وتهديده.

شربت كثيراً، قالت لها سماح نواصل غداً. تلفتت إليها ثملة كأنما لتسألها هازئة: أما زلتِ هنا. «ياللا روَّحي!» وواصلت. سماح لا فرق الآن إن بقيت أو ذهبت، لكنها بقيت مكانها تصغي:

نشوى لم تعد نشوة أحد. يسألونها أين أنت، تجيب: في حجرة أبي. لكنها لم تكن في حجرة أبيها. أين كانت؟ في حجرات كثيرة، كثيرة جداً. أين؟ لا أعرف. لا أذكر أحداً، لم يكونوا أحداً، كانوا.. لا أدري.. كان هنالك قش وعطن، رائحة نتنة، فم ثاغر، ربما ضحكة بلا صوت، ضحكة واسعة، واسعة جداً، بلا وجه، فقط أسنان صدئة ويدان. نعم؛ هذه أتذكرها، كانت ثمة دائماً يدان تتسللان من تحت ثيابي. وأستغرب أحياناً لماذا التسلل وقد جئت بقدمي، وبقرار ألاّ أرجع. أقصد ألاّ أحمل معي شيئاً مما يحرسه إخوتي تحت ثيابي.

نجوى التي سافر بها أبي لتجهض، لم تزل تجهض. وأنا لا أفعل شيئاً، إنني لا أفعل شيئاً غير مرافقتها إلى بيوت أصدقائها. تماماً كما كنت أرافق صديقات أبي إلى حجرته. هذه المرة لم أخذلها. وحين كانت تُمنع من الخروج، كنت أجد لها طريقة لتخرج، وحين لا تجدي طريقتي؟ لا أجلس معها في البيت. أذهب بعيداً، بعيداً جداً، أرافق نشوى إلى حجرة أبيها.

٧

رجاء تحن إلى بيتهم. منذ الصباح وهي تفكر في بيتهم. حملت نفسها، وذهبت إلى زينب. طرقت الباب، لا أحد يرد.

زينب كانت في الداخل. لكنها اليوم قررت ألاّ تكلم أحداً غير الله. هكذا سيكون هذه السنة احتفالها بذكرى دخلة لم تحضرها، تلك التي حدثت نهار ٢٨/٩/ ٩١م. ستحتفل وحدها مع الله وبين يديه. حتى طارق الذي سيدير مفتاحه ويدخل متوقعاً أن تكون في استقباله لابسة ومتزينة ومبتسمة. سيدخل ليجدها قبالته تصلي. سيزعجه ذلك بعض الشيء، قد يزعجه كثيراً ويذهب مغاضباً ولا يعود إليها إلا بعد فترة العقوبة المعتادة، لكنها ستراضيه لاحقاً وتعتذر إليه. المشكلة لو أنه لم يذهب، لو أنه بقي ينتظرها إلى أن تفرغ من الصلاة، انتظاره سيحرجها ويشتتها عن الصلاة التي نذرتها اليوم لله، أما الصوم فلم تجرؤ أن تصوم، لأنها لم تستأذن زوجها أن تصوم اليوم. ليتها استأذنته.

طارق لم يغضب، على العكس، لقد داهمها حيث هي في السجادة. إنه حتى لم يداعبها كالعادة، بل اجتاحها من دون أية مقدمات. لم يمط من ثيابها إلا الموضع المخصص للإيلاج. أزاح كل ثيابها إلى الأعلى فغطت وجهها أيضاً، لم يرها، ولم تره. شيئاً فشيئاً لم تعد تسمعه. كان فحيحه يتصاعد، وشهوته تستعر كل دقيقة أعلى. لكنها لا تسمعه. في تلك الأثناء كانت لا ترى ولا تسمع شيئاً.

من فوره غادرها إلى الحمام، ليتطهر بغسل باهه. حين عاد رآها لم تزل على حالها تلك، لم تتحرك من مكانها، ولا ثيابها عادت إلى موضعها. عندها فكر أن ثمة مشكلة. لا يدري كيف سيكون شكل عتابها، قد تبكي، قد تقول كلاماً سخيفاً. لا يريد أن يدري. ثلاثة أيام أو ستة تحل المشكلة. استدار ليغادر.

لا مشكلة. أين هي المشكلة. لقد اعتاد أن يدخل على زوجته «بشرى» هكذا لسنين، ولا مشكلة. لم يكن من مشكلة عندها إلا حين توقف هو عن هذه العادة. أصبحت تنهض من الفراش، وقد شرعت في النوم، لتتوضأ وتصلي. وفي رمضان كان يغيب طوال اليوم كي لا ينجرح صيامه بإتيانها. لكن في صيام النوافل كان يداهمها وقد استأذنته أن تصوم، إلا أنه كان يجيئها في سجادتها، في سجودها. وكان دخوله عليها لا يقطع صلاتها ولا صيامها. استفتتْ وقيل لها جمعت بين الطاعتين، الله وزوجك! ما دام قد جاءك اغتصاباً فلا تثريب عليك، والمهم النيّة، اعقدي النية على الطاعة بارك الله فيك. عقدتها، كان الاغتصاب سمة ذلك الزواج. علاقة ملتبسة غير واضح فيها من الغاصب ومن المغتصب. طوال الوقت كنت هذا الرجل الذي لا يقطع صلاةً ولا صياماً.

زينب على حالها تلك منذ ساعات، ربما منذ سنين، نصفٌ محجوبٌ ونصفٌ مسفوح. امرأة في العراء لا شيء يسترها، لا أحد يقف بينها وبين أن تهتك حتى الله.

يوم، يومان، ثلاثة، دخل طارق ليجدها على تلك الحال نفسها. صعق، تسمّر، ما الذي حدث لكل هذا؟ لم تأكل، لم تشرب، لم تذهب إلى الحمام، لماذا؟

هو لم يعرف لماذا، ولن يعرف. إنه حتى لم يسألها، كيف هتكت أول مرة، لم يكن يعنيه.

يكلمها ولا ترد عليه، كثير هذا على كرامته. ثم إن الكلام لا يجدي، وهو لا يجيده. فكر بـ«سلس ذهب» فاخر وغال. هذه

طرق الرجال الذين لا يجيدون العبث برؤوس النساء. خرج مسرعاً وعاد بالهدية. طوّقها بسلس الذهب، حيث هي ممدّدة منذ أيام. لم تقل شيئاً. نهض بها وأجلسها. لا مناص من الاعتذار. لكن كيف هو الاعتذار؟ لم يحدث طوال حياته أن اعتذر لأحد أياً يكن، اللهم لأبيه، كان يرغمه على قول: أنا آسف! من دون أن يكون قد فعل شيئاً. أخذ وقتاً كي ينسى هذه الكلمة. لسنوات ظلت تخرج من فمه من دون سبب. في مواضع لا أحد يأسف فيها. في مواضع فيها أسف لكن ليس منك. المفترض أنه لك، عليك، أن أحداً آخر كان ينبغي أن يقولها لك: أنا آسف. قال كلاماً كثيراً، لم ترد عليه زينب، لم تسمعه. لا تزال كما غادرها أول الأمر، على ما هي عليه من السكوت. خرج من الشقة، كان يُخرج ذلك الكلام الكثير الذي لا مكان له في هذه الشقة.

قاربت السادسة لم يذهب إلى المكتب، ولم يذق الغداء. وجهته إلى ندى واضح أنها إلى مشكلة آن أن يحسمها. سيجعل يومها هذا آخر يوم تُخَزِّن فيه، أو تفكر فيه مجرد تفكير بالقات. إنه يبحث عن مسرح لصياحه الذي يتصاعد من داخله. يتدافع كأن من حفرة على بعد سنين. لم يجدها تمضغ القات. ولم تكن بثيابها شبه العارية لينفعل ويكسر. كانت جالسة إلى مجلة تتصفحها، مرتدية بنطالاً وبلوزة ساترين. صاح بها لتنهض إلى الصلاة. قالت له «بطلت!» أخيراً وجد سبباً وأي سبب. لكنها أخرسته بعد جملة واحدة، حين ذكرته بفعلته معها ذات مرة منذ شهر، لقد داهمها هكذا كما فعل مع زينب. فحلت إشكالها مع الصلاة. إنها منذ شهر لا تصلي. وطبعاً لن يستطيع أن يشكوها

إلى أهلها. رجل يأتي زوجته في صلاتها، ثم يطلب من أهلها أن يرغموها على الصلاة، كيف هذا!؟

هؤلاء النساء سيجنّنه، حاجّة تستجدي اغتصابه، وقحبة يجرح كرامتها إن اغتصبها زوجها، وهذه الـ. . لقد كانت تحته في السجادة تتضاحك وتشتعل وتتأوه، اليوم أصبحت لها الحجة.

خرج، لن يذهب إلى بشرى. مع أنها المكان الذي يحج إليه، إذا ما أراد أن يبكي. عاد إلى زينب، قضى معها فترة حداد كل على نفسه.

اثنان ثالثهما السكوت. هو كان يقلب التلفزيون، أما هي فلا شيء تقلبه، حتى ذاكرتها خرست. في اليوم الخامس نهضت من فراشها لتصلي. في اليوم السادس طبخت. لا شهية لها لكن زوجها موجود وعليها أن تطبخ طعامه. في اليوم السابع تمددت له. نوع من غفران، رأت فيه نفسها قد بالغت في عقاب زوج على جريمة ليس أول من ارتكبها. الجريمة الأساس هي التي آذتها، أما هو فمسكين. جرائم لم يعرف بوقوعها. لم يعرف؟ أم لم يكترث؟

كان فرحه لا يوصف بمضاجعته لها، ليس لأنها أثارته، على العكس لم تكن مثيرة بالمرة. مضاجعته كانت نوعاً من شكر، لأنها أنهت المشكلة. كان دائماً يتجنّب المشكلات، ليس خوفاً من أحد أو على أحد، بل لأنه لم يكن هو الذي يتصدر حل المشكلة. كل مرة كان لا بد من تدخل أحد بالحل. حتى لو كان هو الذي فكر وتوصل إلى الحل. دائماً ثمة أحد، بل لا بد من هذا الواحد ليعلن الحل ويصر عليه.

في طلاقه لندى، كان يكفي أن يذهب إلى أهلها، ويصطحب زوجته عائداً، بمجرد أن يقول لهم إن الطلاق وقع على «جماع». الطلاق على جماع باطل. يكفي أن يقول لهم هكذا، ليس طلاقاً. لكنه اضطر إلى وسيط يتدخل.

جيد أنه كان ثمة وسيط، لقد حال بينه وبين فضيحة، لا تليق بمتديّن مثله:

– قل لهم الطلاق باطل لأنه وقع على «جماع»، وأيضاً على حيض، كان عندها الدورة. وكلا السببين يبطلان الطلاق.

– يا سلام! أقول لهم كلا السببين يبطلان الطلاق، يا فقيه، يا متعلم!

– .....

– مجرد أن أقول لهم إنك جامعتها وعندها الدورة، يعدمونك!

– بس هي كانت .. يعني.. هي اللي...

– يفرغوا الباقي من الرصاص في راسك. بنتهم صغيرة ما تفهمش هذه القضايا وانت استغليتها.. والآن أنت تفضح بها! فيه رجل يقول هي اللي...؟ عيب!

...

انتهى من شكره ذاك لزينب. كان أسوأ أداء منذ أول مرة عاشرها إلى اليوم. شرع يبرر لها، ربتت عليه. لا يحب هذا النوع من العطف! لم يكن يوماً إلا فحلاً، ولن يكون إلا فحلاً!

هي شاكرة له، لأنه طوال الأيام الأخيرة لم يغادرها لمجرد أنها متعبة. بل لم يغادر البيت حتى إلى عمله. يبدو أنها بالغت

في تأنيبه. شاءت الأقدار ألاّ يحدث هذا، إلا ذلك اليوم. ربما لو حدث يوماً آخر لما كان الحدث كبيراً. لكن ذلك اليوم اختارت أن تكون مع الله، بين يديه وحده، تحمده وتسأله أن يشفي جراحها. بدا كأنه جلّ وعلا يركلها بقدمه، ويقصيها عنه. فجأة أعاد الحدث نفسه، ليس في شريط مصور بالصوت والصورة، بل الحدث نفسه بواقعة حية. أيّ رد هذا يا ربي.

٨

الكلام بينهما شبه مقطوع!

ارتدت ثوباً رقيقاً وجلست أمام المرآة، صففت شعرها، وضعت ماكياجاً رقيقاً من دون كريم أساس ولا بودرة. أعادت إصبع الروج إلى موضعه وهي تتأمل في المرآة ذوبانه في شفتيها. إنها تعرف أنه روج تقليد، إلا أن انسيابه يشبه سكبة شانيل، يشبه الوردة الذائبة كما كان يسمّيها مايكل. هزت رأسها بعنف؛ تريد أن تتخلص من هذه الذاكرة المحمّلة برجال الحرام وسنوات الحرام. همّت بأن تمسح شفتيها لكنها عدلت عن ذلك. كانت أياماً صعبة، هذه التي مرت عليها وعلى زوجها. لا يزال ثقلها يلقي بظله عليهما معاً. نقلت يدها في قوارير العطور، كلها تقليد عطور. امتدت يدها إلى قارورة "Touch of Pink". لقد فرغت عن آخرها، ومع ذلك استعملتها، وشمّت، الله.. هذا لا يعني أنها رشت الهواء الخارج من القارورة خالصاً. كانت قد بقيت قطرة تكفي لتفرح قلب زوجها. وهي تغادر باتجاهه التفتت إلى

القارورة، لماذا لا يشتري واحدة جديدة من نفس الماركة، ما دامت أعجبته! حملتها معها إليه.

لم يلتفت بعد ليرى زينتها. لقد قضت أمام المرآة وقتاً غير قليل لأجله. لم تيأس، جلست قبالته، لصقه، الآن سيشم الرائحة، إنها نفسها التي دوّخته لأيام. لم يشم، لم يلتفت. ناولته الفارغة، أخذها منها ووضعها جواره لكن في سلة المهملات. لم تفهم شيئاً. هو مشغول بالتلفزيون يقلبه بحثاً عن شيء لا تدري ما هو، ولا هو يدري. ألقى بالريموت. ملل.

في اليوم التالي اشترى أفخم ما في السوق من مسجل كاسيت، ومجموعة كاسيتات راقصة. لو كان مدرب رقص هو الذي اشتراها لاحتاج إلى وقت كي يجمعها. ارقصي قال لها. لم تتحرك. هي لا تفهم شيئاً. لم تعد تفهم هذا الرجل بالمرة. لكن هل فهمته من قبل!؟ صاح بها، قال كلاماً غريباً، لم ترقص. لم تستطع أن ترقص. حتى حين حاولت، تحت ضغط من إلحاحه، وقبل أن يصيح على ذلك النحو، لم تستطع. كان جسمها قطعة خشب لا تتحرك.

وفي الفراش أيضاً كان جسمها خشباً بارداً، وأحد يقطعه ويتقطع فوقه.

٩

هو أيضاً متعب، يجز ذيل الخيبة. ستربّته هذه المرة أيضاً؟ لن يقبل هذا! لقد وصل إلى الحال التي كان قد بلغها مع زوجته

الأولى، بشرى التي هجر فراشها منذ وقت بعيد. فلم يعد إليه إلا بضع ليالٍ قبل زواجه من زينب. كان قد أصبح شعوره بها، أقرب إلى شعور الواحد بأمه. يندسّ في فراشها كما يفعل أولادها. وحين يكون متعباً أو مهموماً فإنه يذهب إليها. ذهابه إليها هو ذهاب إلى أم أولاده، أما الزوجة فقد أتعبته نظراتها، حيرة، وأسئلة، وشكاً.

بشرى ليست كأمه. لا أحد كأمه واصطبارها وطهرها وفضيلتها. بشرى طاهرة، لكنها لا تشبه أمه. إنها شرهة ونهمة وجائعة مثلها مثل النساء اللواتي كن يسرقن أباه. يسرقنه فحولة ومالاً وسمعة. يسرقن حق أمه في زوجها المسرف.

هو لم يكن مبذراً. لم يحدث أن عاشر امرأة ليست زوجته. حتى التي ظل يستمني على جلبابها لسنين، كانت زوجته لكنه لا يعرف. تزوجته في نومها، في اليقظة ذهب أبوها ليحضره إليها.

لم يكن يوماً خارجاً عن طاعة الله. لم يقطع فرضاً، حتى قبل أن يخترعوا هذا الدين الجديد. لم يذق قطرة خمر في حياته، حتى السجائر لم يقربها. ما الذي فعله ليعاقبه الله في فحولته!

واقف قبالة المرآة، لن يستطيع أن يحلقها. إنها في وجهه منذ ١٥ عاماً. ذقنه هذه زوَّجته مرةً، ومثنى، وثلاثاً. ضحك بمرارة. أليس غريباً هذا. كل زيجاته كانت بسبب اللحية. والد بشرى لم يكن يلتفت إليه، على الرغم من أنهما يصليان في الجامع نفسه. ما إن أطلق لحيته حتى أصبح مكانه في الصلاة إلى جواره. وبعد الصلاة يفسح له مكانه في الحلقة ليحاضر بدلاً

منه. وحين يتلعثم لأنه باختصار لا يجيد أن يحاضر، يسمّي تلعثمه تواضع الأبرار وإجلالهم لمن هو أكبر منهم سناً. مثل هذا نخفض له جناح الذل من الرحمة، لمَ لا؟ هذه وردت في سعة صدر الأبناء على آبائهم حين يشيخون ويبلغ بهم الكبر عتياً. وتقال وفي قولها خير هنا، حينما الأبناء يحتاجون إلى أن نأخذهم بجناح عطفنا. انهض يا طارق بارك الله فيك!

وفي الجامع أيضاً تزوجتُ ندى. هذه بالتحديد لولا اللحية لما تزوجتها، لأن أباها من القبائل المتشدّدة في قضايا النسب. لكنه لم يزوّجني. لقد زوج اللحية. لتوّي كنت تسلمت مهمات الجامع بدلاً من أمين. ربما لم يمض أسبوع حتى كان ذاك المساء، كنت أفتي فيمن أفتي، وأرد على أسئلة السائلين بعد صلاة العشاء، جاء يستفتيني. استغربت؛ رجل بسنه يسأل عن أشياء، مسائل يعرفها أولاد الحارة. كان لا يستفتي، كان يتفحصني. عرفت هذا في ما بعد، في الخطوبة. كان اسمي قد وضع في قائمة اختباره. قبل أن أعرف أنه الرجل الذي سأناسبه. في ما بعد، بعده جاء دوري لأعرف من هو الرجل الذي سأضعه في قائمة اختياري للنسب الجديد. حينما دخلت بيته وفور أن رأيته تذكرته. إنه رجل الجامع المسنّ نفسه الذي كان يتأملني ويبتسم. كأنما يتأمل بضاعة أعجبتْه.

فور رأيته عجبت في سري: هل لا يريد لي الله أن أتزوج إلا حاجّة! ليست حاجّة، قال وسيط الخطوبة، إنها بنت صغيرة لا يطمئن عليها أبوها بزواجها من طائش، يريد لها رجلاً يخاف الله.

أنا أخاف الله. ما الذي أفعله ينافي ذلك. فلماذا يزوجني الله ببنت لا تخاف الله، ولا أهلها يخافون الله. كلما جئت لأربيها حملوا بنادقهم وداهموا بيتي وأذلوني.

وقعت يده عن رف المرآة: زينب تزوّجتها من نفسها، ومع ذلك زينب تزوّجت اللحية وحولت بيتي إلى جامع.

سأل زينب عن لحيته، قالت جملة واحدة لم تزد عليها، اللهم إلا ما هو تكرار لها: على عيني وراسي. عندها حق، ليس فقط عينها ورأسها، إنها المنارة التي تسرج لها هذا الجامع. وأنت يا بشرى؟ يعرف رأيها، كان يظن أنه يعرفه، لكنها صدمته وهي تقول له إنها مهمة كصلاته وصيامه، إنها مظهره بين الناس واحترامه، عجيب! العجيب أن يجيء هذا الرأي من بشرى تحديداً. لكنها تدافع عن رأيها. قالت: الله يرانا عراة فلماذا نلبس؟ لأن الله يأمرنا بالستر. الستر ممن والله يرانا؟ من الناس. والشيء الآخر في هذا: أن الناس لهم المظهر. لا يخبرونك كما يخبرك الله سبحانه وتعالى. لهذا فإنهم يقيمون أحكامهم بناءً على مظهرك. يطمئنون إليك حين يرونك تخاف الله وتلزم هدايته. كيف سيرون ذلك إلا في ظاهرك. ظاهرك الذي هو لبسك وذهابك إلى الجامع وغيره من الأشياء الظاهرة للناس. وأنت بالذات محتاج إلى احترام الناس ومهابتهم، لأنك تاجر وعندك بضاعة. سيهرب الناس منك ولن يصدقوا أنك تبيع لهم بما يرضي الله، لن يصدقوا أنك تخاف الله فيهم.

أما الصدمة الفعلية فجاءت من ندى، قالت له: بصراحة، ومن غير زعل فيك شيئين تعودت عليك بهم. الاثنين أصبحوا

جزءاً منك، ومن هذا اللي تسميه الجماع. الأول لحيتك، أسمعها تخشخش فوقي من رقبيتي لا.ا.ا..ا أنت عارف أين. فأصبحت جزء من لذتي.

– اختصري يا...

– الثاني

– أيوة..

– ومن غير زعل؟ رائحة فمك الكريهة!

صفعة لكن بيد وسخة، لو قيلت من غيرها لهانت. لكن هل تملك غيرها هذه الوقاحة. وتقول لك جزء من لذتي وتشرح وتفصّل. قال لك تزوجتها في جامع، هذه كانت في كباريه. وأبوها كان لازم يروح يدور لها زوج في السجن المركزي، مش في جامع.

* * *

لم يزل ينتهج العدل بين الزوجات. الأيام الثلاثة المقررة لكل زوجة منهن، لا يزيد ولا ينقص. لم يحدث أن كان بهذا العدل أبداً. ثلاث ليال يندس في فراش الواحدة منهن، طوال الليل لا يتحرك فيه ساكن.

من دون تخطيط مسبق وجد نفسه يتجه صوب وزارة الأوقاف والإرشاد، قدّم اعتذاره عن سدانة الجامع. لا خطبة جمعة ولا إمامة صلاة ولا محاضرات ولا فتاوى. بدأ يصلي في جامع آخر في الحي نفسه. وأخيراً أصبحت معظم صلواته في البيت.

بمجرد أن خطت رجاء عتبة بيت صديقتها، ارتمت الصديقة على صدرها. انهمر دمعها غزيراً. شعرت بالقلق على زينب، ما الذي حدث!

لم تعرف زينب ما الذي تقوله، كانت تشكو، تتدافع شكواها، لا تنتظم ولا تترتب ولا تقف عند حد. كانت تقول كل شيء دفعة واحدة، كل الذي حدث لها. ما الذي حدث؟ تصطبر عليها رجاء، تهدئ من روعها لتتكلم على مهل وتسترسل. زينب فعلاً لا تعرف ما الذي حدث. لزوجها تبدلات غريبة الأطوار ومتسارعة ومرعبة! كانت تظن أن خبرتها للسنوات الماضية، تؤهلها للتعامل مع أي رجل. لكن هذا ليس أي رجل. تصوري ما الذي قاله لي لأنني لم أستطع أن أرقص، كنت فعلاً لا أقدر أن أرقص، لم أكن أكذب عليه أو أدعي ذلك، صاح في وجهي: «أنا عندي حاجة في البيت، لمّا تزوجتش، ماكنش عن رغبة إني أضيف حاجة لحياتي! ولو كنت أشتي حاجة كنت أعرف من أين أجيء بها!» ما كان قصده يا رجاء؟ كان ب يعيرني، مش هكذا!؟

– كان يشتي ترقصي له.. لا عيب ولا حرام! لا يتعارض مع الدين يا زينب انه ترقصي!

– ماشتيش فتاوى جديدة، الكل يفتي، ولا أحد يشعر بي! ما حرّمت شيء. كان صعب أني أرقص. ماقدرش جسمي هذا الذي أسأل الله أن يخلي أثره من الوجود. كان جامد لا يسمع ولا يعقل، مافعل.. ماهو اللي أستطيعه!؟

قبل أن تشرع رجاء بالرد كان طارق يفتح الباب.

مجيئه في وجودها! الموقف حرج للغاية، لكن عند رجاء فقط. زينب لم تكن محرجة، لوحة الممنوعات الإلكترونية التي في رأسها معطلة. لم تعد تعرف ما هو الممنوع بالضبط. دخلت رجاء في جلبابها ونقابها، مستغربة لماذا لا يدخل حجرته، كما يفعل رجال العائلات المحترمة. كما يفعل كل رجال صنعاء، يهرولون تلقائياً إلى غرف غير تلك التي رأوا فيها ضيوفاً لزوجاتهم! لم يهرول، بل أكثر من ذلك؛ اقترب من الضيفة، هل سيسلم عليها مصافحة! ولحيته!؟ رحب بها ولم يصافح. كانت أول مرة يرى ضيفة زينب. لا بد من أنها ليست أول مرة تجيء. لم يسأل طبعاً. إنه مؤدب ويحترم الضيوف ويجلس معهم! هذه أيضاً مستبعدة في التقاليد. رجاء مستغربة، أما زينب فلم تعد تستغرب شيئاً. نهضت رجاء تستأذن بالمغادرة، لا حل آخر. كانت ستغادر أيضاً لو أنه دخل إلى حجرته. هل كان بهذا يتعمد طردها. يبدو فعلاً أنه رجل غريب الأطوار. حتى تعابير وجهه. ألقت عليه نظرة أخيرة وهي تشرع بالمغادرة، تعابير ليست بالتلقائية، ولا المتكلفة، ولا تشف عن شيء، ربما هو نفسه لا يملك تفسيراً لها، ولا يقصد بها أي شيء.

بدلاً من زوجته ربما، بادر بالعبارة المعتادة التي تقال عند مغادرة ضيف، لا يزال الوقت مبكراً، أو ابقي للغداء معنا. قال شيئاً كهذا، لا يقصده، ولا يقصد غيره.

* * *

ندى كفت عن البحث عن قنينتها الأثيرة "Lacost Touch of Pink". منذ مدة طويلة لا تكف عن البحث عنها. قلبت

التسريحة، الكمودينات، الدولاب، حتى السرير فتشت حواليه، لا بد أوقعتها الشغالة، من دون أن تشعر، من رف التسريحة إلى سلة المهملات. تهددت حتى الشغالة التي لا تدخل هذه الحجرة. غير مرة عادت إلى قواريرها المرصوصة، نبشتها، شككت فيها قد تكون واحدة منها. تفحصتها جميعاً. إنها تشك في نفسها، لا بد من أنها أوقعتها من دون أن تشعر في سلة المهملات.

احتاجت إلى وقت كي تصل إلى هذه النتيجة. هذا الرجل وقع منه شيء، لا يدري في أية سلة. كم من الوقت يلزم كي تدرك هذا. يعاملها ببرود طوال الوقت. لم يعد حتى يتشاجر معها، ولا يكترث لخروجها، ولا لقاتها، ولا لثيابها التي يسمّيها عارية، ولا لصلاتها. عادت إلى الصلاة، لم يكترث، تركتها مجدداً لم يتنبه. غيّرت حجرة نومها، لم يكترث، بعد أيام عادت إلى حجرة نومهما، فما كان منه إلا أن غيّر الحجرة.

١١

حدود الساعة الحادية عشرة صباحاً، وجدت زينب زوجها يشدّها من يدها، يخرج بها من المطبخ، تقول له: الطبيخ على النار. لا يرد. وأخيراً حل لها مشكلة انشغالها بالطبيخ بأن أغلق أنبوبة الغاز. لا بد ثمة مشكلة كبيرة، وجهه يقول ذلك.

أجلسها في الصالة، وجلس معها على نفس الكنبة. سحب إليه كيساً بلاستيكياً، وضعه على حجره وبدأ يخرج محتوياته

ويضعها أمامها تباعاً على الكنبة: عسل، حبة سوداء، فياغرا. انتهى من ذلك ليربع ساعديه وذراعيه، ويرقبها ساكتاً. لم تفهم شيئاً، ولم تسأله. فقط سارعت بنقل تلك الأشياء من الكنبة إلى الطاولة الزجاجية أمامهما. كي لا تتسخ الكنبة.

تكلم؛ كل هذا لا يجدي قال لها، من دون تشجيعك لي لا فائدة ترجى من كل هذا. لم تفهم. أو هي فهمت لكنها لم تدر ما الذي تقوله له. أخذها إلى السرير للتطبيق الفوري. بعد أن أتم «تطبيقه» سألها: كيف؟ قالت له: أحسنت! تشجعه. أخرج من جيبه بضع أوراق نقدية ووضعها في يدها. لم تفهم. شرح لها، إنه نوع من رصد، كلما أدى أفضل، دفع أكثر. نوع من دفع بالحالة للتحسن.

فعل، وقال ما لديه، وغادر. لم ينتظر تعليقها. في الواقع، هي كانت ساكتة حين نهض. غسل باهه يتطهر وعاد إلى الغرفة، لبس سرواله وكوته ومضى إلى حال سبيله.

اليوم التالي في الموعد نفسه فعل الأمر نفسه. لم يسألها كيف، نقدها المال من دون أن يزيد، لأنه يعرف؛ لم يحدث تحسّن يذكر. أوقفته قبل أن يذهب إلى الحمام ليشرح ما يحدث. نهض، الطهارة تقتضي أن يغسل باهه فوراً. لم يشرح. ما الذي يشرحه، لا كلام يضيفه على ما قاله البارحة.

سمعت الباب الخارجي يصفق، كما لو أن زبوناً أغلقه ماضياً إلى حال سبيله. اتصلت برجاء. كانت هذه أول مرة تطلب مجيئها منذ تزوجت. تريد شرحاً لما يحدث.

رجاء لم تشرح شيئاً. ما الذي تقوله لها؟ جارح أن تقول لها

إنها منذ البداية لم تر في هذه العلاقة زواجاً، ولا في هذا الرجل زوجاً. منذ البداية. اليوم كبرت المشكلة. صديقتها مصرة على أنها زوجة، وأن ما يحدث معها غريب. طبعاً غريب إذا كانت زوجة. لكنها ليست كذلك إلا في تصورها هي. هذه هي المشكلة؛ كيف تخرج شخصاً من صورة. وإن نجحت بإخراجها، تخرجها إلى أين؟

صديقتها تنتظر كلاماً شافياً. فكرت ملياً قبل أن تجيب، هنالك أمور يصعب الكشف عنها، ما لم يكن صاحبها قادراً على رؤيتها. تكلمت كما يتكلم السادة «س» (بعض عشاقها المترفين) لحل قضايا الوطن والأمة:

— مش عارفة أيش يقصد زوجش. وعموماً مهما يكن قصده فهو في حدود بحثه عن متعة أكبر. وشرعية.

— يعني تزوجني مش لشي غير خبرتي السابقة و...

قاطعتها رجاء كأنما وجدت حلاً، أو أنها خشيت تداعي صديقتها:

— اسمعي عندي مقترح. لكن اسمحي لي أقول لش أولاً: فيه زوجات كثير يأخذين فلوس من أزواجهن في السرير، أو بسببه، يعني زيما ناخذها إحنا باختصار. سواء بطلب منهن أو من أزواجهن. ما تفرقش إذا كان فيه قبول من الطرفين.

سكتت تفكر في صياغة للمقترح، مطلوب موقف جدي من طارق إزاء هذا الزواج. لتصبح هذه المرأة زوجته رسمياً، عندها يسهل إقناعها بتحمّل وتقبّل وإشباع رغبات زوج غريب الأطوار.

طال سكوتها، استعجلتها زينب:

– وبعيدين؟ أين المقترح!

– ممكن أتكلم مع طارق، مع زوجش؟

– كلميني أنا. . كلميني الآن أيش في ذهنش ما هو المقترح؟

– هو مش مقترح بس كنت أفكر أتكلم معه عشان أعرف بأيش أنصح!

لم يقنعها رد صديقتها. ذهبت إلى المطبخ. لحقت بها رجاء تساعدها في المطبخ، وتطرق الموضوع من زوايا جديدة. سألتها «انت ليش معترضة على الفلوس؟» لا رد، كررت السؤال. زينب لا تلتفت إليها. هيّأت صحوناً للأكل وملاعق، وضعتها جانباً ريثما تحمل الطعام إلى المائدة. وضعت أواني الطعام على طبق سيرفس وخرجت به. تبعتها رجاء بالصحون والملاعق. مطلوب حلول. . خدمات بهذه البساطة، بساطة المساعدة في تحضير مائدة غداء. على الغداء سألتها مجدداً: «أنت أيش أسوأ الاحتمالات عندش للوضع الراهن بينكم!» زينب لا تتكلم! طرحت رجاء سؤلاً كأنه الأخير: «طيب! إذا رفضت رغباته فكرت أيش النتيجة؟» ألقت عليها زينب نظرة، كأنما هي طبق تكسره في رأس صديقتها. مبكر هذا الذي تبحث فيه رجاء. ليس مبكراً، لكنه تجاوز جرحها، تريد أن تعرف ما الذي يحدث لها الآن، ما هو الحاصل؟ لماذا؟

لم تضف شيئاً على سؤالها ذاك. امتد بينهما سكوت أخاف رجاء فقطعته:

– طيب خلينا في اللي احنا فيه، ما أجرمش الرجّال، ادى (أعطى) لش فلوس أيش فيها؟

– وقبلها ادى لي ماكياج، وعطور، وستريو وشرائط رقص وملابس عارية، باختصار ادالي شغل. فهم أنه ما اشتغلتش لأنه ما خذتش فلوس ما رضيتش أشتغل بلقمتي فرفع الأجر!

– كل هذا الذي اداه هو من حق أي زوجة. وحتى من حقه أنه يقول لش البسي، وارقصي، واخلسي.. إلى آخره ما هي المشكلة؟

– المشكلة انه تزوجني قحر.. مش انسانة تابت مثلما كنت أظن.

– هذه مش مشكلة. تزوجش انسانة عندها خبرة تمارسها معه بالحلال. أيش كنت تشتي الله يرسل لش مندوب يتسلم توبتش واستقالتش عن الحياة. فليش إذاً تزوجت!

– هذا الكلام الذي طالما قاله وكرره علي.

كأنها أعجبتها هذه النهاية. لنقف هنا، قال لسان الحال. «كلي!» قالت لصديقتها. كأنها لم تكن تأكل من قبل. حتى هي بدأت بالأكل من جديد.

١٢

في النهار الثالث جاء، سألته لماذا هذا التوقيت. هز كتفيه مبتسماً. فعلاً، ليش! أجيء مساءً؟ لكن اشتي سهرة تليق بموعد وعدته. وكان.

مساءً، شهق. . . لم ير أجمل من هذا حتى في حلم. الصحيح؛ لم يحدث أن حلم بهذا، ولا بغيره، لا أقل، لا أكثر.

ماكياجها كثيف، ليس برقة تلك المرة. بالنسبة إليه هذا الماكياج المتعمد الكثافة أعجبه. ولأنه لم يخبر قمصان النوم النسائية، لم يلحظ أن هذا القميص الذي تلبسه الآن، هو بحسب موديله من دون قطع داخلية. لكنها تلبس له قطعة داخلية. لم يكتشف غشها هذه الليلة. سألها عن الرائحة، أطاحه عطرها، هل هي جديدة؟ لم يشمّها من قبل! صدمه ردّها إنها من أرخص العطور، لكن هذا ما وجدته في المحل يوم تسوّقهما تلك المرة. أضافت أن هذا العطر أوشك أن ينتهي لكثرة ما استعملته. قبل أن ينزعج لذلك، مدّت له بقائمة «برفانات» جديدة، يرسل بطلبها من باريس. رده كان شهقة فرح: فوراً، وبالدي إتش إل!

ترقص، وهو جاثٍ على مستوى أهبط قليلاً من ركبتيها. يرتفع ويهبط معهما، ويصفق. هذا المشهد وحتى هذا الرجل، يشبه صلاح منصور في فيلم الزوجة الثانية. هي في المشهد نفسه، تشبه ميتة نهضت بها الملائكة لاستجوابها: ما الذي كانت تفعله في الدنيا.

يوم الحشر، الناس يبعثون على الشاكلة نفسها التي ماتوا وهم عليها. هل إذا ماتوا في أثناء الرقص، يحشرون وهم في أثناء الرقص؟ بقي أن تسأل متى ماتت؟ وكيف؟ لم تعد تتذكر إلا أنها ذات يوم تابت. هل لم يقبل الله توبتها. رجع بها اليوم إلى ما قبل التوبة بأكثر من عام، إلى ما قبل ١٢/١ بشهور.

١٣

طارق في أيامه الأولى مع هذه المرأة الجديدة القديمة، بدا في أوج نشاطه. حتى عمله شهد نقلة في اهتمامه، وأدائه. حتى زوجته «بشرى» وجدت زوجاً بعد كل تلك القطيعة. وأولاده عاد يهتم بهم كما كان قبل بضع سنين. بيته الذي فيه ندى لم يعد يزوره. عند وفاة والدها قام بواجبه كاملاً. في اليوم الحادي عشر للعزاء خيّره إخوتها أن يقيم مع زوجته عندهم، أو يصطحبها معه. صحبها إلى بيته.

لكن لم تلبث أن تراجعت الحال في الأسابيع التالية. بدأ كل شيء بالتراجع بالتدريج. زينب، أداؤها، نشاطه، عمله، بيت زوجته الأولى، أولادها...

لم تعد زينب تخرج من حجرتها، ولا حتى للوضوء والصلاة. هو في حجرة أخرى. يصلي ولا يصلي. لكنه سيجد حلاً. طلب لها صديقتها وغادر هو إلى بيت آخر.

١٤

جالسة عند رأس صديقتها المسجاة كمريض، كشخص ولد وعاش مريضاً. ترتب لها قراراتها. القرارات التي لا تتخذ، لغد لا يجيء.

رجاء كانت قد قطعت شوطاً في قرار تعلمها للكمبيوتر، واللغة الإنكليزية، وحتى التحاقها بالتعليم ومواصلتها الدراسة. لكن قطع كل ذلك انتقالها إلى تمريض صديقتها. لم تستطع

تركها وحدها فريسة المرض. كان انقطاع زينب عن الطعام والشراب قد جعل من جسمها جزءاً يصعب تمييزه عما حوله من ثياب مهملة وأغطية. وحتى أطعمة السوق التي تتراكم حولها، من دون أن تكون يد قد لامستها. كانت قد أصبحت جزءاً من عفن قديم لا يكترث له أحد. لم يفطن طارق في كل ذلك لأن يجيء بخادمة تخفف قليلاً من وطأة ما تراكم من مخلفات، مثلما لم يخطر له أن يصطحب زينب إلى أقرب عيادة أو مستشفى أو أن يحضر لها طبيباً. كان قد أصبح هو الآخر جزءاً من هذه الهالة المرضية التي تنتاب هذا البيت. كلف أحداً بإحضار الطعام يومياً في حصتين؛ إحداهما تتراكم في غرفة مجاورة، غرفة لا يدخلها.

لا أحد يعرف ولا هي سألته، كيف خطر له تلك الليلة أن يهاتفها. ومن أين جاء برقمها، السري، الخاص جداً. فجأة كان صوت يصب في أذنها خبر احتضار صديقتها، لتحضر فوراً. قطعت ليلتها تلك، الصحيح؛ قطعت على أحدهم ليلته المدفوعة الأجر. وهرعت من فورها إلى زينب.

ما إن فتح لها طارق الباب، حتى صبّ على وجهها نظرات ذاهلة وغير مفهومة. كانت داخل جلبابها وخلف نقابها. كانت مستورة، لكن نظراته قالت عكس ذلك. في الواقع، كانت كتلة سواد تنفذ منها رائحة الخمرة. لم تكن قد أفرطت في الشراب إلى تلك الدرجة التي تفضحها. لكن طارق ليس بالرجل الذي تلتبس عليه تلك الرائحة. حتى لو كانت تحت ركام من روائح كثيرة ومتداخلة. من كتلة السواد تلك كانت تنبعث روائح سجائر، دبق رجل، شبق امرأة، برفان بائت وعَرِق. بين كل

ذلك نفذت إليه رائحة الخمر. لم يكن بوسع رائحة خمر أن تخفى عليه، أو تلتبس، أو تتنكر. إنها أول ما تعرف إليه من روائح. ولو لم يُقل له اسمها صراحة إلا بعد أن كانت قد أصبحت جزءاً من ذاكرته الشمّية. إنها الرائحة التي عاش معها تحت سقف واحد. وكانت لها الأولوية والسبق في حضن أبيه.

ما إن بدأ يدرك، ويسأل، حتى بدأت المسافة تتسع. بدأت الأيادي تبعده عن حضن أبيه. لماذا يهرعون لإبعاده، وإغلاق حجرة الأب. إنه يعرف سر أبيه: أبوه يشرب الخمر. لن يخبر بهذا أحداً، ولن يطرح الأسئلة، ولن يعكر مزاج أبيه. فلماذا تهرع أمه لتبعده هو وأمين والجميع وتغلق الحجرة؟ كان لأبيه حضن هنيء، وخصوصاً حين يشرب. كان لا يكف عن ملاطفتهم وملاعبتهم هو وإخوته. لكن الأسئلة؛ قاتل الله الأسئلة التي لا إجابة عنها ولا عمل لها إلا أن تبعد طفلاً عن حضن أبيه. هو لم يكن يسأل. إخوته كانوا لا يكفون عن تعكير مزاج أبيه، وإقلاق أمه: من عنده؟ ماذا يفعل! لماذا يغلقون الباب؟ يسمع ضحكاً، وصليل كؤوس، وعوداً، وغناءً، يكاد الرقص ينفذ إليه، كما الرائحة التي تنفذ إليه، من شقوق الباب الموصد.

حتى أمه كانت تجلس قريباً من الباب الموصد. تستمع، وربما تستمتع بغناء الآنسي أو السنيدار يصدح من بين صليل الكؤوس، واصطدام القوارير، وأصوات نساء. بين كل ذلك الخليط من الأصوات كان ثمة نساء، يخرج تمايلهن ورقصهن من الشقوق نفسها. كلماتهن غير المفهومة وقهقهاتهن كانت تنبعث. يراها وقد صارت دموعاً في وجه أمه.

رجاء داخلة خارجة من غرفة زينب وإليها. تنظف الغرفة، وتنقل قاذوراتها في أكياس بلاستيكية إلى زاوية في المطبخ. هالة سواد تنتظم حركتها لتشكل دائرة، يفكر أن يدخلها، يفكر فقط، ويظل حيث هو في مكانه، لا يحدث صوتاً ولا حراكاً. فجأة كان عندها.

في غرفة زينب المسجاة بلا حراك، وصديقتها ترفعها من ظهرها، لتسقيها بعض الماء. تقلب في ذهنها أسماء من تعرف ومن لا تعرف من الأطباء. ومن يمكن أن يدلها على أفضل طبيب لإسعاف زينب. قلقة على صديقتها، ومشغولة، ومتضجرة من هذا الجلباب الذي يعوق حراكها بالسرعة المطلوبة. ضجرها هو من هذا الرجل الذي يشدد حجابها عليها، ويجعل هذه الحجرة تصير كل دقيقة إلى أضيق. تريد أن تقول له اخرج! جلوسه على السرير قريباً من صدر زينب بل وصدرها هي أيضاً أرهقها، أزهق اصطبارها عليه. زفرت الهواء المحبوس في فمها، فتحت فمها لتقول له اخرج، قاطعها. بين تلك الزفرة وكلمة اخرج كانت له مداخلة من كلمة واحدة: تتزوجيني؟ لا رد! فقط ازدراء، كراهية، احتقار. كل ذلك في نظرة واحدة لم يزد زمنها على ثانية. لم تطل النظر إليه بسبب من كل تلك المشاعر.. ما هذا الرجل، من أي طين!؟

لم ينتظر الرد. خرج كأنه لم يطرح سؤالاً. ولن يعود إلى ذلك السؤال، وربما لن يذكره في الأيام التالية والأسابيع والأشهر.

طال مقام رجاء عند صديقتها. لكن بعد أن فرضت على

طارق حصاراً. إنه غائب عن البيت معظم الوقت. لكنه فجأة تجده واقفاً قبالتها من دون أية مقدمات. اشترطت عليه من أجل أن تبقى: لا يدخل هذه الحجرة من دون إذن، لا يتكلم إليها. هي لا تردّ ولا تتكلم إليه إلا في ما تجده ضرورياً. ذهبت بصديقتها إلى الطبيب، لم تكن مصابة بشيء غير نقص التغذية. يكاد الطبيب يجزم بأنها لم تذق الماء ولا الطعام لأيام طويلة، ربما أسابيع. لماذا كل ذلك يا زينب؟ تعجلت رجاء السؤال! عادت زينب في إثره إلى إغماض عينيها. في الواقع، لم يكن بدنها يحتاج إلى أكثر من استئناف نشاطه الغذائي ليستعيد عافيته. هذا ما ندمت عليه زينب كما يبدو، فعادت لتغمض عينيها في ما يشبه النوم. لم تكن تنام عن شيء غير الأسئلة. صديقتها صارمة ولا تدعُ لها أن تغفو.

١٥

جالس قبالة التلفزيون. ثبت الصورة على قناة راقصة (فيديو كليب)، لم يكن يرى شيئاً في التلفزيون. أدركت ندى ذلك حين جلست ولم يغيّر القناة. إنه لم ينتبه حتى لجلوسها. همّه بادٍ عليه.

أمواله شحت، ليس بعد، لكن رصيده البنكي لم تعد تصب فيه أية إيرادات. وطبعاً لم تعد له يد في تجارة أبيه. أصبح يتحتم عليه أن يعمل ليعول بيتين. يعمل ماذا؟ كيف؟ ضحك بينه وبين نفسه بمرارة. إنه لم يحدث أن عمل يوماً. حتى حين كان يذهب يومياً إلى «المكتب»، كان يجلس ولا يفعل شيئاً. كتماثيل

الفيترينات ببدلها المعروضة للبيع. إنه حتى لم يكن يسأل العمال ما الذي يفعلونه. على الأرجح لم يكن هؤلاء يفعلون شيئاً. لم يكن هنالك عمل لأحد. لا له ولا لمن حوله. كانت هنالك حفنة من الأموال، إيرادات من هنا وهناك تصب في خزان كبير ومنه تعود تصب نفسها عبر حنفية مفلترة أو مسدودة في فناجين وأكواب اسمها حصص الورثة. كذبة اسمها حصص الورثة. وراثة ماذا هذه التي تجيء بلا سبب، وتذهب من دون إشعار!؟

اليوم عليه أن يعمل! يعمل ماذا؟ ما الذي يجيده، أو يقدر عليه من عمل. ما الذي تدرب عليه أو أُعدّ له؟ ما الذي تعلمه أو خبره؟ لا شيء. ولم يتم تعليمه طبعاً. جلس تمثالاً من الخشب في فيترينة. يعرض لا يدري ماذا؟ ولا يفهم لمن؟ أبوه كان يواكب الثورة في حلتها الجديدة. لم يكن وجهه صالحاً لزراعة لحية، استعمل وجه ابنيه. لحيته هي التي كان لها وظيفة. هي التي كانت تذهب إلى المكتب. هو كان مجرد حامل من الخشب. عمود بذراعين خشبيين لا يتحركان، ليس مطلوباً منهما أن يتحركا. آخر العمود ثمة لحية. هذه هي التي تعمل. فزاعة نصبها أبوه في تجارته، ليخيف بها الطيور قبل أن تحط، ويبعد الجوارح التي تهاجم تجارة الناس وأموالهم. هذه كانت كل وظيفته؛ حارس أموال لا يحمل بندقية. يكفي، من حيث هو في مكانه أن يلوّح للأشهاد، والبقية عليهم. إنه حتى لا يتكلف كلاماً يقوله للآخرين. للّحية كلام يقوله الآخرون لأنفسهم كل على طريقته. من قائل إنه إرهابي جمع ثروة من وراء إخونجيته، فهو حريص عليها، يزهق روح من يراوده التفكير مجرد التفكير في

المساس بها. ومن قائل إنه مؤمن ويخاف الله، أمواله حلال ورزق أوسع الله عليه بسبب إيمانه. المؤمن ملهم يطلعه الله على من يكيد له وينصره عليه. مؤمن يحبه الناس ويقبلون عليه وعلى بضاعته. ومن قائل هذا حزبي ناشط مهم في حزب الإصلاح، الحزب الذي من ورائه قبيلة، رؤوس ظلت لسنين تحتكر الأموال والتجارة لها ولمن والاها. ومن قائل لا قبيلة له، ليس من هذه القبيلة أو تلك. إنه من المرتزقة الذين تدسهم الحكومة في الأحزاب. أمواله هي بسبب الخدمات التي ينفذها، من تخريب هنا وتفجير هناك. حتى فتاواه، حتى خطبه التي تجيء منضدة وجاهزة من وزارة الإرشاد، كان يقبض عليها أجراً، لأنه يخدم الحزب الحاكم ويذلل صعوباته.

كل هذا وأكثر، فعلته اللحية وحدها. من دون أن تستعين به. بالكثير؛ كان يضع يده على لحيته، فيكون لذلك ألف تفسير.

ترك ريموت التلفزيون على يمينه في الكنبة. وضع كفه على فخذه، ينهض بحامل من الخشب «خالي شغل». مرر قدمين من الخشب، تجرانه إلى حجرته، إلى المنفى الذي اختار أن يكون حجرته. حجرة في الطابق الأسفل، في مكان يمكنه لو أراد أن يطل على الداخلين والخارجين، بينما المكان قصيّ لا يلفت أحداً. إنه معزول تماماً. وساخة الحجرة؛ وساخة السرير وحده، بالملاءات، الوسائد، الأغطية، الثياب المتراكمة عليه، كل ذلك يدل على منفى خارج العائلة الثرية، خارج المدينة، خارج المدنية كلها.

***

لم تكن حال ندى أفضل. ليس فقط في هذا البيت الذي وسع على جهدها بعدما غاب خدمه. الأثاث الذي كان ثروات موزعة في أرجاء البيت. لم يعد أكثر من كتل طافية تتراكم عليها الأتربة. جهد ندى في تنظيفها لم يكن يعني أكثر من التعجيل بفضح ماركاتها. لم تكن بتلك الجودة التي تصطبر على تعلم بنت لم تعتد أعمال التنظيف ولم تخبر أدواته. تفسخت ألوان الخشب وإطارات الأجهزة الإلكترونية التي كانت تظنها من العاج وقرون الفيل كما في بيت أبيها. هكذا كانت أمها تسمّي الأشياء في بيتهم وتزهو بها. بيتهم أيضاً تغيّرت أحواله. لم تزل أشياء العاج وقرون الفيل، لم يزل اللمعان والبريق. لكن ذلك فقط لأن أمها لم تزل تكابر. تغيّرت حالها هي الأخرى بعد وفاة كبير العائلة. لم يزل هناك خدم. أولادها الستة يتقاسمون الإنفاق على بيت أبيهم المتوفى. ويناضلون في المحاكم ليظل البيت الكبير، وليكون من حصة أمهم في التركة. لكن أبناء المتوفى من زوجاته الأخريات يصرون على حيازة البيت نفسه. تركة هائلة، عند قسمتها لم تكن شيئاً يذكر، أمام عدد الأبناء والبنات، وأمام أطماعهم. كلهم حضروا من حيث هم ينتشرون في البلاد وخارجها. حضروا المراسم كلها، تحسباً لتلك اللحظة التي طالت، لحظة توزيع التركة. لم تنته ولا يبدو أن لها نهاية. الكل يظن بوجود أموال سائلة وعينية وجارية وتجارية. بالإضافة إلى أموال مخزونة وتحت يد آخر زوجاته (أم ندى). كل ذلك يظنون بوجوده، وأنه يجب أن يشمله حصر التركة. ومع ذلك ومن دون إقرار الحصر وضع إخوة ندى، الكبار منهم والنافذون في البلاد،

بوضع أيديهم على التركة، من تجارة ومزارع وعقارات وإلخ. واليوم يطالبون بالبيت. لم يحصلوا عليه بعد. لكن مجرد قلقلة وتهديد أمن سكانه يرضيهم.

ليس بوسع أمها أن ترسل إليها خادمة تعينها على هذا البيت. ولا تريد أن تثقل عليها بشكواها مهما تكن هذه الشكوى. إنها فرحة بكونها زوجت كل أبنائها، وأن لكل منهم بيتاً. ليس لها من الأبناء من إذا انتهى زواجه بالطلاق سيعود إليها سوى ندى. كل أبنائها ذكور. ولكل منهم بيته الملك، حين يطلق فإن طليقته هي التي تغادر البيت، وغالباً تغادر بأولادها. بينما يظل هو في البيت، يهيّئ نفسه لبداية جديدة بزوجة جديدة. ألم يكن هذا ما يفعله أبوها. تنتهي حياته الزوجية مع هذه أو تلك لتغادر هي وأولادها. يقرر لهم، لأولاده منها مصروفاً شهرياً، وحلت المشكلة. حتى الزوجة التي يتوفاها الله، أهلها يتولون أولادها، ينتقلون إلى حضانة غيره، على أن ينفق عليهم. بيته مرتع لزوجة، زوجتين، ثلاث. يزدن أو ينقصن، لا تختلف النتيجة. ينجبن في هذا البيت، يحملن أولادهن وأحقادهن ويغادرن، لا مشكلة لديه. هكذا تراكمت المشكلات كلها، لتصبح جزءاً لا بد منه من التركة. على أمة السلام اليوم أن تسدد فواتيره لأبنائه. كل واحد يكلمها لا يقول لها إلا أنه ولد في هذا البيت، هذا بيته. لم تكن هي التي طردتهم من البيت الذي ولدوا فيه. إنها في بيتها الذي شهد جزءاً من طفولتها. كان حوشاً لعبت فيه وترعرعت وكبرت وحاضت لأول مرة ودخل عليها زوجها، كل هذا في الحوش الذي ظل حوشاً إلى أن كبرت وأصبحت امرأة، وأصبح

لزوجها مال وجاه يقتضي أن يكون لهم بيت كبير، أكبر من بيت الشيخ ومن بيوت المسؤولين، فكان أن بنوا هذا البيت فوق الحوش الذي شهد شبابها وربما انطمر معه. لم يعد لها في البيت الكبير غير أن تكد لتبني بيتاً. البيت الذي ليس مجرد جدران وأحجار وأسمنت. البيت الذي هو هالة «ضيف الله محمد الهمداني» وهيبته. كل ذلك الرجل، هيلمانه ومجده، كان من كد أمة السلام وجهدها. ظل يتزوج طوال عمره، إلى أن تزوج أمة السلام وجد عمره، وأصبح ذلك الرجل المهيب، الواسع الرزق والبنين. لم يكن شيخاً، لكن بعد هذا البيت أصبح أهم من الشيخ. شيخ قبيلته كان قد أصبح من رجاله. لا مصلحة تقدم به إلى صنعاء، لا يدخل صنعاء حتى لشأن يعنيه، من دون أن يكون قدومه أولاً إلى هذا البيت.

توقف صوت أمها في الشريط الذي لطالما سمعته عنها لكنها تسمعه اليوم من دون أن يفتحه أحد. غيّرت مقعدها.. أمها فعلت كل ذلك، صنعت رجلاً وبيتاً. وها هي لا تزال واقفة، وتقسم؛ لن يأخذ أحد شيئاً من بيت أو تجارة أو مال، غير الذي له من الله حقاً شرعياً، لا زيادة عليه ولا قهر فيه. لن يقهرها أبناء زوجها مهما يكن نفوذهم.

تلفتت ندى حولها، تنظر إلى بيتها، لا يشبه بيت أمها. هي لا تشبه أمها في شيء. نهضت تنظف الأتربة من حولها. أتربة الأثاث؛ هذا ممكن، لكن هذا الرجل؟ أية أتربة تلك التي يهيل بها على نفسه، ولماذا؟ لم يعد لديه مال! تغيّرت أحواله. هذه مشكلة، لكن ما يفعله بنفسه ليس الحل. لن تجرؤ على أن تقول

له ذلك، لكنها ستصبر عليه. لن تكون إلا «بنت أصل»، سيرى ذلك، سيرى أنها لن تتغيّر لمجرد أنه قل ماله.

في حجرته التي لم يغادرها منذ أيام، في التوقيت الذي تدخل فيه طعامه لتضعه قريباً من سريره وتغادر، لتجده راقداً أو متراقداً لا يتكلم إليها ولا إلى أحد، تليفونه مغلق ومرمي في غرفة التلفزيون.

ذقنه اتسخت ببقع طعام. ذقن رجل لم يقف بوجهه في مرآة الحمام كأنْ لأسابيع، لم يضع يده على وجهه حتى ليغسله، أظافره طويلة ومتسخة، زنّتَه(٨) التي كانت حين لبسها بيضاء، لم تعد بيضاء، إنها لا تمت إلى الأبيض بصلة. ما الذي جرى لهذا الرجل؟

* * *

كطفلة لا تدري ما الذي يمكن فعله لرجل بهذه الحال. رجل لا يمت إليها بصلة، أو أن ثمة صلة لكنها لا تدركها، على الأقل الآن. من دون أن تفكر كثيراً، فتحت ضلفة دولابه وأخرجت له ثوباً نظيفاً، زنة بيضاء نظيفة. لا يكفي ذلك، عادت إلى الدولاب لتخرج منشفة. لم تجد منشفة، لا بد من أنها في ذلك الركام من الثياب المتسخة، ولا بد من أنها متسخة. ذهبت إلى حجرتها، دونما انتقاء كبير، لكنها راعت أن تكون المنشفة التي تجلبها له من دولابها كبيرة، أضافت أخرى صغيرة، هرعت

---

(٨) زنّتَه: ثوبه.

إليه مسرعة. إنها تركض كأنّ الغريب سيغادر، أو أنه عابرٌ أو طارقٌ أغلق بابه دونها. إنها تركض وكلها حماسة في فعل لا تقصد منه شيئاً، ربما لا تقصد حتى أن تفعله.

وصلت، دخلت، وقفت. أعطته كل ذلك: الزنة والمنشفتين وماذا بعد؟ إنه جالس في مكانه على حافة السرير. التفتت إلى طبق السيرفس الذي حملته إليه بطعام العشاء. أكل الوجبة! كيف هذا بأيادٍ متسخة؟ ليست أول مرة يا ندى! قالت لنفسها حسن، وليكن، تشجّع نفسها ولا تجرؤ. تريد أن تمسك به من يده وتصحبه إلى الحمام. كيف تفعل هذا؟ ما أدراها ما النتيجة؟ ما الذي يمكن أن يكون رده! مدّت يدها، أمسكت به من يده وشدت لأعلى ليقف. وقف!

يا للاه! فعلتها! هو في الحمام وهي بباب الحمام كمن يجلس بباب غرفة عمليات جراحية بانتظار خبر. قبل أن يفتح الباب تماماً هبّت مغادرة.

بعد دقائق عاودت النزول إليه. في يدها قنينة عطر رجالي "Hugo Fragrances"، القنينة القديمة ذاتها التي بعثت بها كرستين ضمن عطور زفافها، لم تكن قد أعطته إياها. قنينة انغمرت لما يقارب السنتين في ما يسمّونه ظروفاً غير مناسبة. إما شجاره وإما غيابه وإما مشكلاتها معه وإما نسيانها لكل ذلك.

حين ناولته لم يكن ببالها أي شيء، لا مما مضى ولا مما سيأتي ولا ربما هذه اللحظة. كل القضية أنها وجدت القنينة قبالتها وهي جالسة على حافة سريرها، تفكر ما الذي تفعله له، ما الذي تعطيه. خطرت لها القنينة، مدت يدها في قواريرها

المرتصة كجنود خارج الخدمة. قارورة، اثنتان، ثلاث.. هذه هي. حملتها، واندفعت بها إليه.

ما الذي فهمه؟ لا تدري. ما الذي تراءى له؟ لا تدري! ما سبب دموعه التي انهمرت لتبلل ذقنه؟ لا تفهم! وهل لـ "Hugo Fragrances" صلة؟ لا تعرف. تركته يجفف دموعه التي توقف انهمارها. وظلت قطرات منها تغيب في غابة وجه. غادرت ساكتة.

دسّت جسمها في السرير وغطته. لكن رفع رأسها عن مخدته شيء. شيء يحدث هنا في حجرة نومها لأول مرة. إنه رائحة "Hugo Fragrances". لم تكن قد شمت هذه الرائحة من قبل. رائحة لها يد تعيث بك بمجرد دخولها من الباب.

من عنقها نازلاً تمررت الغابة. الموسيقى نفسها، إنه الصوت نفسه، الخشخشة نفسها، الوقع نفسه. أوتار تنعزف بعنقها، صدرها، خصرها، ظهرها، سرتها. الموسيقى تنبعث من تحت جلدها، من كل مسامها، من قعر كل شيء فيها. ثمة نسائم دافئة، خيوط ربما كانت أدخنة، ربما هي نفسها الموسيقى. جنياتها يتداعين، يخرجن من مخابئهن إلى هذا العيد المباغت، يبدأن بالرقص...

لم يبدأن بشيء، نهض زائرها! تمت حاجته منها وقام. ليس مهماً. رددت كأنما تربّت جسدها الذي اجتاحته نسمة عاصفة، فتحت كل شبابيكه وأبوابه وفقط. لم يعد هناك ما تفعله. غادرت مخلفة كل هذه الفوضى. ليس مهماً. قالت لنفسها، تكفينا تلك الموسيقى. لقد كانت وحدها فتنة.

حين فتحت عينيها كان قد غادر الحجرة. لولا بقايا رائحة، لظنت أنها كانت تحلم ولم يكن أحد هنا. بقايا رائحة. لم تكن أية بقايا، لم تكن بقايا، ولم تكن "Hugo Fragrances" لقد دخلت وهي شيء، وهي الآن شيء آخر أكثر فتنة. بماذا مزجت تلك الرائحة، لتصبح هذا السحر.

كانت تلك الليلة وكفى، هجرها مجدداً.

١٦

في اليوم الخامس عشر، كان في وجبة العشاء المدفوع بها إلى غرفة الصديقتين، قنينة فودكا ماركة سميرانوف، برداءة تعرفها رجاء، رداءة تدل على ركاكة خبرة من اشتراها أو بخله أو قلة حيلته في الوصول إلى نوعية أكثر جودة. لكن ليس لكل ذلك سارعت رجاء بإبعادها عن المائدة، بل لأن لا أحد هنا في حاجة إليها.

بعد دقيقة، كانت زينب تصبّ منها كأساً وتعبُّ، من دون أن تنظر إلى رجاء الفاغرة فاها متفاجئة. حين صحت من صدمتها، كانت زينب تصب الكأس الثانية. هبّت رجاء لتحول بين زينب وكأسها. تدخل صوت لا أحد يدري كيف حضر صاحبه فجأة، أين كان طارق يقف كل ذلك الوقت، لم تشعر به إلا وهو يقول: دعيها! زينب تحتاج إلى الخروج من حالة الكآبة التي لازمتها لفترة طويلة. رددت زينب كلامه، وعبّت الكأس الثانية. في

الثالثة كانت تفتح الستريو لترقص. تمايل بها رأسها أو شيء فيه لتقع على الأرض. لم ترقص!

لحية بهذه الكثافة والطول، كيف لم تعق رجلاً عن التربص بباعة الخمور، وملاحقتهم إلى حيث يقبعون في جحورهم ومخابئهم. مستنقعات بعيدة وغائرة في العمق، لا يبلغها إلا الضالعون في الشرب. وهذا رجل لا يشرب، فقط يجلب شراباً لزوجته! أحياناً لرجاء أسئلة غبية، ولا تدل على بَغيّةٍ خبرت رجال هذه البلاد من قعر تلك الأغوار والجحور. وحدها تلك الجحور تتسع لمثل هذا الرجل، وتمكنه من الدخول إليها، والمكوث إلى حين قضاء حاجته باقتناء قارورة، من دون أن يكشفه أحد. لو كانت الخمور تباع في بارات معلنة، أو حتى على ناصية الطريق، لما تمكن مثله من الوقوف أو حتى المرور من قبالتها، خوف الفضيحة. لكن هكذا، بمثل هذه الجحور، لا تثريب عليه!

حسن وماذا؟ ما الذي يريده بهذا. تشرب، تقهقه، تترنح، أو كما يحلو له أن يسمّي ترنحها رقصاً. تمكنه منها في أعلى حالات الصخب والضجيج. القهقهة التي يسمّيها ضحكاً. إنها نوبة هوس تدخلها زينب، لتخرج منها نصف ميتة وكل نائمة. ولا تتكلم. هل ستصبح صديقتها لا تتكلم إلا بجرعة كحول!

إنها هنا لمساعدتها، لكنها لا تفعل شيئاً. تنظر إلى حال تزداد كل يوم سوءاً. ولا تدري ما الذي تفعله. توقعت، وقد نال طارق ما يريد، أن يتضجر من وجودها، لكن على العكس، صحبتها مهمة كما أفصح ذات جملة لم يُعِد قولها، رغم إلحاح رجاء

عليه: «ماذا قلت؟». إنه على أية حال يقولها كل يوم، بالقات والكحول والصخب الذي يصر عليه يومياً. كان بودّه، قال مرة، أن يَحضر مطرب إلى هذه الجلسة: هل تعرفين مطرباً، أدفع له ويمتعنا؟. بعد أيام أعاد عليها السؤال وقد أصبح أكثر تواضعاً. يقبل لو بمطربة مغنية لكن شرط أن تشرب! هو لا يشرب، فقط يمضغ القات. ويتفرج على الخمر وقد أصبح هذا الهوس الراقص. غريب أنه لا يشرب! هل لأن الشرب حرام؟ الغريب أنه أصبح أكثر خبرة في اقتناء الشراب، بنوعيات أكثر جودة.

* * *

ندى عاد زوجها وقد نزع حلة الحداد على نفسه. لبس حلة أخرى. وأصبح كل يوم يغيّر ثيابه. اشترى ثياباً جديدة وشبابية. كان نادراً ما يلبس البنطال. وحين يلبسه فبنوعية لا تجافي وقاره. كان يجافي التلفزيون ويسمّيه منكراً. هو اليوم يجلس إلى أفلام الأبيض والأسود، الأفلام نفسها التي كان يمنعها في بيته سابقاً. لكن الجديد حقاً هو معاقرته للخمر. إلى أين يريد أن يذهب هذا الرجل؟ لم تسأله. إنها حتى لم تعد تذهب إليه بطعام. ولم تعد تطبخ له. الطعام في الثلاجة وأحياناً فوق البوتاجاز. وهو يذهب ليشتري لنفسه وجبات «السفري». ويجلس ليأكل ويشرب ويكوّم لها مخلفات للتنظيف.

العطور التي اشتراها أخيراً رديئة للغاية.

فجأة استأنف نشاط الجنس معها، لا لشيء إلا لأنه اكتشف أن له حقوقاً عليها لا ينبغي أن يفرّط فيها. لن يلبث أن ينتهي إلى مزاج جديد ككل مرة. لكنها تعبت من أمزجته وتقلباته. طلبت

الطلاق، التفت إليها ساخراً كأنها تقول نكتة بائخة. فجأة غادر البيت. أحسن! قالت لنفسها وشرعت في تنظيف البيت كأنْ لحال أخرى.

١٧

زينب تفرط في السكوت إلى أن تشرب. تفرط في الشراب إلى أن تغيب. هو تحسنت حاله. رجاء مستاءة كأنها هنا لتتحسن حال طارق وتسوء حال زينب. لجأت إلى غش الشراب بالماء، لتفيق صديقتها قليلاً. إنها تغيب حتى لو شربت ماءً محضاً. لكن هذا أهون الشرين.

في فترة لاحقة من شرابها وتأخر زوجها بالأيام، بدأت تشرب لتتكلم. بعض كلامها كان نوبة ثرثرة، لا تفهم رجاء منها شيئاً. وربما حتى زينب لا تعي ولا تقصد شيئاً فيها. تقريباً ليس في حياة زينب شيء لا تعرفه رجاء. منذ خروجها من بيت أبيها إلى الشهور التي عاشتها في هذا البيت.

هذا البيت؛ خديعتها التي لم تدركها أولاً بأول.. في الشوارع والأرصفة والبيوتات والسجون كان هناك سكين، سكاكين كنت أراها وأشعر بها، أشعر بالنزف الذي تحدثه بمرورها باردة على جلدي، وأتألم كلما انغرزت عميقاً. في هذا البيت لم يكن هناك سكين، كانت موسى حادة ودافئة. وكان نزفي أغزر لكن لم أكن أشعر به. كانت الموسى دافئة، وربما كانت جزءاً من دمي، لم أشعر بها ولا بالنزف الذي تحدثه.

حين أردت الهرب من مصيري، بعد أسابيع من التشرد في صنعاء، التنقل في بيوت غريبة، لا تلبث الواحدة منها أن تتعب وتسلمني إلى الأخرى لأيام، تبدأ هذه تبحث عن بيت آخر لتنقلني إليه. كل هذا؛ تحت خوف يتغلغل تحت جلدي، من محضر يرقد في جيب أحدهم. صوّره البعض لي أنه الذئب الذي سيداهمني فجأة، ويخرجني من هذه البيوت التي تتقاذفني بفضيحة.

البيوت التي تستضيفني نفسها ربّت خوفاً تحت جلدي، خوف أحبسه، أغلق عليه كي لا يراه أحد، كي لا تلمسه البيوت التي آوتني، فتبدأ تتحسّس الخطر الذي يتهدّدها بمجرد وجودي فيها، خطر الفضيحة! أخاف على هذه البيوت الطيبة من الذئب! من المحضر الذي يلبث في جيب أحدهم. ذئب ينهشني كل دقيقة ويقطع أوصالي. وكل الذي أخافه الآن هو أن يقطع الطريق الذي أمشيه، ويقف بيني وبين البيوت التي أدخلها، لكن وقد وقعتْ في الخطر ومسّتها الفضيحة. يا لخجلي من البيوت التي آوتني، من الفضيحة التي قد أهيلها عليهم وعلى بناتهم. الفضيحة التي تحاشاها أبي قبل أن تحدث. ماذا لو حطت على ناس آووني.

هربت إلى صديقتي الحميمة «أمل»، إلى بيتها في الحديدة. استقبلتني بادئ الأمر ببشاشة غريب رأى أحد أفراد أسرته بعد فراق طويل. بمجرد أن سردت عليها ما حدث لي، بدأت بهجتها بي تخفت. ظننته الخوف عليّ، الحزن لأجلي. كانت تهم نفسها وبيتها مما يمكن أن يلحق بها بمجرد وجودي عندها. عذرتها،

حِملي كان ثقيلاً وليس له آخر ولا حل معه. عمل؟ ماذا يمكن لواحدة لم تتم الأول الثانوي أن تعمل! بيت؟ بيت ماذا! هراء! كانت مثقلة وصامتة لا تدري ماذا تقول لي، ولا ماذا تفعل من أجلي. إلى أن بادرتها بالحل، بما ظننته حلاً. لا حل غير أن أتزوّج، وأنا طبعاً لن أخرج للبحث عن زوج!

التفتت بضحكة ساخرة إلى رجاء وواصلت: إلى تلك اللحظة، لم أزل بنت ناس، تفكر على طريقة بنات الناس: لن تخرج للبحث عن زوج!

– ماذا فعلت؟

– لم أفعل شيئاً فقط، قلت.. قلت الكلام الذي أرعب صديقتي مني. قلت لها: زوجك يستطيع أن يجد لي زوجاً من بين أصدقائه، أو أحداً يعرفه ويطمئن إليه!

– ثم؟

– لا شيء، خافت أن يفكر زوجها في أن يكون هو، هذا الزوج الحل لصديقتها! كانت لا تسمح بوجودنا في غرفة واحدة. أما من تلك اللحظة، لحظة، قلت، أصبحت لا يغمض لها جفن ما دمت أنا وزوجها في بيت واحد. لم يطل الأمر، قررت أن تتكلم إليّ بصراحة عما يضايقها منذ أن جئت إليهم. بعد نحنحة واعتذار وتأتأة مفتعلة قالت، كذباً طبعاً، إن زوجها متضايق من زيارتي، قيّدت حريته في بيته. باختصار؛ كان باب جديد سربتْ منه هرة. الهرة نفسها التي خرجتْ يوم قيل أطلق سراحها في قسم الشرطة، والصحيح أنها سُرّبت لتكون واحدة من قطط الشوارع. ومثل قطط الشوارع، دخلت بيوت الناس وسربت منها

بالطريقة نفسها مطرودة، وبالسبب نفسه. . امرأة تتعاطف معي وتقبل أن أدخل بيتها خدامة. ولا تلبث أن تغيّر رأيها، لن يصلح هذا! إما لأنها تخاف على زوجها، وإما لأن لديها أبناءً مراهقين تخاف أن تكون قد فتحت لهم بيديها أبواب الفتنة، أو كما كنّ يقلن: أبواب جهنم. كانت الأمهات لا يرين في أبنائهن إلا مراهقين يحرسنهم، حتى وإن كانوا متزوجين، أو كان الواحد منهم قد تجاوزت سنّه الأربعين.

أصبحت أدخل البيوت وأنا أعرف أنني لن ألبث فيها أكثر من أيام قليلة. أصبحت أطرق باب تلك البيوت، طلباً لتلك الأيام القليلة، لقليل من النوم والأكل والماء. أيام قليلة أعاود بعدها الالتحاق بقطط الشوارع. أرباب العمل بكل مستوياتهم، من صاحب مطعم إلى صاحب مصنع، لم تكن القطة تأمن لهم أكثر من ساعات، تهرب بعدها، بعد أن تخوض عراكاً شرساً كل مرة.

لأجل ماذا كل ذلك. . لأجل من؟ كنت أحافظ على بكارتي! ليش ما أخذتهاش من الآخر ما دامت النتيجة هي نفسها: قحبة!

– وبعدين، كملي!

كنت واقفة ككل خلق الله، الذين يقفون عند إشارة المرور للبيع المتجول، ماء، كلينكس، لبان. . . إلخ. . من بين كل أولئك الخلق، سُمّي فعلي ذاك تسولاً! ومن بين كل متسولي هذه البلاد، مئات الآلاف من المتسولين، لم يُلق القبض إلا على زينب.

بيني وبينك؛ أنا فرحت، بل استغربت! كيف لم يخطر لي

أن أفكر في السجن من أول وهلة! ظللت أردد طوال الطريق إلى السجن أن الله أخيراً آزرني، أخيراً سأنام وآكل وأشرب من دون ذل ولا خوف ولا مهانة.

غريب حبي لله. أليس كذلك؟ الأغرب؛ حبه لي! في كل مرة كان يفاجئني بباب لا يفتح إلا لتسريب هرة.

* * *

حال هذه المرة جديدة. في الواقع، ما من حال أو مزاج يشبه سابقه، أو حتى يمت إليه بصلة. هكذا قالت لنفسها ندى، وهي ترى له أصدقاء يزورونه في السهرة. ليلة واحدة حدثت فيها تلك «اللمة». أصدقاء لا تدري من أين جاء بهم. لم تر له أصدقاء من قبل.

الليلة التالية اقتصرت السهرة على ضيف واحد.

الضيف نفسه كان يزوره كل يوم، حتى في أثناء النهار. لم تعرف أن له صديقاً حميماً. إنه يطلقه في البيت كما لو كانوا في معسكر، أو بيت عازب لا زوجة فيه. يذهب إلى المطبخ، يعد الشاي يطبخ البيض أو الفول. عزلت نفسها في غرفتها، يوماً، يومين، كما يقتضي العرف حين يكون في البيت غرباء. لكن العرف نفسه لا يسمح لغريب بدخول المطبخ. في العرف يظل الغريب «أديباً». ولا تتجاوز حركته حدود الغرفة التي يستضاف فيها، بل وحدود المقعد أو البقعة التي تُختار لجلوسه. وفي العرف يكون الزوج كله آذان صاغية، فقد تطلبه زوجته بشكل أو بآخر، بأن تصفق بيديها أو تدق على الجدار أو أي جسم مسموع طرقات خفيفة يسمعها هو وحده فيفهم أنه ينادى، وينهض من

فوره لتلبية النداء. كل هذا لا يحدث هنا في هذا البيت. إنها حتى لا تقدر على النزول إلى المطبخ لتأكل، لتسخن لنفسها الطعام الذي طبخته منذ ثلاثة أيام. لكن؛ لا حل آخر. لبست عباءتها ونزلت إلى المطبخ، لتسخن أكلاً وتطلع به إلى غرفتها. ما الذي يحدث! ترتدي الملابس التي لا تحتاج إلى لبسها إلا إذا كانت تغادر البيت. تذهب إلى المطبخ كأنها تذهب إلى بيت آخر، بأغراب تخاف أن تصطدم بهم. اليوم إذا لم ينته كل ذلك فستهاتف أمها، وتقول لها إنها عائدة إلى بيت أبيها.

لم تهاتف أحداً، ولم تصطدم بالرجل الغريب طوال اليومين التاليين. في اليوم الثالث صادفته في المطبخ. رجل سمج، نظراته تعريها. هي في عباءتها، لكن الرجل؛ عيناه تقولان إنها عارية. إنه يصب عليها نظرات لا يمكن أن تصب إلا على عارية أو عاهرة، نظرات دبقة، يُشتمّ منها مخيال وسخ. أخرجت حاجتها من الثلاجة، وطردته من المطبخ! هذا دوري في استعمال المطبخ، قالت له بسخرية واضحة وشرعت في إعداد شيء تأكله. سُمع لها ضجيج في المطبخ، تزمجر، توقع أطباقاً، هذه ما عدتش عيشة! توقعت أن يكون القادم زوجها وقد اشتاط غضباً. حدث، لكنه لم يقل شيئاً. فقط أخرسها بعينيه.

١٨

لأيام طويلة غرقت زينب في الثرثرة والحمى والخوف. كانت فجأة تفتح عينيها لتسأل عن طارق. كان يقلقها أن يطول

غيابه. تخاف من اليوم الذي سيجيء، لا لشيء إلا ليفتح لها الباب ليسربها. كانت تشعر بأن ذلك اليوم يقترب.

كلما عاد طارق بعد غياب، تبالغ في إغراقه في ملذاته. كانت ملذاته وحده، أما هي فقد فقدت لذتها معه. مثل كل الرجال الذين كانت تعاشرهم بأجر. تفننت في إمتاعه. كان عليها كل مرة أن تجيء بجديد، لأنه كان قد أوشك أن يتقيأ.

* * *

رجل حليق الوجه ووسيم. ندى لم تعرفه. وقفت تتأمل الداخل كأنما تتفحص رجلاً غريباً، تهم أن تسأله: كيف دخلت! أنا طارق قال لها. طوّقها كما يفعل العشاق. لم يداهمها كما هي عادته اغتصاباً. ظل يلاطف ويداعب. لم تصدق أنهما لا يزالان في غرفة المعيشة، ولم يجرّها كما اعتاد إلى السرير عنوة. تتأمل ولا تصدق. يمرر يدها على وجهه، لقد نَعُمَ كثيراً، ليس وجهه فقط بل أيضاً سلوكه معها. ما الذي حدث؟

حبسها حبساً ناعماً في سرير الهوى، لثلاثة أيام وثلاث ليال. قال إنه يبدأ معها شهر عسل. في اليوم الرابع، كان يبكي فوق ركبتها، ويغمر وجهه بحضنها، ويصارحها: «أنا عارف ان في حياتش رجال كثير، قولي لي وبصراحة. . كيف بتلتقي بهم؟ أين؟ بيجوا لش؟ بتروحي لهم؟».

لم تسمع شيئاً، بعد كلمة «رجال كثير». نفضته من فوق ركبتها ونهضت. لا تدري، لم تحدّد إلى أين. يكفي أن تغيب عن هذا الرجل، ولو بمجرد أن تدير وجهها إلى جهة أخرى. ولم تفهم شيئاً. لم تستوعب ما يحدث، ولا من هذا الرجل

الذي دخل إلى بيتها، وتعامل معها كما يفعل أبطال الأفلام الرومانسية، آخر الفيلم كان عجيباً.

تسمّرت في مكانها لساعة، قبل أن تفكر في حمل ثيابها ومغادرة هذا البيت. حين شرعت في ذلك قفز الرجل إلى حضنها، طوّقها من صدرها نازلاً، إلى بطنها، إلى ركبتيها، إلى قدميها: لا تروحي أرجوش! توسل: أنا آسف!

يوم آخر، تكرر عرض الفيلم نفسه، يأسف، يرجو، يجامع. لم يعد اسمه «جماع» بل جنس، وأسماء أخرى أكثر حرصاً على الوقح والمثير. ثم يعود إلى طرح الأسئلة نفسها بصيغ كثيرة!

لن تحتمل ذلك.

جمعت ثيابها لتغادر، قفز كأنْ من فوق جدار، لا تروحي! أقسم إنه سيتغير، ورجا وتوسل ووعد. اقترح أن تهجره، يذهب هو إلى غرفة أخرى، لكن لا تغادر البيت، لن يضايقها، حتى إنه لن يدخل إلى حجرتها إلا إذا هي شاءت. لم تكن بحاجة إلى أن تغيّر غرفتها، لقد ترك لها البيت وغاب!

١٩

كل مرة هو أكثر غياباً، طلبت من صديقتها على سبيل الحرص على مشاعرها طبعاً أن تغادر، كي لا تتعرّض معها للتسريب.

لم يسربها، على العكس، كان يحمل إليها هدايا وحتى إلى

صديقتها. للوهلة الأولى كان رجلاً آخر، أصغر سناً وأكثر وسامة، بوجهه الحليق وملابسه الكجيول. لم تعرفاه. لكن رجاء عرفته، عرفت على الأقل أن هذه المرحلة، أو هذه الفترة التي لا أحد يعرف كم ستطول، هي الشوط الأخير في لعبته هذه.

لم تطل الفترة، عشرة أيام بلياليها. كان فيها يجرع ويتقيأ علاقته بزينب. شرب الخمر أيضاً في تلك الأيام العشرة. لكنه لم يكن يجرع ويتقيأ إلا زينب. آخر يوم لفظها. غادر من دون عودة. لم يطلقها. ليس في حاجة إلى أن يطلقها، قالت رجاء، لم يكن ذلك غريباً. لكن الغريب أنه ترك لها الشقة إلى أجل غير محدد. أخذ حاجاته وغاب.

لم تفهم شيئاً زينب! هل تبكي؟ لا تفهم. قالت لرجاء لا شيء مهماً الآن إلا أن تشتري لي قارورة خمر. أي نوع، مش مهم. نقدتها ثمن القارورة. لكن رجاء لم تمتثل لأي من طلباتها تلك. عادت لتقيم معها، بعد أن كانت قد غادرتها للأيام العشرة تلك. أقامت معها لكن بشروط جديدة. أهمها ألاّ شراب على الأقل في الفترة الراهنة. أتعبها ذلك. أتعب رجاء، أما زينب فقد لبّى ذلك حاجتها إلى البكاء بصوت عال وإلى الانفعال والتكسير. لم يكن قد بلغ بها الإدمان تلك الدرجة. لكن حالتها كانت تحتاج إلى سبب للعويل.

لم تطل إقامتها بشقة طارق. بعد أيام من مغادرته، انتقلت إلى بيت رجاء.

* * *

فوجئت ليس به، بصديقه في المطبخ، كأنما هو هنا منذ

زمن! كأنما هذا البيت هو محل إقامته. تذكرت الزائر السابق. لكن هذا لا ينظر إليها. يواصل عمله في المطبخ ويتكلم إليها، من دون أن يصوّب عليها عينيه. تنبهت لنفسها، عليها أن ترتدي عباءة وطرحة قبل أن تستعمل المطبخ.

قبل أن تغادر تلفتت إلى الرائحة، إنها "Hugo Fragrances" هل يعقل؟ هل أعطاه القنينة؟ أم هي مجرد مصادفة؟ رجل له العطر نفسه، ما الذي في ذلك؟

بعد أيام قليلة، ستعرف ما الذي في ذلك!

بعدها ليس بمدة طويلة، شاع خبر تناقلته بنات هوى، أغرب خبر التحاق بالمهنة. في قصة يصلح أن يكون عنوانها: الزوجة آخر من يعلم. زوج يهيّئ لليلة فاحشة، يجمع فيها بين زوجته وصديقه، في فراشه فراش الزوجية. لـ الليلة الأولى فقط. الثانية ليست من شأنه!

٢٠

نشوى في شقتها الملوّنة وحدها وتضحك بصوت عال. يبدو أن هذه المرأة على وشك أن تُجن. صوتها يرتفع بالضحك، إنه ضحك وليس تضاحكاً.

أسكتت ضحكها العالي فوراً. كأنه مذياع أوقفته على صوت النشرة.

والآن ستقول سبب الضحك، أسبابها الوجيهة جداً في الضحك.

أمس، انتقل أولاد أخيها أمين للعيش عندهم كلية. هم لا يكفون عن المجيء إلى بيت جدهم، لكنهم منذ يوم أمس أصبحوا أصحاب البيت. بنتان وثلاثة أولاد، أبناء أمين.

أول من أمس، بعث أمين من حيث هو لا أحد يدري أين، برسالة عبارة عن ثلاث أوراق، كل واحدة منها أغرب من الأخرى. الأولى: ورقة طلاق زوجته! المسكينة؛ كانت لا تكل ولا تيأس، تسأل عنه وتنتظره. الثانية: رسالة إلى أخيه الكبير، يطلب إليه فيها أن يتزوج زوجته، أقصد طليقته. لكن بعد أن يتأكد أنها طاهرة، وتستحق اسمه وتشرّفه، «فكما تعرف يا أخي، النساء قوت جهنم، لا يغالبن شهواتهن، ولا يصطبرن على غياب الزوج. تحرَّ الأمر! ما لم؛ فعليك بأولاد أخيك، إنهم أمانة في عنقك». المشكلة؛ كيف سيفحص زوجة أخيه، هل بأخذها إلى الميكانيكي؟ الورقة الثالثة هي الأطرف. إنها ورقة إلى القاضي الذي سيعقد قران أخيه وزوجته! «لا ضرورة للعدة، هذه امرأة مهجورة» طيب! كيف تأكد لك أنه ليس في أحشائها جنين، من غيرك وغير أخيك، لم يفحصها بعد. كان عليه أن يحدد: هذه الفتوى غير سارية إلا بعد الفحص.

خرجت، لتجلب بعض المكسرات والليمون، للجن. المسألة تستأهل، لم يزل هناك الكثير من الضحك. هي الآن في سيارتها، تُطيّرها في الشوارع من دون هدى، ولا تكف عن الضحك:

طارق غائب عن بيتيه وعمله. أبوه يبحث عنه لا يدري أين. أنا أعرف أين، لكن لن أخبر أحداً.

الشهر الماضي، شُمّعت ثلاثة مخازن لقاسم عُبيد، وتم التحرّز على موجوداتها وجردها لغرض بيعها في المزاد، سداداً لواحد من أرصدته المكشوفة. بعد ثلاثة أيام من التشميع، ثلاثة أيام فقط، آلت ملكية المخازن إلى العمة حورية.

قاسم عُبيد عاود العمل في مكتبه، ليومين فقط، في الثالث أحضر ابنته «الدكتورة». أجلسها في المكتب، وعيّن لها حارسين، أحدهما نقال والآخر بباب المكتب، كي لا يباغتها أمين ويغتالها. ارتفع صوتها بالضحك!

أول قرار اتخذته الدكتورة، قطع حصص الورثة من الإيرادات.

إنها الآن تقطع بسيارتها باب القاع، عند منتصف شارع التوفيق، أوقفت السيارة. لم تزل هناك مسافة إلى السوق المركزي، قطعتها مشياً لتشتري ليموناً.

تسأل بائع السمك عن الليمون: أيّ الليمون أفضل؟ تفحصها، كأنما يسأل؛ هل هي مجنونة؟ عيناها الحادتان تقولان غير ذلك. فهو مزاح إذاً، رد ممازحاً: «الجحش»[(٩)]. «هات لي واحد ديرك»[(١٠)]. قبل أن يسألها كيف تريد الديرك، تركته ومشت. طرحت سؤالها: عندك ليمون؟ على بائع أوانٍ منزلية. لم تنتظر رداً، واصلت طريقها تتمشى في السوق.

إنها تغادر من دون أن تشتري الليمون. قبل مغادرة السوق، في المسافة بين السوق والسيارة، وقفت تتأمل بيتاً، في ما يشبه

---

(٩) الجحش: نوع من السمك.

(١٠) الديرك: نوع من السمك.

الضباب، رأت بنتاً اسمها نشوى، تضيع شيئاً في هذا البيت. ليست نشوى إنها نشوة، هناك فرق!

الناس يزدحمون ويصطدمون بها. وهي تصطدم بشريط أخبارها. لكن لن تضحك إلا في السيارة. يبدو أنه كي تفقد عقلها يلزمها بعض الوقت.

انتقل إلى رحمة الله الحاج ضيف الله محمد الهمداني (والد ندى)، عن عمر ناهز ثمانية وسبعين عاماً. كان ذلك منذ أكثر من شهرين، ظهر خلالها طارق لأحد عشر يوماً، ثم عاود غيابه. ابن أصول ويعرف في الواجب.

عارف تنتابه نوبة «كمون». سيعكف في حضن أمه، فلا يخرج إلا وقد نبتت له لحية! المشكلة؛ أنه حاول هذا من قبل. وجهه أمرد لا ينبت فيه الشعر، ولا أي شيء آخر، كالحياء مثلاً!

عادت إلى شقتها، من دون ليمون ولا مازة. أتت بكل ذلك من رف قريب في المطبخ. قارورتها في رف آخر، ليس هنا، رف سري. يبدو أنها بدأت تحتاط لزوار في بيت معلن.

آخر الأخبار: نشوى قررت الإقامة، وحدها، في هذا البيت!

هذا يعني أن إحدى اللحيتين ستقطع غيابها لاغتيال عاجل. حتى عارف، يمكنه فعل ذلك، ولو لم تنبت له لحية.

مقاعد بعجائز لاصقة

١

٢٠٠٠

شارع حدة ما أطوله! لم يكن طويلاً هكذا. ولا علاقة لطوله باطراد عدد السكان في المدينة، بقدر ما له علاقة باطراد الأثرياء، من الذين كانوا في المدينة من قبل، أو من الوافدين إليها. كل حفنة سنين هناك وجبة بشرية يصيبها الثراء. هناك بالتالي قسم يضاف إلى هذا الشارع. أصبح ثمانية أقسام. سكان القسم الأول (الأثرياء القدامى) نزحوا إلى القسم الأخير، لأن الأول أصبح شعبياً.

رجاء تجاوزت القسم الأول الأشد اكتظاظاً بالسيارات، والقسم الثاني الذي يسمّى الحي السياسي، هو أيضاً بات قديماً. والثالث المكتظ بالمطاعم. مطاعم من الدرجة الثالثة وأحياناً السابعة، رجاء تسمّيها الأوكار، مع أنها هي نفسها المطاعم التي تقبل عليها الأسر المحترمة والطالبات. هذا بالضبط ما يجعلها أوكاراً. كررت رجاء تؤكد لنفسها: لا مجال لوكر متخصّص، لأن هذه «المهنة» تعيش تحت كنف المحافظة والتشدد، تتربى بالستر، وتتغذى على فيتامين اسمه الأعراف والتقاليد. زبائنها

جميعهم يخرجون من جيوبهم علبة تحوي هذا الفيتامين. يبدو أن لا بد منه من أجل الفحولة.

بدأت سيرها من القسم الرابع. ليست في حاجة الآن إلى اجتذاب زبون. تلفتت حولها، الزبائن في كل مكان. لكن كل زبون طبعاً هو «فئة مالية»، وهي لا تقبل بفئات «الدخل المحدود»، هؤلاء فلوسهم حرام، يروحوا يصرفوا على أولادهم!

عندها أخلاق رجاء. طبعاً عندها أخلاق. الأخلاق هي فيتامين رجاء. ليس مطلوباً من هذا الفيتامين أن يحسن أداءها، لكنه يحفظ لها حقها في المتعة! ثم إن لرجاء حكمة تقول: حيث المهن الأشد إيذاءً لأصحابها، هناك وربما هناك فقط توجد الأخلاق. شكراً لحكمتك يا رجاء، لكن من دون هذا التحديد، امسحي كلمة «فقط». مسحناها. لا يزال الوقت باكراً على موعدها.

لم تزل في القسم الرابع. البيوت هنا، ليست بيوتاً، العمارات هنا هيّأت نفسها من الأساس لأن تكون تجارية، مكاتب ومعارض وما إلى ذلك. لا تريد أن تؤول إلى شعبية، خلفها من الجانبين ثمة فلل، بل خليط من فلل ومن عمارات. هو الخليط نفسه من الثراء ومن قلق الحفاظ عليه.

قطعت الإشارة إلى القسم الخامس. هذا القسم قصير وأشبه بمفصل، ربما ظن الناس يوماً أنْ ها هنا آخر المدينة. أناس آخرون وصلوا الطريق بعُمْران آخر.

مدخل المدينة السكنية. تقاطع يصر على الشعبية، لا بفلله وعماراته طبعاً بل بالباعة الذين يحتشرون فيه، والشحاذين،

وسيارات الأجرة. إنه تقاطع بين مدينتين، أو بين فئتين من البشر. لها زميلات بدأن بالعمل من هنا. قطعت إلى السادس. لا تريد زبوناً، لكن لا بأس بأن تستمع لكلمة مغازلة، هكذا لوجه الله. المشكلة؛ ذكّرت نفسها: شبابنا لا يفتح الله عليهم بكلمة حلوة، حتى لو تقطعوا لبنت لمعاكستها، نية أن يقولوا كلاماً مثيراً، فإنه لا يطلع منهم إلا الكلام المسيء والجارح. كانت تظن المشكلة في الزبائن، أنهم يتمنعون عن قول الكلام الحلو، كي لا يكون هناك كلام غير ما تقوله فلوسهم. كأن الواحد منهم كلما قال كلمة حلوة نقصت القيمة الشرائية لفلوسه. بمضي الوقت وكثرة الشوارع وكثرة المعاكسات، تأكد لها أن هناك مشكلة في الكلمة الحلوة، الظاهر أنها صعبة، غالية على الشاب المحلي. يمكن بيدفع لها جمارك ميتين المية مثل السيارات. الشاب العراقي الله على كلامه! طلبة، يمكن أول أو ثاني جامعة، لكن كلامهم ييييي ما أحلاه. لكن هؤلاء لا يدفعون، مساكين جايين من بلادهم نازحين. تلفتت حولها، الوقت صباح، الموظفون في مكاتبهم، الأجانب فقط. الأجانب يكتظ بهم هذا الحي، أماكن عمل وحتى أماكن إقامة. ليس في الشارع إلا «الدبابات»[1] باعتبار أن هذه وظيفتها سائقين وركاباً. عموماً هي تتفرج فقط، هي تفضّل الزبائن عبر قوادين. زبائن أنظف وأثقل. ثم لماذا لا تشغّل القوادين ما داموا في كل الأحوال يقبضون.

ألقت نظرة إلى ساعة يدها، قاربت الحادية عشرة، الوقت

---

(١) الدباب والجمع: دبابات: اسم يطلق على الحافلات الصغيرة.

مناسب الآن. أوقفت سيارة أجرة لتقلها إلى موعدها. موعد صباحي يذكرك بالمراهقين الهاربين من مدارسهم. هو أيضاً هارب ومراهق لكن فوق الخمسين.

٢

سامية ناقشت الدكتوراه وفرغت للعمل. العمل الذي أُلقي على كاهلها فجأة بكل مشكلاته. للوهلة الأولى ظنّت نفسها عاجزة. لكن بعد شهور طويلة من البحث المضني، استطاعت أن تجزم وأن تثق بقدرتها. لما يقارب سنة لم تتخذ أي قرار، لم تفعل شيئاً غير التقصي والبحث. من أين تبدأ، وكيف تصمّم خططاً لعمل ظل راكداً طوال سنين. لم تكن تجارة تلك، كانت دكاكين، لولا حرص العمال على مورد رزق منها لأفلست. ولولا عقارات أبيها لما بقي لهذه الأسرة تجارة، ولا عرفت هي من أين تبدأ. لم تتخذ أية خطوة قبل أن تكون قد درستها وأجرت حولها النقاش الكافي. من دون أن تسمح لأحد بالتدخل. كانت تحدد ما الذي تريد أن تبحث فيه، ما هي حدود سؤالها ومع من يُطرح، كي لا تشكك في قدرتها أو تثير القلق إزاء ما تفعل. لها اجتماعاتها الطويلة مع العمال، كل مخزن أو متجر على حدة. ولها مناقشاتها الطويلة وأسئلتها التي تداورها تارة مع أبيها وتارة مع عمتها. اكتشفت أن لهم سجلات تجارية وأذون استيراد وتصدير متعددة الفئات. منها ما هو قديم وعفى عليه الدهر، ومنها ما هو جديد نسبياً لكنه كذلك لم يُفعَّل، وكلها لم تُسدد

رسومها. إنها تنفض غبار سنين. كان عليها أن تبحث جيداً، هل تجمع كل تلك الأذون في واحد بقيمة ورصيد كبيرين، أم تبقيها متعددة وتضخ لكل منها رصيداً يخصها؟ ما الجدوى ما دامت تنتهي إلى الشخص نفسه «قاسم عُبيد»؟ بحثت كثيراً. أخذها سؤال «لماذا» إلى مناطق شائكة من حياة هذه التجارة، وحياة المشتغلين فيها (أبيها، ثم أخويها)، وحياة أسرتها عموماً. لقد تشعبت الأسئلة، لتأخذها إلى أمكنة وأزمنة وأشخاص. لم تكن تعرف أنها تنزلق إلى كل تلك المسافة. كل هذا وهي تبحث في سؤال: لماذا ظلت تجارة أبيها مجرد دكاكين. كيف تنتقل بكل تلك الطاقة المالية المهدورة والمستغرقة والمقصية نفسها إلى خارج السوق. كيف تنتقل بها إلى مؤسسة كبيرة ومنتجة؟ تجارتهم من أقدم الرسملات التي نشطت وازدهرت أوائل الستينيات، وصبت في عروق الاقتصاد ونمت به. فلماذا لم تنمُ هي؟ لماذا بقيت في الهامش، وآلت في النتيجة إلى مجرد دكاكين؟

بحثت كثيراً، حتى خلال الشهور الأخيرة التي كان ينبغي أن تكون خالصة للدكتوراه ولمراجعة أطروحتها. حتى هذه الشهور كانت بحثاً في هذه التجارة. كان لا بد من أن تسرّع في مشروعها، إعلان مؤسسة عُبيد للتجارة العامة. عنوان فضفاض! هكذا بدا لها كباحثة تميل إلى التخصص والتخصيص. لكن الباحثة نفسها ارتأت أنه لا بد من عنوان يتسع لتسويق تلك المخزونات كلها. وإلا كان ذلك يعني تصفيتها. وفي ذلك خسائر لا تسمح حتى ببقائهم في السوق، فما بالك بحلمها في دخول السوق واقتحامه والتوغل فيه، إلى أن تستعيد المكان الذي

كان على هذه التجارة أن تحافظ عليه. الماضي ليس فقط اسم عُبيد الذي ظل لعقود التاجر ذا السعة المالية، لكنه يعني كذلك: مخازن، الأصح موجودات مخازن، لا تدري أين تُصرّفها أو كيف إلا إذا كانت جميعها أو معظمها هي مادة أو مواد إنتاج المؤسسة. إنها تدخل مجدداً إلى السوق بماضوات لا تراهن عليها، بل على تجدد ما أمكن والتنازل عما أمكن. لا بد من تنازل وإتلاف، لكن من دون خسائر. ليس سهلاً كل ذلك.

لكن نقاشها تلك المرة مع عمتها الذي طال لساعات لم يكن من أجل شيء من هذا. موضوع النقاش كان شيئاً واحداً أو خطأً فات وقت تصحيحه. لم تقلها لعمتها هكذا. لم تجئ على كلمة «خطأ» بالمرة. لكنها ناقشت الموضوع كما ينبغي لخطأ أن يناقش. كان لا بد من إخراج نشوى من السجن وبالسرعة نفسها وبالشكل نفسه، من دون فضائح ولا تحقيقات.

مشكلة سامية التي عليها أن تعالجها، ليست مع الوالد ولا العمة ولا حتى سجن نشوى. منذ شهور خرجت نشوى، وهذه هي المشكلة، هذا هو الخطأ الذي ينبغي أن يعالج ولا أحد يفهمها. نشوى التي خرجت من السجن، أسوأ حالاً من تلك التي دخلته وأشد عناداً. قالت هذا مسبقاً. قالت لأسرتها إنهم بسجنها يزيدون المسألة سوءاً. لم تصدّقها عمتها ولا زوج عمتها، ولا حتى أبوها على الرغم من تردده في قبول ذلك النوع من الحل، الدفع بنشوى إلى السجن. لكن سجن تحت السيطرة. هذا السجن الذي تحت السيطرة هو السبب في ما آلت إليه. حاولت أن تشرح لأبيها يومها لكنه كان شارداً، وكأنه غير موجود

في كل ما يحدث. لم يكن يتخيل أصلاً أن تكون ابنته في السجن. ليس سجناً، قالت له العمة، إنه مجرد «قرصة أذن»، قبل أن تقع الفأس في الرأس وتسجن فعلياً. «كم مرة» قالت له «نقذها آخر لحظة؟ حرق وجهي لكثرة المرات اللي وسطت فيها ناس لإخراجها من المباحث الجنائية، وغيره، وغيره» لم تدع له فرصة ليفكر وهي تلح عليه: ما دامت على ثقة بأننا عزوتها، أننا من ورائها نمنع سجنها فلن تتوقف، ولن ترجع عن طيشها الذي لم يعد طيشاً، لقد أصبح انحرافاً، إذا لم نقوّمه اليوم فلن يستقيم. والمسألة ليست خطيرة، تحبس في غرفة كأنها عندنا في البيت. الفرق أنها في بيتنا تجد دائماً طريقة للخروج. نختار ونحدد نحن الغرفة، ونحدد حتى من سيلقي القبض عليها، وأين، وكيف يكون التحقيق، ومن المحقق. حتى الأسئلة نحن نضعها. ولا مشكلة بضعة أسابيع أو حتى شهور، وتخرج، من دون أن يعرف أحد. نقول للناس إنها سافرت.

لم يكن للوالد سؤال يطرحه إلا عن «السيطرة»! هل هو فعلاً حبس تحت السيطرة؟ المسكين؛ حتى لم يستطع أن يسمّيه سجناً. ضمنت له العمة ذلك. وفعلاً لم يسمع أحد عن سجن نشوى. كما أرادت عمتي تماماً. بل لقد شككتُ في أنه سجن في بيتها، لكثرة الحيطة من أن يعرف أحد. لقد كان الضباط وعساكرهم يؤدون المهمة بحرص، كأنهم في فيلم سينمائي وهذا دورهم الذي يؤدونه بأجر. بدءاً من القبض، إلى المكان، إلى التحقيقات، إلى خروجها. كل شيء تم كما خطط له. إلا شيئاً واحداً أغفلته الخطة. على الرغم من أنه هدف كل ذلك وغايته.

والله أنا نبهتهم لكنهم لم يستمعوا إلي. وهذه هي النتيجة. إذا كان قد تغيّر في نشوى شيء فللأسوأ. وليس من المستبعد أن تسجن هذه المرة جدية لا سجناً بأجر. هذه المرة إن سجنت فلن يكون بوسع عمتي ولا غير عمتي إخراجها. بل لن يُعرف أين هي، في أي معتقل أو سجن سياسي. هذه نشوى اليوم. أمس كانت شرموطة فقط. اليوم هي شرموطة وسياسية. صدقت نفسها وصدقت أن بعض الثرثرات التي كانت تثرثر بها هنا وهناك أودت بها إلى السجن. هم السبب في طريقة سجنها الانفرادي، لم يكن بالإمكان إقناعها بأنه سجن بسبب فجور وخمور واختلاط. كل ذلك كان من وجهة نظرها ذريعة. لا يوجد سجن لقحبة سجناً انفرادياً. عندها حق. المشكلة أن من أراد كل شيء يضيع منه كل شيء. أردنا أن نحميها من نفسها وبشكل لا يعرّضنا للفضيحة. ماذا كانت النتيجة؟ أصبح لدينا شرموطة تشتغل بالسياسة!؟

٢

١٩٩٩

قضت نشوى أربعة أشهر وعشرة أيام في السجن. سجن لم يعرف بدخولها إليه أحد. لم تصدق ذلك حين خرجت. كان الجميع يرحّب بها عائدة من سفر لم يحدث. لا أحد بالمرة يقول غير ذلك. حتى سماح حين أخبرتْها أنها كانت في السجن ضحكت. اعتبرت كلمة «السجن» مجازاً عن رحلة لم تعجب صديقتها فسمّتها سجناً. تجاوزت ذلك إلى سؤالها عن جنيف عن

سحرها وجمالها. ولماذا لم تكن تبعث برسائل ولا حتى إيميلات. وهل كان ابن عمتها وسيماً. هل هو متزوج؟ غير معقول أن تعيش امرأة مع رجل واحد في بيته، إلا إذا كانت زوجته أو أن له زوجة جعلت منه بمثابة أخ.

كل تلك الأسئلة وغيرها، من سماح وغيرها من الأصدقاء، زادت غربتها. في أي مكان نحن في العالم، في أي زمان. كم لدينا من سجون كهذه لا يعرف بوجودها أحد؟ وبوسع أي نافذ أن يزج بأي شخص فيها، يفقده حريته من دون أن يعرف أحد، ومن دون أن يترتب على ذلك حساب. من دون أن يُسأل أحدٌ ماذا فعلت؟ بأي قانون؟ أين المحاضر والتحقيقات وأذون النيابة؟ لا أحد تطرح عليه هذه الأسئلة! إنها لا تعرف أساساً أين كانت؟ سجن لكن أين؟ لا تعرف. زُجّ بها معصوبة العينين وأخرجت معصوبة العينين. وكانت معصوبة العينين في التحقيقات. لكنها تذكر الأصوات. إذا سمعتها ثانية فستتعرف إليها.

مئة وثلاثون يوماً من السَّجن. في غرفة لم تزد مساحتها على ١×٢ متر، بنافذة ليست أكثر من ثقب أعلى الجدار، لا تصل اليد إليه، ولا يكفي لتصريف رائحة الغرفة التي فيها تأكل وتتبول، في إناءين يدخلان ويخرجان في الموعد نفسه، وبالطريقة نفسها، من فُتحة أسفل الباب الحديدي، يعاد إغلاقها بإحكام فينعدم الضوء المؤقت. لم تطل التحقيقات التي كانوا يخرجونها بسبب منها إلى حجرة ليست أكثر ضوءاً، لكنها على الأقل أوسع مساحة. لم تطل التحقيقات. ولم يرغمها على الكلام أحد. ولم تقل شيئاً. ولم يطلب منها أن تقول شيئاً. لم يغتصبها أحد. ولم يضربها

أحد. كل شيء سار بهدوء، منذ أخذت عنوة من باب العمارة التي فيها شقتها. إلى أن قذف بها من سيارة مجهولة إلى باب بيت أبيها. ١٣٠ يوماً و١٣٠ ليلة، لم يحدث فيها غير السكوت والظلمة. لا شيء آخر.

أيام وليال مريرة. لكنها لم تكن صادمة كالسجن الذي خرجت إليه. هذا الكبير الواسع الذي بشوارع، وسيارات، ومبانٍ، وعمارات، وناس! أليسوا ناساً؟ هؤلاء الذين تراهم العين المجردة، ونسمع ضجيجهم، ونشهد انفعالاتهم لا ندري علام. على ماذا يحتدّ هؤلاء، وتصل شجاراتهم إلى حدّ الاشتباك بالأيدي، ويصوّبون بنادقهم وخناجرهم. على ماذا يختصمون، ومع من؟ يشتبكون في ما بينهم، تماماً كأطفال الحارة. كنا ونحن أطفال في الحارة نلعب، ونختصم، ونتشاجر، ونشتبك، ونحتد، كل هذا وأهالينا يتفرجون علينا من الشبابيك! يبتسمون ويهزون رؤوسهم غير مبالين بشيء: «جهال ع يسدوا»[٢]. صرنا ملايين من الجهال، القوي فيهم ببندقية. هناك أقوياء بدون بنادق، بنادقهم خلف الشبابيك تحرس أهواءهم، يبطشون ويسفكون ويفسدون بأمان. حتى الأقوياء جهدهم ليس لهم، لا يحصدون منه إلا ما يرش عليهم من وراء الشبابيك.

أقامت نشوى بالشقة التي أعلنتها ذات يوم بيتاً. تستقبل ضيوفاً من الجنسين. ضيوف يتناقصون يوماً بعد يوم. الذي تناقص هو المشترك بينهم. لم تعد هناك ميول مشتركة، ولا

---

(٢) جهال: كلمة مرادفة لأبناء. جهّالي أي أبنائي. ع يسدوا: سيتفقون.

هموم، ولا آمال. ليس صحيحاً أنها تفكر في إنشاء حزب، كما يتردد عنها في بيت أهلها ربما على سبيل التندر والسخرية. كل القضية أنها تتفحص أصدقاءها لتتخيّر منهم من يبقى. ليس في أصدقائها القدامى إلا القليل ممن يستسيغ جلساتها الجديدة التي كلها طروح وأفكار ونقاشات. إلا أنها لم تزل تهرِّج وتضحك وتقول النكات البذيئة. لكن ما إن ينتهي ذلك الجزء من الجلسة، جزء التهريج والضحك، حتى تبدأ الجلسة تعلن نهايتها بتتابع وازدياد عدد الذين يستأذنون للمغادرة. شيئاً فشيئاً لم يعد هؤلاء يحرصون على المجيء. هذا كل شيء. هي في حاجة إلى أصدقاء جدد وصداقات جديدة.

سوّت مشكلة الشقة. دفعت أجور الشهور المنصرمة، شهور السجن أو السفر كما أشاعت أسرتها. وضعها المالي الجديد سيّئ. تضاءل رصيدها البنكي. كان يصب فيه القليل من إيرادات عقارات أبيها شهرياً، القليل جداً. انقطع هذا القليل بعد تسلم سامية العمل. عموماً، منذ زمن وهي تقرر أن تعمل. اليوم أصبح القرار ملزم التنفيذ. قبل أيام ذهبت إلى الجامعة لتفعّل قيدها المنسي منذ سنين. كلفها ذلك الكثير من الجهد والمال. بالإضافة إلى معاملة وإجراءات ربط القيد، شغلتها كذلك معاملة وإجراءات تغيير الاسم، لم تقل لهم إنه تغيير بل تصويب: من نشوة إلى نشوى، اضطرها ذلك للعودة إلى سجلات الثانوية لتصويبها هي الأخرى.

بسبب أولاده الذكور وخوفه منهم، كان لا بد للأب من أن يسمّي حصصاً مالية، تصب في أرصدة بنكية للجميع. في سياسة

يحقن بها دم ماله من الهدر والاعتداء. ولم تكن الحصص على أساس للذكر مثل حظ الأنثيين. هذه فرض رأيه فيها. كانت الحصص بحسب عدد أفراد أسرة كل منهم. وطبعاً من ليس له أسرة مثل نشوى فإن حصته قليلة ولا تكاد تذكر. ومن كان مثل «عارف» فإن له أمه لا تدع له حاجة إلا تلبيها، ليس فقط من مالها بل أيضاً من مال أبيه. لا تكف عن ترداد: «هذا ولد له كرامته بين الناس»، وأحياناً تهدد بما يمكن أن تكون عليه حال هذا الولد مستقبلاً بين إخوة بهذه السعة من المال. كلام أمهات يتحول إلى رصيد مالي للأولاد فقط. سامية كان دخلها قليلاً، ومصاريف تعليمها من جيب أبيها. نشوى أيضاً كانت تسدد مصاريف تعليمها، من مدارس خاصة ومعاهد لتعليم اللغة الإنكليزية. اليوم عاودت الدراسة الجامعية وتحتاج إلى سداد المصاريف، لكنها لا تجد في نفسها الرغبة في الكلام بمثل هذه الموضوعات المالية مع أسرتها، ولا غير المالية. كل ما يخصها هو من حقها وحدها، وعليها وحدها أن تحل مشكلاته.

أمس ذهبت إلى بيت أبيها. لم تكن أول مرة تكون في بيت أبيها بعد السجن. في الواقع، هذا البيت هو الذي استقبلها يوم خروجها من السجن. بعد أن قذفت بها سيارة مجهولة ببابه. قضت فيه بضعة أيام ساكتة إلا من بضع كلمات. تحيط بها أحضان لا تشعر بها. بما في ذلك حضن أمها. لقد أسرفت تلك الأم بذرف الدموع، دموع بللت ثوب نشوى، لكن لم تبلل شعورها لا تدري لماذا؟ واستغربت أحضان أبيها، بذل جهداً ليقتصد في تلك الأحضان. لكن لم يستطع ترشيد دموعه. على

ماذا يبكي هؤلاء، على من؟ إنها لا تشعر بشيء حولها ولا حتى بجسمها. كل الذي كان يستأثر باهتمامها تلك الأيام، كان الضوء والفضاء. كانا ثقيلين على جسمها. تقبّلهما من جديد كان يحتاج إلى وقت وإلى تمرين.

في حجرة أبيها ذكرت نفسها بأنها تدخل خلسة كي لا يحدث شيء مما هو متوقع، كأن تدوخ بها ذاكرتها. إنها حتى لم تتذكر. لم تسمح لشيء أن يخطر لها، غير هذا الفعل؛ دخولها خلسة ونيتها السرقة، مثل فترة ما قبل السجن. في هذه الحجرة كانت يدها تمتد للسرقة من دون أي خوف. اليوم أيضاً ليست خائفة، لكنْ ثمة شعور غريب. هذه أول مرة لا تمتد يدها إلى خزانة مترعة بالقوارير أشكالاً وأنواعاً. كانت تدس يدها تتحسّس رؤوساً وكائنات ملساء، لا تسأل أياً منها ماذا تكونين، تخرج يدها بقارورة كيفما اتفق، وتغادر بها حتى من دون أن تلقي نظرة إليها، ليس خوفاً لكن كان قد أصبح الفعل اعتيادياً. اليوم، يدها تمتد إلى خزانة مفتوحة وسافرة ويعلوها التراب، ورعشة تسري في يدها، في ساعدها، في بدنها كله، وحيرة تعصف برأسها، أيَّ هذه الكتب تختار؟ أخيراً قررت أن تسرقها كلها، لكن ليس دفعة واحدة سينفضح الأمر، هذه الكتب هي أثيرة أبيها، ولن يسمح بمجرد خروجها من بيته، ولو على سبيل الإعارة. ستسرقها واحداً واحداً، فلا مشكلة إذاً في الاختيار، ستأخذ هذا أولاً: «اليمن عبر التاريخ» لأحمد شرف الدين، وهذا: «هذه هي اليمن» لعبد الله الثور، وهذا: «أحمد حميد الدين» لأحمد الشامي، و«أضواء على طريق اليمنيين» لمحمد أنعم. و. . .

تنبهت إلى أنها بهذا الشكل لن تتوقف. لملمت مسروقاتها في جريدة، أكثر من جريدة، تماماً كما يدخل أبوها بقواريره ملفوفة بالجرائد. انتهت المهمة. في طريقها إلى باب الخروج، تلفتت إلى الخزينة الأخرى وتراجعت خطوات باتجاهها، فتحتها على مصراعيها، وقفت تتخيّر: ماذا؟ الشمبانيا! هذه كانت الأكثر استغراقاً لوقتها وتفننها في تحضير مازتها وتقديمها. لفتها هي الأخرى بجريدة. أغلقت الخزانة وخرجت كأنْ لم تدخل الغرفة. غادرت البيت كله كأنْ لم يعد لها حاجة به وليس فيه ناس تودعهم.

في الواقع، لم يكن في هذا البيت من أحد تتحاشى أن تصطدم به، أو حتى تقابله على سبيل المصادفة العابرة، أكثر من سامية. لقد أصبحت هذه تتصرف وكأنها ولية أمرها، كأنها ولية أمر هذا البيت كله، والمسؤولة عنه. نعم هي الآن العاملة الوحيدة فيه. لكن عليها ألا تنسى إنها تربض وتتربع على ثروة الجميع هنا، ليست ثروتها هذه التي تنفق على الجميع. بل لقد تعطل خير تلك الثروة بمجرد جلوسها على كرسي إدارتها. تهرب من سامية، من سؤالها الذي يشبه سؤال ولاة الأمر عن حالها. كم تبدو لها مضجرة ومملة وهي تقول لها كل مرة: «أنا أخاف عليك».

٣

سيتغير في رمضان نظام اليوم، هذا ما فرحت به زينب.

نصف نهار قراءة. هذا مقرّر رجاء، فرضته حبياً طبعاً على صديقتها. فيما عدا الروايات، زينب لا تطيق أن تقرأ شيئاً من

الكتب التي أخرجتها لها صديقتها، وخصوصاً كتب «الأول الثانوي». كتب المدرسة والدراسة كلها، غير قابلة للهضم. لن تقرأ في رمضان.

قضت زينب نصف نهارها تشارك في تنظيف البيت. البيت الذي يحرص على نظافته. يوحي لمن يراه أنه بيت طفلات أو تلميذات مدرستهن لا تعلم شيئاً غير التنظيف. البيت الذي نظافته تفسد ساكناته، ما إن يعدن إليه يفكرن ألاّ يخرجن منه البتة. نظافة أو أمان يعلم الكسل. البيت نظيف دائماً، ومع ذلك في المواسم يجري إعداده وتجهيزه فيصبح يشبه طفلة في يومها الأول في المدرسة.

إنها تقيم به منذ بضعة أشهر. أحبته، للوهلة الأولى ارتاحت له. وإن كانت لا تجد مبرراً لوجودها فيه. إنها منقطعة لا تعرف عماذا بالضبط. انقطعت عن «الحرام» بالتوبة. ثم؛ داخل التوبة وفي البيت الذي كانت فيه زوجة، ذات زواج غريب، انقطعت عن التوبة. ما هي الآن؟ لا تعرف!

قبل وقت كاف، احتشدن لاستقبال الشهر. غسلن الثياب والأثاث والجدران. جهزن عجين السمبوسة. اشترين التمر وفصفصنه ووزعنه في جرعات. نقعن قمر الدين، وقديد البرقوق البلدي، والزبيب. قربن السجاجيد وأردية الصلاة. نفضن الأتربة عن المصاحف. حتى التي لا تجيد القراءة والكتابة لديها مصحف تخرجه من أعطاف ثيابها في الدولاب، لتضعه قريباً نصب عينيها.

الجو رمضان! اليوم الأخير في شعبان هو يوم خاص في

صنعاء، اسمه «يا نفس ما تشتي؟» يُحتفى فيه بقدوم الشهر الكريم، يسأل الناس أنفسهم: ما الذي تشتهيه قبل أن يسلموها للصوم. يتبادلون التهاني ويجتمعون على موائد وجباتها آتية من كل بيت. كل واحد يجلب معه وجبة أعدها أو اشتراها. أسر العائلة في ما بينها، والأصدقاء في ما بينهم، والصديقات في ما بينهن. جماعات لا اختلاط فيها إلا في الأسرة الواحدة. حتى أفراد العائلة الواحدة، الذكور لهم مائدة تخصهم (من إعداد نسائهم طبعاً) والإناث لهن مائدة تخصهن.

مثل كل البيوت أعدت بنات هذا البيت ليوم «يا نفس ما تشتي». كل واحدة منهن تفننت بإعداد شيء، بل بأكثر مما تفعله البيوت عادة، لم يقفن على الأكل فقط، إذ جلبن الورد، الشرائط الملونة، أناشيد وأغاني الترحيب بالشهر. إنه عيد.

الجو رمضان، الكل ينقطع إلا عن الصلاة والصوم.

في صنعاء مثلٌ يضربه البعض في نوع من طرافة أو تَندّر على حالهم، إذا ما كسد لهم عمل أو تعطل رزقه لظرف ما. والكساد في اللهجة الصنعانية يطلق عليه اسم: «بورة». يقولون في المثل: «مبور بورة قحبة في رمضان». في الواقع، ليست فقط القحبة التي تتعطل في رمضان. يتعطل كذلك: القضاة، والمحامون، والبرلمانيون، وبعض التجار، وبعض منتسبي الوظيفة العامة، يجدون أن طبيعة عملهم تتنافى مع الشهر الفضيل! كل هؤلاء إضافة إلى الشياطين والمردة، يتصفدون!

لكن هؤلاء؛ نزيلات هذا البيت، الفرحات بعطلتهن هذه، هل ادّخرن لهذا الشهر ما يكفي.

سبع بنات، صرن بزينب ثمانياً. تهيّأن لشهر استثنائي، كل شيء فيه استثنائي، هدوء صباحه، بهجة لياليه وأنسها، طعامه، منامه، قصصه وأحاجيه، كل شيء فيه.

في بيتهن هذا الذي لا يفتح أبوابه للزوار، حل ضيف اسمه رمضان.

ليس في حياتهن غير الله. يعلم الله كم هو محبوب في هذا البيت. حب لا ينتظر مقابلاً أو ثمناً. حب يتعمّد بالدمع والضحك والرغبة، رغبة لا أحد يعرف في ماذا، تتسامى وترق وتعذب لتصبح هذه الشفافية التي ينادين فيها الله. فجأة يرتفع صوت الواحدة من هؤلاء بالنداء: يا الله! ينتظر الصاغي ما الذي ستقوله بعد؟ لا شيء، يا الله وتسكت. لا طلب، لا أمنية، لا شيء، حبيبٌ هذا هو اسمه، وهكذا ينادى، من دون سبب مسمّى.

ثماني بنات احتفين بالشهر الكريم، يوماً بيوم، ساعة بساعة. هل من شهر كهذا. الله فيه هو رب المائدة والسهر والنوم والصحو والفرح. الله رفيق الإفطار، الوقت الذي كله تحسّب وانتظار. الله رب الرجاء والأمل والخوف واللوعة والحسرة والهجران والغربة والوحشة. والبيت الذي أمسى من خلفنا لا تراه الأعين، والبيت الذي بين أيدينا ولا نراه إلا بضوء من حب. الله الحب الذي من طرف واحد، ولا نطلب أكثر. لا نمنّي أنفسنا بما هو أكثر. ليس ثمة أكثر. لا شيء أكثر من أن نحب.

ثماني بنات، هل ادّخرن لهذا الشهر ما يكفي. كل هذا الذي أخرجنه من خزائن أشواقهن. هل ثمة أكثر؟ هل ثمة بيت أغنى أو

أكرم من هذا؟ فلماذا يقولون إن الله لا يحب هذا البيت، ولا يتقبله؟

بكين على الشهر، على خروجه. كما لو كان الخارج أباً، لن يرينه إلا بعد مرور عام. زكّين، وتصدّقن، وعيّدن. ثلاثة أيام عيد بعدها عاودن العمل. جميعهن عاودن العمل بنشاط إلا زينب، لم تزل منقطعة لا تدري عماذا!

٤

لدى نشوى اليوم حفلة انفرادية لن يحضرها أحد. ستحتفل باجتيازها الترم الدراسي. بقيت لها سنة. هانت. ستشرب كأساً وتقول لنفسها: عقبى للتخرج! سرّعتْ من حركتها في البيت. تنظفه وتهيّئ جواً لأول حفل انفرادي في هذا البيت. في الواقع، لم يكن أول حفل. كانت لها حفلات صغيرة كلما انتهت من قراءة كتاب، من تلك الكتب التي تسرقها من خزانة أبيها. لم تكن تقرأه وحسب، كانت تدوّن ما يهمّها منه. أصبحت لديها أجندة عامرة. في كل حفل كانت كأس واحدة تكفيها. لهذا بقي لديها من آخر قارورة ما يكفي لحفل اليوم. في الواقع، لم تكن تقصد الادخار، وإن كانت ميزانيتها اليوم تقتضي ذلك. حتى لو نفدت لن تشتري. لم يحدث أن ذهبت لشراء شيء من هذا. أصدقاؤها كانوا يجيئون بقواريرهم. ترتص في دواليبها وقد أصبحت أنصافاً وأرباعاً. والمهم أنها لم تكن تقتصد. كانت لا تجد وقتاً تشرب فيه ولا مناسبة. الشرب ألذ حين يكون بموعد

لا يكون لديك فيه شيء غير أن تشربي كأساً، وبمزاج عالٍ بطقس.

تأملت الشقة من حولها. يا لجمال أن تكوني في مكان نظيف. الحقيقة أن الواحدة منا لا يمكنها إلا أن تكون جزءاً من المكان الذي هي فيه. صعب أن تشعري بنظافتك في مكان متسخ. والعكس صحيح أيضاً. ما الذي بقي؟ الحفلة.

غيرت مكان الطاولة الزجاجية، حتى الكنبة ومقاعد الصالون، لم يعد كل ذلك يتوسط الصالة كما كان من قبل. أعادت توزيعه لقطع متفرقة، في أماكن لا تظهر فظاظتها، لا تحدث فيها جلبة. تحت نافذة هنا، عند جدار هناك. والمهم أصبحت لديها صالة واسعة تسرح فيها وتمرح. أحياناً تنام هنا، على الفراء الذي أخرجته من دواليبها. كان مهملاً ومرفوعاً بعيداً في الرفوف. أربع قطع صفتها في منتصف الصالة. الواحدة منها تتصل بغيرها من زاوية ومن زاوية تتصل بأخرى. شكلن نصف دائرة في اتجاه ونصف دائرة في اتجاه معاكس. وضع الأشياء فن، يجعل منها كائناً ينطق. رفعت القطع لتعاود رصها في وضع آخر. اليوم حفل، يلزم بعض التغيير! رصتها على الأرض، كما لو كانت تعدّ وترتب سريراً. تريد طاولة بقامة عشرين سنتيمتراً. ليس ثمة طاولة بهذا الارتفاع. ذهبت إلى المطبخ، جلبت طبق سيرفس كبير من الخشب. هذا يصلح طاولة. وضعته على الأرض ووضعت عليه مائدة الحفل. تأملته، لم يعجبها. لم ينجح في أن يكون طاولة خشب، لم يزل طبق سيرفس. لا بد من شيء من الارتفاع. كفأته على وجهه. لم يرتفع قدر سنتيمتر واحد. حوافه

انغمست في فراش الفراء. جميل هذا، يبدو كأنه طالع من لحم الفراء. رصّت عليه مائدتها، قارورة خضراء، لون داكن لا يفضح القلة التي تنطوي عليها هذه القارورة إزاء كل هذا الإعداد. كأس بخصر وعنق، كأس صنعت من يومها لهذا الحفل. ليس كوباً يحتاج إلى وقت كي يصدق أنه أصبح كأساً. بعض الخضار الموزع في قطع مستطيلة ومستديرة وتشكل باقة طبق. طبق آخر بشرائح جبن. آخر بشرائح لنشون. بعد قليل ستتغيّر هذه المائدة، لكأس جديدة ومكسرات. والمهم الموسيقى، نهضت لمسجل الكاسيت، أطلقت همهمات «الساكسفون» لتتوغل عميقاً. وجلست لتشرب يوماً هانئاً. يوم آخر يستحق أن يعاش.

الساكسفون يتوغل أكثر، تسبح، لا تسأل أين. الحياة لذيذة بذاتها. وتستحق أن تُشربَ إلى القعر. فرغت قارورتها الخضراء، ولا تزال تسكبها وتردّد: إلى القعر.

انتهى يومها الهانئ. لم تكن الساعة قد جاوزت الحادية عشرة. لم تغيّر مائدتها، أو حتى تزيحها عن منامتها. نامت حيث هي، على الفراء الناعم بلونيه الأبيض والأسود، بعضه أصبح ملاءتها. غرقت. كل ذلك كان جزءاً من نومها.

بماذا حلمت تلك الليلة؟ غير واضح. ربما لم تحلم. ربما لم يكن نوماً. ربما كان مشهداً في فيلم أصبحت تجيد أن تنتجه. تؤدّي كل الأدوار فيه وتخرجه هكذا، كما تريد!

هل غيّرها السجن؟ هل حقاً كان لا بد من أن تسجن، كي تتغيّر؟ كي تؤول إلى هذه الهادئة. ليست هادئة. لم تؤل إلى شيء. لم يغيّرها السجن الذي كانت تتحرك فيه بمساحة لا تزيد

على مترين وبلا ضوء. الذي صدمها فعلياً هو السجن الذي خرجت إليه، الذي بهؤلاء البشر كلهم. ومثلما كانت تفتش في سجنها ذاك عن موضع لتقلبها في النوم، تبحث في هذا السجن الكبير عن موضع لحركة لا يحد منها جدار الآخرين. يخيّل إليها أنها لو دقّ رأسها بشخص وجاءت لِتمسك برأسها فإن ما ينثال على يدها من أثر هذا الشخص هو أتربة أو غبار. شخص من الحديد البالي، من الحجر المرتص في كومة الناس. ناس يتكوّمون كالمقابر أو الخرائب المهجورة من دون أن تدرك، مهجورة بذاتها. لا تشعر بفراق أحد أو بغياب أحد. لا يشكل غياب أحد فيها نقصاناً، ولا حضوره يضيف إليها واحداً. لا تسأل عن أحد. عمن تسأل وهي عددها لا يزيد ولا ينقص.

نشوى لا تحلم لا في النوم ولا حتى في اليقظة. ثمة أحلام لكنها من قبيل ما لا يدرك ولا يفسر، والإصرار على مطاردته بالتفسير هو إصرار على سؤال سجان: ما الذي كنت تقوله قبل قليل على سبيل التعذيب؟

لم تسأل من الذي سجنها. نافذون في دولة؟ أم دولة؟ ما الفرق؟! لقد كانت في معتقل سياسي، لا ريب في ذلك! العطن والرطوبة والظلمة، كانت أحياناً تسمع أصواتاً. وأحياناً تشك في أن تلك الأصوات هي من تخيّلها.

يزهون: «لم يعذبك أحد، كنت مجرد ضيفة» صحيح، ما المعذب في ذلك؟ ضيفة، المضيف: معتقل. والضيافة: اعتقال. يا لجحودك. مئة وثلاثون يوماً من المكرمات. كان عليها أن تشكر ضيافتهم الكريمة تلك.

من الذي اعتقلها؟ هذه مسألة تفاصيل. هل كانت أجهزة السلطة مجرد أدوات تنفيذ؟ هذه ألعن! هذه مصيبة لا حل فيها ولا فكاك لأحد. أختها تقول لها: «لا تصدقيش نفسش!» ما الذي يطلب إليها ألا تصدقه! أن جلدها التصق بثوبها، بالجدار، بالطمث، بالإسمنت. أنها قضت مئة وثلاثين يوماً خارج الهواء والضوء والزمن. لولا ساعتها التي نسوها معلقة على يدها، لما عرفت اليوم من اليوم الذي قبله، من الذي يليه. ساعتها الرقمية التي تحصي الساعة واليوم. ربما لو لم تكن ساعتها هكذا، لجاؤوها بساعة مثلها تعد وتحصي. تركوا لها عداداً كان جزءاً من عذابها، أنها خارج الزمن. حين تكونين خارج مكانك فأنت بالضرورة خارج الزمن. تنعدم الجغرافيا والأبعاد حين تكونين في مكان لا تعلمين أين. تنعدم في المكان صفة أنه مكان، عندما لا تطلين من خلاله على ما حوله من عمران أو حتى فضاء، يصبح جسمك جزءاً من الجدران التي هي نهاية العالم.

ما الذي يطلب إليها ألاّ تصدقه؟ لقد أكلت وتبرزت في الإناء نفسه. كان يشتبه عليها الإناءان في الظلمة. تمد يدها تتحسس، ربما كان هذا خراء غرفة مجاورة دفع به إليها لتأكل. طعام له الرائحة نفسها!

حسن لن تصدق! لكن ليجبها أحد: لم تكن معتقلة لسبب سياسي! ما هو السبب السياسي!؟ الأسباب درجات والمعتقلات كذلك! فما هو السبب غير السياسي، الذي كان ذلك المعتقل «المخفف» جزاءه؟

سياسي؟ أم غير سياسي؟ المعتقل الذي هي فيه اليوم. تفسح

الجدران عن الخطوة التي تخطوها، والفراش الذي تمدد فيه قدميها. وتغسل الإناء الذي تأكل فيه، تغسله مرةً، ثلاثاً، سبعاً. ومع ذلك لا ينضح غير الخراء. هذا الخراء هل هو سياسي، أم ليس سياسياً؟

* * *

احتفت رجاء بافتتاح مكتبتها. الآن بوسعها أن تقول أصبح لديها مكتبة. تعبت في جمع الكتب. ذات الكتب التي كانت قد عاشرتها في غرفة سيف. كانت لها رائحة خاصة، وكانت على موعد معها. كلما طلبت إلى سيف أن يعيرها واحداً منها، يقول لها: لا تزالين صغيرة على قراءة هذه الكتب، لن تفهمي منها شيئاً. هل فهمها العسكر الذين دخلوا غرفته لاعتقاله، ولمصادرة أفكاره. لماذا ينهب العسكر الكتب بالتمزيق؟ كانت ثياب سيف، والقروش القليلة التي كان يخبئها في جيوب غرفته، يبعدها عن متناول يده هنا وهناك، أحذيته المرقع بعضها. كل ذلك كان صالحاً لأن ينهب. الكتب مزقوها. يا لأمية العسكر وطرائقهم الغريبة في القراءة.

كبرت رجاء، وأصبح بمقدورها أن تقرأ كتب سيف. قرأتْ في الشهر الماضي «اللامنتي» لكولن ولسن، «قصة الإنسان» لجورج حنا، «عاصفة على السكر» لسارتر.

قرأتُ كل تلك الكتب يا سيف، بقي فقط أن أفهمها. حضنت كتبها، حضنت فيها «سيف»، وأغمضت عينيها على نصف نوم ونصف دموع!

* * *

انتهى البيت الدافئ، البيت الذي أرضيّته من الطين، الطين الذي ينضح بالرطوبة والعشب معاً. البيت الذي احتضن عملها واحتضنها للسنوات الثلاث الأولى. بعدها أصبح لا بد من انتقال جديد.

يقولون ثلاثة أشياء لا يمكن إخفاؤها: الحمل والحب والبصل. عائلتها أضافت شيئاً رابعاً هو المال. كثرت الفلوس في يد العائلة وأصبحت تهدد بانفضاحها. ثم إنه أصبح لا بد من أن تفكر بحياة أفضل لأسرتها المكونة من ستة أفراد بنتين وولدين وأبوين. ثمة جديد في الحسبة. لم يتغير العدد، الأسرة استقبلت مولوداً جديداً، وودعت رجاء. انتقلت إلى البيت الجديد المكون من خمس غرف وصالة ومطبخ وحمامين. نقلة شاسعة. ستسعد تلك الأسرة ببيتها الجديد، لن تفكر في بيتها القديم، الذي من الرطوبة والعشب. وإن ذكرته، فلتحمد الله على حالها التي تغيرت إلى الأفضل. رجاء وحدها التي حنينها إلى البيت، لا مدخر له، لا ذاكرة. لا بيت لها، غير ذلك الذي طينه ينضح بالرطوبة والعشب. حين فرّطت بذلك البيت، كانت تفرط ببيتها إلى الأبد. كانت تحل ضيفة على أسرتها لشهرين إلى ثلاثة أشهر كل عام. لا أمرّ من أن تكوني ضيفة في بيتك. لا أدري أين تكمن المرارة على وجه التحديد. في الزيارة، في الزائرة، في الناس الذين تزورينهم في بيتك، في البيت الذي هو بيتك لكنه يخلو منك، لا يدل عليك في شيء، لا يحفظ لك رائحة ولا لمسة ولا صدى لصوت اندفع منك هنا أو هناك، لثوب نزعته عن جلدك وبقي نائماً على الأرض ليوم أو أيام، لوعاء أكلت فيه فأصبح وعاءك، لملعقة

يعرف إخوتك فوق المائدة أنها ملعقتك، فيأخذون ملاعقهم ويدفعون إليك بملعقتك. لا شيء لك في هذا البيت الذي هو بيتك، ولست أحداً فيه، لست أكثر من ضيف، يعكر برنامج أسرة مستقرة، حدث طارئ في حياتها لفترة محددة ويعود كل شيء كما كان، قبل أن تحل عليهم هذه الزائرة، بعد أن تغادر هذه الضيفة.

في كل مرة، كانت تقع على أسرة زادت واحداً، اثنين، ثلاثة، أربعة. تدرك هذه الزيادة، ليسوا غرباء هؤلاء الذين يزيدون، إنهم إخوتها. تدرك ذلك، تستطيع أن تحس به! المشكلة ليست في زيادة هذه الأسرة، بل في نقصانها. ثمة شيء ناقص. ثمة شخص هو أساسي في هذه الأسرة لكنه غير موجود. ليس ضمن الأسرة، ليس أحد أفرادها. هي مجرد ضيفة، ربما ضاق بها بعض سكان هذا البيت، للجلبة التي يحدثها قدومها.

هي خطة العمل نفسها. السيناريو نفسه منذ البداية. في البيت الأول، كان اسم العملاء في مسوّغ العمل «خطاب». ضاق المسوّغ. كان لا بد من الانتقال إلى مسوّغ جديد أوسع قليلاً. تغيير المسوّغ كان نفسه تغيير البيت. المسوّغ الثاني الذي كان اسم العملاء فيه: أصدقاء الوالد. ضاق هو الآخر. ثلاث سنوات، ألم يئن لمدخرات الأب أن تنفد. كيف تعيش هذه الأسرة؟ من أين تنفق؟ من الأصدقاء؟ لماذا؟ ضاق المسوّغ. أن يضيق المسوّغ معناه أنه ضاق البيت. لكن هذا فقط بالنسبة إلى أسرتها. بالنسبة إليها لم يضق البيت، بل ضاع. في الانتقال إلى المسوّغ الثالث، إلى البيت التالي، لن تكون موجودة. هكذا، بكل اختصار.

في السيناريو، كان المسوّغ الجديد ينغلق على عميل واحد، صفته: زوج بحفنة شروط: أن يكون ثرياً يبرر تلك الانتقالة من حال إلى حال. أن يكون من خارج هذه البلاد يبرّر غيبتها، أخذها زوجها وسافر، أين؟ في الخليج! الأموال التي تفد من الخليج لا أحد يشك في شرعيتها، ولا يسألها لماذا. ومع ذلك؛ ووفقاً للسيناريو، هنالك إجابة: زوجها ثري، وعلى الرغم من ذلك أصرت على أن تعمل لتعول أسرتها. لم يحدث أن سأل أحد في البيت الجديد ما هو تعليم ابنتكم؟ أو فكر بسؤال ماذا تعمل؟ ومع ذلك، في السيناريو جواب، على الآخرين فقط أن يسألوا، الإجابة جاهزة، ومخطط لها سلفاً. لا أحد يسأل. كلما اتسع ثراؤك بين الناس، تناقصت أسئلتهم. البيت الرابع والأخير أصبح بيتهم الملك. فيلا بحجرات كثيرة وحوش. لم تدخله! لكنها هي التي خططته. المهندس رسم المخطط، لكنه كان يرسم خيالها. وهي التي بنته، المقاول هو الذي نفذه، لكن العرق الذي سال كان عرقها. العرق الذي آل إلى حجارة وشبابيك وسقفين وحجرات بأبواب تنغلق من الداخل وصالات وزوار وحوش بأشجار وأمكنة للسيارات. هل تزورهم جارتهم القديمة حميدة؟ لا بد من أنها تزورهم وتتحسر على حوشها وسيارتها. لم تكن طموحة بما يكفي، مسوّغات التغيير لديها كانت إلى النازل. هناك فقراء يعشقون الفقر. ويتفننون في صناعته. ويلتذون به كما لو كان الفاكهة الوحيدة التي خلقها الله. يشعرون بها وكأنما خلقها الله لهم تحديداً. خصّهم بها، فهي حب الله لهم. يحبونها أو يحبونه فيها. حميدة دخلت الفيلا، والتذت في

حوشهم، لا بفاكهة الحوش، بل بالفاكهة التي خصها بها ربها. هل حميدة أوفر حظاً لأنها تستطيع أن تدخل الحدائق والأحراج وحتى الأماكن المجدبة، تجلس في هذه، كما تجلس في تلك. تخرج فاكهتها وتقضم، من دون أن تخاف أو تخجل.

كان بينها وبين بيتهم السابق شارعان، بمسافة لا تزيد في مجملها على مئتي متر. الآن ثمة شوارع إضافية بمسافة لا تزيد في مجملها ربما على ألف متر. كيلو متر واحد لكن الحي نفسه. هم أقرب إلى «حدة»، وهي أقرب إلى «بير عُبيد». إلى يمينها حي بدرجات ثراء متصاعدة، من ثري، إلى الأكثر ثراءً، إلى فاحش الثراء. إلى يسارها السلم يواصل تنازله إلى الفقر المدقع.

يحدث أن تطوف حول تلك الفيلا من حين إلى آخر. لا يعرفها أحد، لا أقصد الجيران، لا يعرفها أحد من أهل الفيلا. حتى وإن وقف الواحد منهم قبالتها وجهاً لوجه. لا أحد، لا شيء غير قامة طويلة من السواد الخالص. من الذي يفكر أن «ينط» إلى داخل سواد عابر. جوار جدار شاهق، قرب بوابة آمنة، غالباً هي مفتوحة، أهل هذا البيت كثيرون، في حال دائمة من الدخول والخروج، هم وزوارهم. أصغر سكان هذا البيت، بنت في الرابعة من عمرها. حلوة، تتقافز وتجري في الحوش. ضحكتها تصدح. ستحضنها لو اقتربت قليلاً من البوابة ستأخذها بحضنها لثوان فقط. لن يلمحها أحد، وإن لمحها فما الذي في ذلك. من الذي يصمد أمام ضحكة كهذه لا يحضنها، حتى لو كان سواداً ماشياً في حال سبيله.

لم يعرفها أحد. ولم يعد جفنها يرتعش لملاقاة أحد من

الخارجين من هذه البوابة. لكن في تلك المرة، كان الخارج امرأة في الثالثة والأربعين.. ارتعش؛ ليس فقط جفناها، كل شيء فيها كان يرتعش، لا تدري من الخوف أن تراها أمها، أم من الخوف ألاّ تعرفها. لم تقف الأم، لم تتلفت حولها. كانت مشغولة بما تفعله. كانت تفتح البوابة على مصراعيها لخروج سيارة. أفسح السواد طريقاً، من دون أن يذهب بعيداً. خرجت السيارة. أُغلقت البوابة. خرجت المرأة، لتأخذ مكانها في السيارة إلى جوار زوجها، الذي سيندفع في سياقة السيارة، قبل أن يترك لرجاء أن ترى إلى هذين الجالسين، إلى تفاصيل وجهيهما. أمها كان وجهها خلف خمار، لكنْ أباها! كان يمكن أن ترى وجهه، وعينيه. طار بسيارته!

على بعد شوارع قليلة من هذه الفيلا. بمسافة لا تزيد في مجملها على ألف متر، بيت قد لا يكون بيتاً، فيه ابنة بارة بوالديها وأولادهما.

لم تكتب ذلك على جدار الفيلا. إلا أنها في البرد تنحفر هذه العبارة في بالها لكن مقلوبة: في البيت الذي قد لا يكون بيتاً، على بعد شوارع قليلة من هذا البيت، بمسافة لا تزيد في مجملها على ألف متر، فيلا بجدار سميك.

كل هذا البكاء هو نوبة شوق، تشتاق إلى حضن أبويها. هل لو حلت عليهما ضيفة لأيام تكف عن هذا البكاء. تخاف من تلك الفيلا. تخاف من كل تلك الحجرات والأبواب التي يمكن أن تفتحها، لكن ليس مؤكداً أن تجد حضن أبويها. الحضن الدافئ الذي انطلقت منه إلى هذا المنفى.

لا تريد أن تصبح قوادة. تلتهم الدروس، والتدريب، اللغة، الكمبيوتر، الإنترنت. هل يخلصها كل ذلك من المصير المحتوم؟

٥

الجيد أن زينب أيضاً عاودت الدراسة. سجلت في مكتب الأمانة لتختبر الأول الثانوي وتواصل. البداية كانت صعبة. طبيعي ذلك. من قبلُ كانت مستحيلة، ثمة تطور من المستحيل إلى الصعب، ولا بد من أنه يصير إلى الممكن. هذه فلسفة رجاء. رجاء تكثر التفلسف. تتعب من حولها أحياناً، لكنها تصبح أحياناً أشبه بالباب الذي نعبره إلى حال أخرى.

آخر مبتكرات رجاء، أنها وجدت لنفسها عملاً. العمل وجدته في الأساس لصديقتها العاطلة، أو كما تسمّي نفسها المنقطعة لكن لا تدري عماذا. العمل يتسع لأكثر من شخص. بل إنه يقتضي عمالاً في الشق التنفيذي منه. لكن زينب تمسك بالأوراق وتلامس الطابعة، كما لو كانت تمسك وتلامس الشوك. هكذا نبدو حين نفعل أشياء لا نفهمها. مسألة وقت تقول لها، مسألة تعلم. لم يستطع خيال زينب أن يبلور صورة لما تشرحه صديقتها. تجد المشروع خيالياً، ولا يمكن تحقيقه. زينب لا تصطبر على شيء. لا تستطيع أن تصبر، ولا أن تتخيل. لم تجد ما تقوله لها على سبيل التفلسف. التفلسف الذي يعني أنك انتهيت إلى حل هبط إليك كأنْ من السماء لكنه جاء من داخلك أنت. لم تجد ما تقوله لزينب. فجأة طلبت إليها أن تعاود سرد

قصة كانت سردتها في واحدة من ليالي رمضان الماضي. قصة بعينها تعرفها رجاء. لكن تريدها بسرد من زينب. هناك قصتان اثنتان. شعرت رجاء بأن واحدة منهما تخصها، لكن الأخرى هي ما تريد لزينب أن تعاود سردها الآن.

كلتا القصتين في السجن المركزي بصنعاء. تذكر ذلك. سردت القصتين: ليلى وحبيبها الذي من وراء القضبان، يطل عليها من نافذة بينهما. هو في بيته وهي في السجن المركزي. لكن بينهما نافذة ما، هو أكثر تشبثاً بها، لأنها، كما كان يقول لليلى، تحرره من قيوده. وسيرة عائشة، بحذاء أمها الذي أخذته خلسة من تحت فراش الخالة سعدية. سيرة الهرب الذي انتهى بها إلى السجن مرتين.

سردت القصتين، ورجاء لا تصغي للسيرتين بل لزينب. لم يحدث شيء! القصتان كما هما، لم تزد كلمة، لم تنقص كلمة. كأنما حفظتهما من كتاب أساطير، كذلك الذي ألفه «علي محمد عبده». حفظاً عن ظهر قلب. لقد كانت صديقتها «تسمّع» نصاً حفظته من كتاب الصف الرابع. أو «تحزوي»(٣) كما تفعل الجدات لتجمع الواحدة منهن أحفادها حولها، تأسرهم أو تشغلهم عن الضجيج الذي يزعجون به الكبار.

ولم يحدث شيء! كانت رجاء تتوقع، تتمنى أن تتنبه صديقتها لما تقوله، تشعر به، تنفعل، تتأثر، تستحي! نحن لا نخرج من كتاب إلا وقد صرنا أثراً لهذا الكتاب. بينما زينب

---

(٣) الحزوية هي الحكاية الشعبية. تحزوي: تحكي!

عايشت السيرتين، البنتين ليلى وعائشة، لامست بيديها أيامهما في السجن.

هل لهذا السبب! لأنها كانت جزءاً مما تقوله وتسرده. كانت داخل الإطار. لم ترَ إليه من خارجه، لتستوعب الصورة.

عذرت صديقتها. حين تريد أن تتفلسف ستكون هي الساردة، وستختار واقعة لم تشهدها زينب، لم تكن جزءاً من تفاصيلها، لتظل هكذا مشغولة بالجزء الذي هي فيه. حين نكون جزءاً من صورة، يصعب أن نرى إلى «كل» الصورة إلا من خلال ذلك الجزء.

٦

٢٠٠٠

الحجاب الذي ترتديه سامية عند الخروج، قسم وجهها إلى لونين. قسمة طفيفة لا تكاد تميز. لكن شعرها الشديد السواد يبرز ذلك. هي في غرفة نومها لكن بيدها أوراق عمل، تقف معها قرب نافذة بستائر زرقاء، إنها ستارة واحدة تنسدل منها ثلاث طبقات من الأزرق، نفس لون حجرة مكتبها.

في غرفتها خشب داكن ومرآة تعكس الأزرق. زرقة متدرجة. ملاءة السرير أزرق فاتح ووسائده كذلك. غطاؤه طبقتان من الأزرق، الشديد الزرقة، والداكن.

جلست على مقعد وثير موشى بالأزرق، من دون نظارة. في الواقع هي في البيت.لا تحتاج إلى نظارة قراءة، ولا أية نظارة. تراجع مسوّدة قرارات عائلية.

تتذكر السنوات الثلاث الماضية، كانت حافلة ومكتظة. وخصوصاً عام ٩٨م كان فارقاً بكل المقاييس في حياة عائلتها. بعد غياب أمين. غاب فجأة، من دون أن يخبر أحداً، أو يترك عنواناً. ظنه الجميع معتقلاً، لولا تأكيد العمة. ذهب الشك إلى أنه قتل. كان قد شاع في تلك الفترة أن حزب الإصلاح يصفي الخارجين منه جسدياً. شائعات من قبيل ما تبثه الأحزاب في ما بينها قرب الانتخابات. أمين بدأ خلافه مع حزبه أوائل عام ٩٧م لأنهم رفضوا النزول به مرشحاً في الانتخابات. خسروه كما خسروا الانتخابات. وغاب أواسط عام ٩٧م مخلفاً كل شيء لطارق. كل شيء؛ العمل، والبيت، وحتى مكانه في الجامع.

غياب أمين هو الذي شجع نشوى على تماديها. لم يستطع طارق وحده أن يلزمها بشيء من العقل. طارق نفسه اعتراه التغيّر وساءت حاله. تزوج على زوجته بشرى. يقولون تزوج أكثر من مرة!

عام ٩٨م، اقتيدت نشوى أكثر من مرة إلى قسم الشرطة، وكثرت فضائحها.

في العام نفسه، تراجعت أرصدة أبيها وحساباته. انتهى ذلك لتشميع بعض المخازن، إيذاناً لبيعها بالمزاد.

وفيه مات الحاج الهمداني وتضعضعت تركته وتفرق أولاده. ثم، بعد شهور قليلة، هربت ندى لا أحد يدري لماذا ولا إلى أين؟! ربما هروبها هو السبب في ما آلت إليه حال طارق.

عام حاشد بالمصائب. سألت نفسها: «هل، لو لم تكن

تلك المصائب، هل كنت الآن تجلسين هكذا للقرار في شؤون عائلتك؟»

ينبغي أن تفكر بدخل شهري لإخوتها. طال الوقت الذي افترضته العمة لتغيّرهم. ليصبح الواحد منهم يعتمد على نفسه، ويجد عملاً ينفق منه على نفسه وبيته.

في الواقع، لم يسر هذا القرار إلا على نشوى. أمين غائب وأولاده يعيشون في بيت جدهم. طارق عاد إلى بيت أبيه. ينام في حجرته القديمة. وبيت أولاده مؤمن المصروف من إيجار الشقة التي كان قد بناها. مراراً حاولنا إقناعه بأن يخضع لعلاج نفسي تحت إشراف الأسرة، لكنه لم يقتنع. قضى الأشهر الثلاثة الأولى لعودته داخل غرفته، لا يخرج منها إلا لقضاء الحاجة، يجيئه الطعام حيث هو. في الواقع، ليس به من علامات المرض غير شيء واحد: لا يرغب في العيش في بيته، بين زوجته وأولاده. عارف عكف في حجرته لفترة، وعاد إلى سيرته الأولى من السهر خارج البيت لساعة متأخرة. نشوى لم تعدل عن قرار العيش في بيت يخصها. وصعب أن ينتهي بها شيء لقرار العودة إلى بيت أبيها. جربنا كل شيء، هل أكثر من تجربة السجن! كل الذي تغير فيها أنها أوقفت جلساتها المختلطة. لم تعد تفتح بيتها للأغراب والخمور والفجور. ومع ذلك، في حساب الأرباح والخسائر، السجن كان خطأً فادحاً. لم يعد هناك ما تخاف منه أو تخاف عليه. أن تسجن اليوم بسبب فواتير أو دين ما الضير! لا ضرر يلحق بها. وليست خائفة على سمعة أسرتها. المؤسسة؛ سيعود عليها أكبر الضرر.

كل هذا مقنع. ولا مشكلة لأن تقنع به عمتها وأبيها. لكن المشكلة هي في التنفيذ، في الآلية. لقد كانت آلية أبيها ابتكاراً يصعب الوصول إلى مثلها. ولن تعود إليه، حتى لو استغنت المؤسسة عن ضخه المالي الذي آل كله إليها. كيف تقول لأبيها لم أقدر على ابتكار شيء مثيل. سيشك في قدراتها. ليس باليسير تحصلت على ثقته تلك. ستقول له وللجميع: لم تعد المؤسسة في حاجة إلى السيولة. لكن ذلك غير صحيح، إنه صحيح لكن ما الضير أن تصب تلك الأموال في رصيد المؤسسة. ليس جيداً أن تصب أموال في المؤسسة ما لم تكن تلك الأموال من عائدات المؤسسة نفسها.

ستجد سامية حلاً. ربما وجدته فعلاً، لكن لا بد من تلك الدائرة، وذلك الطواف بالممكن وخلافه، بما يلزم ولا يلزم. هذه آلياتها في اتخاذ القرار. هذه بعض آلياتها في بلوغ الهدف. ثمة آليات أخرى.

هدفها بعد كل تلك الدوخة، أن تضع بعض المال في يد نشوى. ليس هكذا، أن تدرج نشوى في مصروفات البيت الكبير ونفقاته. أليس هذا الحل هو الأفضل. تعرف أن هذا الحل لن يوافق نشوى. وقد يشط بها بعيداً في طريق الشرمطة. هي الآن تتشرمط بمزاجها. لكن لا نريد أن نعطيها دافعاً لتطور أسوأ.

باختصار؛ كانت سامية تبحث في الطريقة التي تصبح بها ولية أمر هذه العنيدة. لن يحدث! وعليها أن تبادر قبل الجميع لتجد مسوّغاً لدخل شهري لأختها. أبوها مهموم بذلك، كلمها غير مرة فيه. ولم تجد الحل بعد. قبل أن يتخذ القرار بنفسه،

ستعلن الحل غداً. حل لن يفضي إلى شيء، بقدر ما يفضي إلى زيادة غرور نشوى. تلقائياً ستجد رصيدها البنكي الذي كان قد انخفض إلى أبعد صورة، يعاود ارتفاعه شهرياً. هكذا، سامية لم تفعل شيئاً. لكن ما الذي تفعله؟ لا أحد يقدر أن يغيّر نشوى!

٧

عاشت نشوى يوماً عاصفاً من المهاترات والسب والشتم. اصطدمت بأكثر من جندي في الشارع. أما في الإشارات ونقاط التفتيش فكانت لا تتوانى عن الشجار، نوعاً من اعتراض لا رد عليه من أحد. شجار من طرف واحد. ولا أحد ليشاركها فيه. لم يكن في الشوارع غيرها. خلت المدينة من الناس، أو كما يقول عزيز «نظفت». كأنما تحقق حلم هؤلاء، أن تنظف البلاد من ناسها. «لا عيب لهذه البلاد إلا في الناس الذين فيها، إنهم حتى لا ينظفون أنفسهم». اليوم كانت البلاد نظيفة، أخلوا المدينة، أو كما يقول عزيز نظفوها من الناس. كل هذا ليستقبلوا ضيوفهم، لاحتفالات عيد لا علاقة للناس به، ليس عيدهم. وليست مدينتهم. هذه التي أهنت فيها اليوم، لم تكن مدينة أحد، لا أحد فيها غير العسكر، يحرسون المدينة من أهلها! في كل بضعة أمتار يلبث جندي للحراسة. النقاط للتفتيش. هي لم تفتش. المرأة لا تفتش في هذه البلاد، لأنها لا يعتدّ بها، لا أهلية لها، ليست أحداً، ولن تفعل شيئاً. وإن فعلت فليس لنفسها، بل لأحد غيرها، لماذا تُسأل هي، هم قادرون على

تهذيبها عبر وليّها، أبيها أو أخيها أو حتى زوجها. هي ليست شخصاً ليسألوه، هي «شيء» له من يسأل بشأنه.

تسأل، لا أحد يرد عليها. فقط يدفعون بها من سيارتها لتفسح الطريق. الطريق لمن؟ لسيارات الضيافة وأطقم الحراسة والدوريات. ما عدا ذلك لا أحد. الشوارع خالية ومفرغة ومقطوعة. المسافة التي تقطعها يومياً إلى بيتها، نصف الساعة طال اليوم لساعات. والمدينة خالية ونظيفة.

لمعوا المدينة. رفعوا قماماتها. زينوا الواجهات والنواصي. حتى البيوت التي على الشوارع الرئيسية، الشوارع التي ستنال شرف مرور الضيوف، لمعت واجهاتها. أسوار البيوت المهملة رُمّمت. كل هذا على شرف الضيوف. من أين لنا ضيوف طوال العام، لتبقى مدينتنا نظيفة. لكن والناس؟ ما دام الناس اقتنعوا بأنهم «وساخة» مكانها البيت، فليظلوا في بيوتهم.

لكن الذي أفزع نشوى ذلك اليوم هو الأشجار. حولوا عشرات الأشجار من طبيعية إلى اصطناعية. نقلوها من المكان الذي كانت فيه على قيد الحياة، إلى حيث أرادوا لها أن تقف لتحية الضيوف. أشجار طويلة لا تصلح أبداً لأن تكون أشجاراً للزينة. ما ذنب هذه الأشجار المجتثة من تربتها، من حياتها؟ اكتشفوا فجأة أنه ليس في مدينتهم أشجار؟ فما ذنب الأشجار التي اقتلعوها من موطنها، لتقيم هنا ميتة؟ هل عسكروا حتى الأشجار! إنها تقف مثل الجنود الذين صادفتهم في الشوارع. كل بضعة أمتار زرعوا جندياً. جنود لا يلوون على شيء، لا يملكون أن يقولوا لا. هكذا هم الجنود على الأرجح. لكن الأشجار؛ هناك

منها من قال لا، على طريقتها طبعاً، رفضت أن تقف. هل رفضت أم انهارت؟ تمددت شجرة أمامها بكامل طولها، شعرت بها تبكي قدرها، تنعي بلداً ينكل بالأشجار ويجتثها للزينة.

يا للرعب الذي يحدثه سقوط شجرة لتوّه. كانت تعبر بسيارتها الخط الدائري، إلى يمينها السفارة السعودية، بعد سورها انعطفت يميناً، بمدخل السبعين سقطت الشجرة! كادت تصطدم بها، اصطدمت بسقوطها!

لو كان لها أن تؤسس حزباً، لكان حزباً من أجل الأشجار! الناس؟ ربما ذات يوم كانوا أشجاراً، هم اليوم ذلك الحطب الذي يتكوّم، كل في بيته.

* * *

عام وأربعة أشهر في هذا البيت. عدد المرات التي خرجت فيها زينب تعد بالأصابع. كان على رجاء أن تتفهم ذلك العطل في رغبة صديقتها في الخروج من البيت، على الأقل في يوم كهذا. العيد العاشر للوحدة! وحدة من؟ وزينب مبتورة عن أهلها. وحدة ماذا؟ وزينب أبعد ما تكون عن هذا المكان، المكان نفسه الذي تعيش فيه لكن معزولة.

فقدت رجاء الأمل بإخراج زينب. تنازلت عن دعوة الغداء، وجلست تشارك صديقتها الصمت. لكلٍ حفلُه، ولكل حفل تقاليده. لم تقل شيئاً، ثم إنها لم يبق كلام لم تقله السنوات الماضية. لم تعد حتى تتساءل لماذا ذلك اليوم. لا شك في أنها مصادفة أن زينب خرجت من بيتهم ذلك التاريخ ٢١ مايو ٩٠م. ثمة حدث صغير، صغير جداً، أعاق عودتها إلى البيت. مصادفة

أنه وقع في ذلك التاريخ. لكن هل يتغير الوضع لو أنه حدث في تاريخ آخر؟ بعد ذلك اليوم بأسابيع، بأشهر، بسنوات. هل كانت النتيجة ستختلف عما هي عليه اليوم؟ لم يَجدّ من عشر سنين إلى اليوم جديد يسمح لزينب بأن تعود إلى بيتها في إثر حدث صغير كذلك الذي حدث في ذلك اليوم. سنة بعد سنة أصبح هذا السؤال فاجعة: هؤلاء الذي يحتفلون بالوحدة، بماذا يحتفلون بالضبط، ما هي القوانين التي أوجدوها ليحققوا وحدة بلاد، إذا كانوا لم يستطيعوا، لم يكترثوا أصلاً، أن يوجدوا قانوناً يحفظ وحدة بيت واحد؟

لم تضف شيئاً رجاء، لكنها على ثقة بأنه لو جاء زمن على ذلك اليوم لا أحد يحتفي به أو يذكره. زينب ستظل وحدها تحتفي وتتذكر: حدث مثل هذا اليوم، يوم الوحدة، بالنسبة إليها كان يوم الشرطة. كان الجميع متعاطفاً معها، ربما حتى الضابط (الخصم والحكم). لكنه وجد نفسه في ورطة! لم يرجع خطوة إلى الخلف، سار خطوة إلى الأمام. ماذا لو أن ضابطاً لم يرجع خطوة إلى الخلف، وأصر على خطوة واحدة إلى الأمام؟ تضيع زينب!

حتى الضابط كان متعاطفاً معها، لكن موقفه كان في الانتصار لنفسه. أصر على تثبيت المحضر، وتدعيمه بالشهود.

سائق التاكسي كان طوال الوقت متوتراً وقلقاً من أجلها. يريد إخراجها من القسم بأي شكل، وخصوصاً أنها هنا بسبب منه. كان صياحها في العسكر لتمنع ابتزازهم له. كان قد أخرج كل ما بجيوبه، نفض كل جيوبه ليقسم لهم إنه لا يملك غير هذه المئات القليلة، لكنها منعته حتى من استعطافهم والتذلل لهم.

لست مخطئاً، قالت له، لا تعطهم شيئاً! وهذه هي النتيجة! هي ترزح في القسم، وهو إلى جوارها كالكلب المربوط. لا يدري ما الذي يفعله من أجلها. عنَّد الضابط، أهانته. ليته قال أهانته. بل قال إنه ضبطٌ بسبب الاشتباه بسوء سلوكها الأخلاقي.

تعاطف بعض الضباط والحاضرين معها، زاد السائق تشبثاً بموقفه. لن يغادر قبل أن يوصلها إلى بيتها معززة مكرمة، هذا أقل واجب. لم يكن يكف عن سؤالها ما الذي يفعله من أجلها، هل تريد شيئاً، هل يشتري لها شيئاً من البقالة. هل تريد منه أن يخرج ليتصل لها بأحد بالتليفون؟ لا؛ أبي سيجيء الآن، وتنتهي المشكلة.

جاء أبوها، وبدأت المشكلة.

بعدما غادر الأب وقف السائق لبرهة كالأبله. ثم شرع يضرب يداً بيد، يحوقل ويستغفر و. . يغادر. كان قد شرع فعلياً في المغادرة، حين استوقفه أحد أولئك المتعاطفين معها، ليقول له إن ثمة حلاً: نعقد لك عليها وتخرج بها من هنا. هب محتدماً ككبش تم نفخه بآلة، قال: واحدة تبرأ منها أبوها، الله أعلم أيش وراءها. سكت فجأة كأنه تذكر شيئاً لم يقله في التحقيق. التحقيق الذي لم يقل فيه كلمة واحدة، لأنه لم يوجه إليه أي سؤال. قال بثقة الحاذق: «وأنا أيش دراني أن هذا كله ماهوش إلا تمثيلية بين الأب وبنته من ميد يلفقوا لي هذي البنت، و. . .».

قبل أن يتم جملته تلك، كان القسم يضج بالضحك لمنظره: كبش لوبره نتانة، ويرفض، ويحتد. بالنسبة إلى الضابط (الخصم) لم يكن يسخر منه حين دعاه ليثبت جملته تلك في المحضر.

ترجموا له «مداخلته» الوحيدة في المحضر، إلى اللغة العربية الفصحى، لتصبح تقرأ هكذا: وأنا ما أدراني أن كل ما حصل، سواء في التاكسي أو في القسم، كل ذلك ليس أكثر من تمثيلية، خطة نفذها الأب وابنته، غرضها توريطي بالزواج بهذه البنت. لتنقل من ذمة أبيها إلى ذمتي شرعاً وقانوناً.

شهادة دوّنت في المحضر، كإجابة عن سؤال: لماذا ترفض الزواج بالمتهمة؟

المجني عليه معها وقَّعَ شاهداً، وهي متهمة. والأب حضر شاهداً، وهي متهمة. الضابط، وهو الطرف الوحيد في هذه القضية، وقّع ضابطاً وهي متهمة! متهمة بماذا؟ المحضر لم يتهمها بالإخلال بأمن الضابط، ولا حتى بالإخلال بالنظام والقانون، ولا حتى بأمن الدولة! كل تلك التهم كانت تهون، في مجتمع لا تهمة فيه تعني شيئاً أكثر من تهمة بنت بالشرف، تهمة الإخلال بالأخلاق العامة!

لم يقل المحضر كيف أخلت زينب بالأخلاق العامة. لم يقل مثلاً إنها تحرشت بالسائق، إنها نزعت عنه كوته، أو كما في القياس بالقرآن (قدّته من دبُر) أو نزعت ثيابها وتعرت داخل السيارة. لم يقل أي شيء من ذلك، أو أي شيء غير ذلك. لم يقدم أية تفاصيل. ليس مضطراً إلى أية تفاصيل. القانون لا يضطره إلى شيء من ذلك. وإن اضطره قانون مكتوب، فأين هو هذا القانون من زينب؟ بعيد، كان بعيداً جداً، وأصبح أكثر ابتعاداً بعد أن حكم عليها أبوها لمجرد وجودها بين يدي «الكاكي»[٤].

---

(٤) الكاكي: توصيف شعبي لزي العسكر، أصبح توصيفاً للعسكر.

بترها من جسمه. لا طاقة ولا جهد له لمواجهة أحد، وخصوصاً العسكر. لطالما أهانوه، لطالما آذوه في رزقه، في بيعه المتجول وحتى في سيارته التي هي أداة رزقه، يبرز لهم كل أوراقه، ومع ذلك يصرون على إفراغ جيوبه. لطالما كسروه وأذلوه. لطالما عاد إلى بيته بوجه مقتر ومكظوم. الدمع الذي تحبسه عيناه يكاد ينفجر به وجهه. إلا العسكر، كان يقول لابنه حين يشتد شجار، أو يصطدم مع أحد، حل مشكلتك كيفما كان، تدارك السفيه ولو بنصف أموالك، لكن لا تصل إلى العسكر.

كان الضابط يدس المحضر في جيبه، حتى من دون نسخة يبقيها في القسم. كان يتأهب لقضية ومساءلة ومحاكمات، وربما لتحكيم قبلي ووجهاء وعدول. لم يكن أبوها ليفعل شيئاً من ذلك، وخصوصاً مع عسكر، وفي قضية كهذه.

بترها أبوها من جسمه. وكان على استعداد لأن يبتر أي عضو فيه، مهما كان ألمه. يصطبر على ألم البتر، أهون من الاصطبار على ألم علاج لن يقدر عليه. ثم إنه علاج لا جدوى منه، سينتهي في النتيجة إلى البتر. لم يحدث أن أنهى قضية بغير التنازل عن حقه فيها. عماذا يتنازل في هذه القضية؟ إنها قضية شرف!

قضايا الشرف لا علاج لها غير البتر. لم يكن أبوها أول من يبتر عضواً في جسمه، حفاظاً على ما بقي من الجسم. لم يكن الأول ولن يكون الأخير. في مثل هذه القضايا لا فرق بين أبيها وبين الآباء الآخرين. لا فرق إلا أن هذا الأب مهدود. الناس يهشون الذباب عن وجوههم، وهو يهش أحذية العسكر.

حجرة مكتب بمساحة شاسعة، تصلح لأن تكون شقة. لقد كانت فعلاً شقة هدمت جدرانها لتصبح حجرة هذا المكتب. في الطوابق السفلى موظفون، وعمال، ومعارض، ومخازن. هذه هي مؤسسة عُبيد للتجارة العامة.

مكتب المدير العام. فتحت نشوى الباب على زرقة عائمة، ببعض المراكب الخشبية.. دواليب من الخشب الداكن بزجاج سميك، كنب ومقاعد لا تخلو من زرقة، طاولة اجتماع بالغة الطول، حولها كراسٍ بقماش أزرق وأطر خشبية. في ركن قصيّ نسبياً نصف طاقم صالون قماشه من الجلد ولونه بيج، يصطف كمقعد مدرسي قبالة سبورة. هذه السبورة ليست أكثر من شاشة تلفاز مسطحة ومثبتة بحامل من الألمنيوم. الحامل فخور بعرضه للوحة السواد تلك.

تحتاج أن تقطع مسافة كي تصل إلى سامية الجالسة خلف مكتبها.

المسألة ليست «فشخرة». كان لا بد من أن تشرح ذلك وطويلاً لوالدها الذي ظل لعقود ينوء بتجارته ويبحث لها دائماً عن ظل. احتاجت في شرحها ذاك إلى عمتها. إنها تجارة قالت العمة: إنها بضاعة إن لم تكن في الصورة لن يراها أحد. لم تفلح العمة. على العكس لقد زاد اقتناعه بما كانت عليه، بدليل تلك الأموال التي حصدتها تجارته الظلية. هناك نوع من التسويق لا ينجح إلا في الظل. على أية حال لقد جاءت بعمتها لتسوّق نفسها عند أبيها، ليرى قدر رجاحتها، ويطمئن على أمواله تحت طائلة القرار الذي

تتخذه مهما يكن. احتفظت لنفسها بالكلمة الأخيرة، كما يقولون الكلمة الفصل وهي تقول لأبيها: السوق اليوم لا تتسع إلا للكبار، وأنت كبير طبعاً، لكنك لا تعرض ذلك في الصورة. الصورة مهمة، لن يعترف أحد بأنك كبير، مهما تكن كبيراً في نفسك، إلا إذا كنت كبيراً في الصورة. إن لم تنطلق إلى الآخرين من إكبار لنفسك لن يروا إلى كِبَرك. ومهم أن يروا وأن يقتنعوا وأن يطمئنوا إلى أن هذه المؤسسة التي يتعاملون معها هي كبيرة وبحجم الثقة. الكِبَر يظهر للعيان عبر ما تنفقه من مال على عملك. كأنْ يكون لديك عمال كثيرون، أماكن فاخرة.. إلخ. حتى وإن كان رصيدك في البنك لا يكاد يغطي ذلك. لكن العميل يرى أول ما يرى هذه الصورة، ثم يذهب إلى التفاصيل.. أرصدة، ضمانات بنكية... إلخ. من دون تلك الصورة لن يكلف نفسه حتى عناء البحث عن التفاصيل. دكتورة! قال لها أبوها، لينهي الحوار.

خلف مكتب فاخر، أصلحت حجابها، همّت أن تنهض، بقيت جالسة. سامية تبدل نظارة القراءة، لتضع نظارة تراك بها وأنت بعيد. وحين تجلس في الكرسي قبالة مكتبها، هناك نظارة ثالثة لتراك وقد صرت قريباً.

تبديل النظارات على ذلك النحو يدلك على أنك أمام امرأة في غاية الارتباك. لا تكترث لذلك. مطلوب منك أن تتجشم كل ذلك من دون أن تفكر فيه. حتى المسافة الطويلة التي عليك أن تقطعها لتصل إلى هذه المرأة، لن تقطعها، ولن تصل. هذه المسافة ليست لك، لمشيك فيها مثلاً. إنها لها، لتهيّئ نفسها لاستقبالك. طاقم السكرتارية العريض يقوم بالوظيفة نفسها،

للغرض نفسه، للإعداد لمقابلة ناجحة. إنك لا تجلس قبالتها هكذا، إلا وقد عرفتْ ما الذي جاء بك، وهل ستجيء مرة أخرى أم لا. إذاً هذا الطاقم مهم للعمل. حتى العمال والموظفون ليس منهم أحد يمكن اعتباره عمالة زائدة. لكل واحد منهم دور ودور مهم. إذاً ثمة عمل يسير وفق خطط وبرمجة متقنين. ربما كلف آلية تسيير عريضة بعض الشيء، لكن ما هم ما دام يحقق أهدافه.

هذا عن العمل. ماذا عن سامية؟ ألا تبدو لك معاقاً، كرسيه عبارة عن كل ذلك القدر من التسيير وآليات التسيير؟ معظمنا معاق على نحو ما، ونجلس على مقاعد لا يراها الآخرون. أيهما أكثر تشبعاً بالإعاقة، هي، أم والدها الذي عمل وجمع ثروة عريضة بطريقة مناقضة تماماً لطريقة ابنته. قاسم كان لديه إعاقة «نسب». كان جامحاً في انطلاقته، منذ عام ٥٩ م، في العمل السياسي، وفي طموح التعليم. لكن باغتته معلومة، لن تقف عند حدود وصفها بمجرد خبرة أو فكرة، لأن هذه المعلومة في الواقع قد مسته في العظم. لتصير هي وآثارها جزءاً من تكوّن دماغه، لا فقط مما يخزنه هذا الدماغ. لم يكن ممكناً أن يعالج عقدة «ابن الدباغ» التي تعني: الدرجة الأدنى في طبقات المجتمع. يطلق على الأسر والأفراد فيها اسم «أبناء الخُمُس» وبلغة ناس الشارع: «قليل الأصل». كل ذلك حدا به إلى أن يراجع طموحه ويكيّفه مع شروط الواقع. لكنه لم يزل جامحاً، بل على العكس ربما ازداد جموحاً. أين يجيء بكل تلك الطاقة؟

جلست نشوى شاردة تفكر في السؤال نفسه: في الثمانينيات طرأ على المجتمع تغيّر، لا على المجتمع كله، بل على الوظيفة

العامة، الوظائف القيادية، وزراء وقواداً ومحافظين. . إلخ. كثيرون ممن كان يشار إلى عائلاتهم بإصبع الانتقاص أصبحوا (بالتعيين) قامات لا تطاول. كلٌ حل مشكلته على طريقته! منهم من اشترى من هذه القبيلة أو تلك مكانة ولقب شيخ، منهم من غيّر اسمه، منهم من صادر الكتب والمعاجم التي تشير إلى أصله، ومنهم من مكنه منصبه أو ماله الوفير من مصاهرة عائلات من الشريحة الأولى والثانية في المجتمع. كأنما هو يوقعهم صكوكاً وشهادات على ألاّ مشكلة تحول دون مصاهرتهم له.

جرّوا معهم من جرّوا، أصبح لا همّ لأحد غير أن يصنع أحذية تمكنه من الهرولة بعيداً عن واقعه. أحذية من منصب، وأخرى من نهب المال، وأخرى من تعطيل القانون، وأخرى، وأخرى. . أحذية بلا حدود، وبلا جدوى.

قاسم لم يلحق بهم لأنه لم يطله التعيين. زاده ذلك جموحاً. كان قد سبق معظمهم في التحقق كرجل ثري. لكنه زاد دافعه بمبعدة عنهم وعن طرائقهم، شيّد بنيانه، جمع ثروة. الثروة لم تكن هي البنيان، بل طرائقه في جمعها. فخران اثنان أو زوج من الأحذية سار بهما هذا الرجل، الأول: أنه لم يكن من النافذين، أي لم يكن فاسداً. لم يكن من الصعب أن يحوز منصباً، لكنه آثر أن يتعالى على هؤلاء، على فسادهم! والثاني: تلك الطرق المبتكرة والخلاقة في جمع ثروة. حتى إنه عندما سلم إدارة تجارته إلى ولديه، لم يكن حرصه على الثروة، بقدر ما كان حرصه على وسائله وأساليبه، كأنْ لم يكن يسمح لثروته بأن تنمو إلا بوسائله تلك.

لم تطل النظرة التي لامست وجه سامية، كأنما خشيت نشوى من انكشاف أفكارها: مش قليل، ليس قليلاً أبداً ما تناله هذه السامية!

لم يكن الأب يدع لولديه أن يجدا «فُتحة»، يدخلان منها إلى نهب تلك الأموال والاستيلاء عليها. ومع ذلك جاء على طارق وقت، أصبح وجوده على رأس تجارة أبيه يهدّد بتبديدها. غادرها وقد طال التهديد ثلاثة مخازن وقع الحجز عليها لبيعها.

غيّرت سامية مقعدها خلف المكتب، إلى المقعد المقابل لأختها الشاردة. حاولت قطع شرودها بالسلام، بسؤال الحال، بسؤال عن الوقت. لم يكن كل ذلك كافياً، اقتربت لتجلس قبالتها. أمسكت بها من يدها، ليبدو السؤال مؤثراً:

— فيه شيء؟

— أبداً

— احكي لي. أخبارك. أمورك ماشية كيف. فرحت بنجاحك.. و...

تكره دور ولية الأمر الذي تؤدّيه أختها. صحيح أنها الكبيرة، وحالياً المديرة. لكن عليها ألاّ تصدق نفسها. تلفتت نشوى حولها، ينبغي فعلاً أن تجد سبباً لمجيئها، ما الذي جاء بها؟ هي نفسها لا تعرف!

وليس مقبولاً أن تقول لها على سبيل المزاح، أو حتى التهكم، جئت أبحث عن عمل. وليس صدقاً أنها اشتاقت لأختها، وحتى لو، لن تقول لها ذلك. نهضت لتغادر، ليست مضطرة إلى قول شيء.

– نشوى!

– . . . .

– نتغدا سوا أيش رأيك. . أعزمك في أي مكان تحبي!

٩

غادرت كأنْ لم تسمع شيئاً. ما الذي جاء بها؟ كانت تتمشى، انتهت بها خطاها إلى هذا المبنى. أمس انتهت بها التمشية إلى بيت أبيها. أصبحت بحاجة إلى صديق. لديها ما تفعله بالوقت، المسألة ليست مسألة وقت. تريد شخصاً يملأ قلبها لا وقتها. ليس بالضرورة حبيباً، لا تريد حبيباً، تريده صديقاً. الحب إطار، الصداقة فضاء. لا تريد جداراً تدق رأسها به أو تربطه إليه. تريد صدراً يتقبلها كما هي. يتقبل منها ما تقدر عليه ولا يطلب أكثر.

أوقفت سيارتها قرب كافتيريا ونزلت لتشرب العصير، واقفة. هل المكان مناسب للتعرف إلى صديق! هل سيكون واحداً من هؤلاء الجالسين في الكافتيريا مثلاً. إنهم يبحلقون فيها ليس من قبيل التفكه أو التمتع. إنهم يجحظون أعينهم زجراً لوقاحة وقوفها. مجرد الوقوف هكذا وسط الكافتيريا يعدونه وقاحة، ما بالك لو استرخت نظراتها على وجه واحد فيهم! إنها لا تلتفت إليهم، لكنهم بلا شك يلتقطون صوراً بطيئة لارتشافها. بقيت لها رشفة، لِمَ لا تنجزها لتغادر. ما الذي تفعله الآن؟

تمارس غباءً لذيذاً على أية حال. تحدّق في وجوه المارة!

عادت إلى سيارتها، ليعود الجميع إلى ما كانوا عليه. شوارعنا ليس لها إلا استعمالان اثنان، المشي الذي يفعله الحمار يومياً بالطريقة نفسها. هذا الاستعمال المشروع والمقرر وخصوصاً على النساء، هذا إذا ما اضطررن من حيث المبدأ إلى المشي. أما الاستعمال الثاني فهو الاعتداء. المكان المناسب للأذية! ينظر إليك الواحد لا لشيء إلا ليسأل عينيك هل نظرت؟ ينظر ويطيل في اعتدائه، لا بد ستتعبين وتفعلين شيئاً، أي شيء. لا بد من شيء. حين تُحقّرينه وتذمّينه، ذلك لا يعني أنه خرج من دون شيء، ربما خرج خاسراً من النيل منك، لكنه مرتاح. هنالك من يهدف لأن تلعنيه، ذلك شيء جيد. هذه بنت جيدة. اطمأن عليك. يشبه اطمئنان أختك سامية. . تقطع عليك دخلاً ثابتاً، لتسألك «أحوالك تمام؟» لكنها سوّت الأمر؟ ليس برضاها!

أين ستلتقين بصديق! لا اختلاط في هذه البلاد بين الجنسين، اللهم إلا في الجامعة والباصات. في كل مكان موضع معزول يطلق عليه اسم «قسم العائلات». حتى محال غسيل الثياب، أصبح الواحد من هذه المحال يرفع لوحة تشير إلى أن لديهم قسماً خاصاً بالنساء. ما الذي يخشونه في اختلاط ثياب النساء بثياب الرجال، هل يخشون الفتنة؟ تفتتن الثياب في اختلاطها فتنساق إلى الفاحشة، ينتهي الأمر إلى إنجاب غير شرعي للأطفال، إلى زيادة سكانية.

هزت كتفيها ساخرة، من يدري قد تكون هذه الزيادة المطردة في السكان هي بسبب معارض الألبسة المختلطة. وليس من المستبعد أن يقال إنها زيادة مستوردة، مؤامرة.

تتلفت من نافذة سيارتها: لا اختلاط لا في مطعم ولا نادٍ، لا حديقة، لا مكان. وليست لديك وظيفة تجلسين فيها على مكتبك، إلى أن يجيء نصيبك معززة مكرمة. يجيء هو، لا تذهبي إليه. حتى وإن رأيته في السلم أو المصعد أو في مكتبه أو مكتب مجاور. إياك أن تتكلمي أو حتى تنظري إليه! فقط اجلسي في مكتبك، قد يجيء وقد لا يجيء، إذا جاء لا تخبريه أنه كان ببالك أو حتى فكرت فيه أو حتى رأيته. فقط رحبي به. ليس من أول مرة، بعد مرات، بعد وقت، بعدما تكون غيرك قد حصدته وأصبح من نصيبها.

كل هذا، وهي لا تبحث عن حبيب، بل صديق. الصديق إذا لم تراعي كل تلك العمليات في اصطياده، يظل طوال الوقت، حتى لو لم يصارحك، ولن يصارحك، يظل ينتظر فرصة أن يضاجعك. إن حصل، فقد يظل صديقاً وقد لا يظل. الأرجح أنه حتى لو ظللتما على اتصال، إلا أن اتصاله يتغير. هناك اثنتان في شخصك، واحدة تلك التي طالها، رحمها الله، خلص منها، بانت على حقيقتها، وهذه التي يخاطبها، يعرف حدوده معها، الأصح؛ هي ينبغي أن تلزم حدودها معه.

الصديق أصعب. الحبيب تظل هناك فرصة لإغراقه في شبر ماء. هل هذا يعني أنها غيّرت رأيها وتريد حبيباً؟ لا! صديق! وستجده! حتى لو تطرق أبواباً، وتشده من داخل حجرته. بعد أن تقرر: هذا!

سيكون هناك وقت لا بد منه من الحيرة والشك. ليحتر، ويشك، ويتبلبل على راحته. لن تعطيه شيئاً، ما لم تكن هي التي

تريد ذلك الشيء. وهي ستأخذ راحتها، لن ترغم نفسها على شيء.

قررت، واختارت، واتصلت. عصراً؛ لديها موعد في شقتها. المسكين؛ سيكون الوقت طويلاً كي يستوعب هذا.

* * *

كل فنون مهنتها وآدابها وشروطها ومشتقاتها أو ما تتطلبه من ممارسات، كل ذلك أدّته رجاء بإخلاص. بل هناك ما جهدت لتعلمه والتدرب عليه، إلا شيئاً واحد أدّته بفشل ذريع. في الواقع، كان فشلاً متعمداً ومدروساً، وببطء وتدرّج يجعل منها آخر واحدة تطلب لتلك المهمة. مهمة أن تكون أداة للتجسس على شخص. المرة الوحيدة التي أدت فيها مهمة كهذه بنجاح، ومن دون جهد أو قصد أو حتى إدراك بما يحاك عبرها، هي تلك المرة التي ذهب ضحيتها سيف. لن تكرر ذلك ولا حتى جزءاً منه. قرار اتخذته وسارت فيه. لكنْ هناك فرق. قرارها ليس كقرار غيرها في أي شيء، وخصوصاً في الأشياء الصعبة. إنها لا تقول لا! في مهنتها؛ لا قرارات معلنة على أحد. هناك فقط خطط خفية، إجراء غير معلن، لكنه يتم.

حين تقرّر واحدة في مهنتها شيئاً كهذا، فإنها تقول نعم، وتحذر من أن يبدو على شيء من تصرفاتها غير ذلك. إنها تفعل الكثير لتنفضح مهمتها، من دون اضطرار إلى أن تفشي شيئاً لأحد. في النتيجة تجد مهمتها الموكلة إليها، قد أوكلت إلى غيرها. لا تستطيع تمثيل البراءة، ليست بريئة. لكن عليها أن تفعل شيئاً يفضح كل شيء، المسألة أصعب كل مرة. عليها أن

تتذمر عند انتقال زبون من هذا القبيل إلى غيرها، وعليها من حين إلى آخر أن تعاتب «صهيب» أو «فرج» لماذا لا يبحثان لها عن مثل هؤلاء الزبائن، إنهم فرص أثمن. تصارع لفرص من تلك التي بمهمات متعددة ومتناقضة أحياناً. وتشكو حظها بصوت مسموع: فرصها دائماً قليلة. دفاع يستتر بالهجوم.

على كل حال، هي اليوم في مهمة من هذا القبيل. في مطعم يخبر مثل هذه المهمات ويشارك فيها. مع زبون نصف أجنبي. لن تفعل شيئاً أكثر من طرح بعض الأسئلة البليدة، من حين إلى آخر طبعاً. لكنها تضعها جميعاً على الطاولة. ليس بين السؤال والآخر، غير غمزة أو لمسة أو كلمة غزل ممطوطة. ثمة تسجيل تحت الطاولة. تعرف هذا وتحاول أن تحذر، لكن انتباهها موجّه إلى الطاولة المجاورة، عليها زبون تعرفه. ربما ليس زبوناً. ربما هو زميل. عرفت الجالسة معه، ليست أول مرة تلتقي بها. المفاجئ ليس نشوى، بل جمال. إنه نفسه الذي نقل إليها أغرب خبر التحاق بالمهنة. في القصة التي كان عنوانها، الزوجة آخر من يعلم.

مهنة قذرة، تجعل جمالاً يجمع بين امرأتين من العائلة نفسها. لكن ندى لم تعد من تلك العائلة، ولا من أية عائلة أخرى. ونشوى ليست بالبريئة كي تخاف عليها.

التقت نظرات المرأتين، تبادلتا التحية تلويحاً، ولم يحدث شيء.

تعرفينها! سأل جمال نشوى. لم تقر ولم تنكر. ليست بتلك

المعرفة التي تقر بها، ولم يحدث بينهما ما تنكره. مجرد معرفة من بعيد. تذكّرَ سؤاله لندى، السؤال الذي جر وراءه الكثير، من دون أن يعرف أنه يطيح طفولة بنت شاءت الأقدار أن تكون زوجة رجل مختل: تلعبي كونكان؟

بالفصحى وجه السؤال نفسه كأنما من آخر الدنيا لنشوى: تلعبين الكونكان؟ نعم تعرفها وتلعبها. ندى لم تكن تعرف الكونكان. هو علمها الكونكان. أعجبتها. رُدت إلى طفولتها فجأة. كانت تلعب بنهم طفلة، بجوع وشراهة من حرم من أكلة يحبها لسنين، وظل جائعاً إلى تلك الأكلة المرفوعة، كأنْ لم يأكل في حياته، كأنْ لم يذق الطعام منذ سنين. كانت تلعب بطاقة كل الأطفال وشغفهم. ومع ذلك لم يتنبه جمال لطفولتها. كانت لعبة ما قد ملأت رأسه. اللعبة القذرة.

كان ذلك منذ فترة. إنه يتذكر كل التفاصيل. بدأت القصة برشة عطر. العطر الذي كرهتْه في ما بعد. الأصح؛ استبدلتْه بعطور أخرى. حين كلف نفسه واشترى عطر تلك اللعبة لأنه سيذهب إليها، أشاحت وجهها عنه.

في شقة نشوى، وفي ما يشبه الشرود، طرح سؤالاً غبياً: «تعرفي ندى؟» بعد ساعة تحقيق، وساعة تفاصيل واعترافات أُجبر عليها. أنهت علاقتها به! لعنت آل عُبيد، ونسلهم أجمعين.

كان السؤال غبياً، أم كان جلْداً يتبادله مع هذه الأسرة؟ هو يعرف أنها أخت طارق. هي تعرف أنه صديق أخيها. ازداد كرهه لطارق. من بين كل رجال الدنيا لم يجد غيره! كره نفسه. كان كل شيء أمامك واضحاً ومشروحاً. رجل مختل، وطفلة لا

يصدق عاقل ما يقوله زوجها عن شراهتها وغلمتها وعدد الرجال الذين تضاجعهم، لكنك صدقت. أعجبتك المغامرة. لا يتكرر أن يضاجع رجل زوجة غيره، بعلم الزوج، بل بجهد منه لتذليل الصعوبات.

تذكّر أنه لم يضاجع نشوى بعد. طردته قبل أن يحدث شيء. غبي!

١٠

من دون أن تودع أحداً، غادرت نشوى بيتهم. كانت في حجرة أبيها. سرقة هذه المرة: «أرض الثورات» لجورج حنا، «النكبة والبناء» لوليد قمحاوي، «في سبيل البعث» لميشيل عفلق، «فلسفة الثورة» لجمال عبدالناصر، بالإضافة إلى قنينة كونياك.

مرة ثانية وجدت نشوى نفسها بباب بيت رجاء. هذه المرة كان سؤالها عن ندى! كانت مؤدبة، لم تنظر إلى تلك الجالسة وحدها في البعيد من الصالة. حتى لو رأتها، كيف لها أن تعرف أنها زينب. ربما لم يعد هذا الأمر يعنيها. لم تبتعد بجسمها عن باب البيت الذي دخلته إلا بمسافة أقدام قليلة. دخلت كي لا يقال إنها تأنف من دخول بيت كهذا. البيت النظيف. أصبح بيتها هكذا نظيفاً، ليس كهذا البيت تماماً، لكنه يقرب من هذا. دعتها رجاء إلى الجلوس من قبيل اللياقة. اعتذرت عن ذلك، وأعطتها رقم هاتفها الخلوي. رجتها إن وجدت ندى أن تتصل بها. شرحت لماذا. أسباب نبيلة بكل تأكيد، بقي فقط أن تنال تصديق رجاء.

اتصلت بنشوى بعد ساعات، لتقول لها: شخص واحد يستطيع أن يدلك على مكانها، لأنه لا يكف عن تتبع الأمكنة التي تغيب فيها. شخص تعرفينه. إنه جمال. لم تعد نشوى تعرفه، قطعت علاقتها به. «تساعديني؟!» سألتها راجية بصوت يحرجك صدقه. كان لا بد من تفاصيل أكثر، تطمئن فيها رجاء إلى أنها لا تبلغ عن مكان زميلة، أو تذلل لإيذائها. في اليوم التالي زارت نشوى في شقتها.

أول ما استرعى انتباهها المكتبة، الكتب التي تتشابه وكتب سيف. نظرت إليها غير مصدّقة. بعد قليل ستقول لها نشوى: هذا الجزء هو من مكتبة أبي وسيرجع إليها.

ثرثرن كثيراً. شربن العصير، الشاي، الكونياك، القهوة. تخلل كل ذلك نقاش للمشكلة، لا حل لمشكلة ندى غير أن تعود إلى بيت أهلها لكن بالتدريج، أي كما خرجت منه، مروراً ببيت زواج، ثم طلاق، وصولاً إلى بيت أهلها. إخوتها، ليس كلهم أشقاءها فقط، إلى الآن يختلقون الأكاذيب عن غيابها. لكن إن ظفروا بها فسيقتلونها من دون أن يعلم أحد، وخصوصاً أن لها إخوة من أبيها، من أكثر من أم. كل واحد منهم يظن أن له حقاً فيها وفي قتلها!

من حيث بدأت، من المكتبة، كان توديعها. المكتبة كلها تحت أمرك إلا هذه! أشارت إلى كتب أبيها. هزت رجاء رأسها مزكية كلامها: كتب غير قابلة للإعارة، تماماً كما كانت كتب سيف.

لم تخرج خالية اليد. حملت معها على سبيل الإعارة بعض

الروايات: «ما تبقى لكم» لغسان كنفاني، «لا تزال الشمس تشرق» أرنست همنغواي، «المستنقع» حنا مينة، «أرض ثمارها ذهب» جورج أمادو. هذا يكفي هذه المرة.

* * *

لطيفة هذه النشوى، قالت رجاء لصديقتها زينب، وحكت لها الكثير عما دار، عن المكتبة، عن بيت نشوى الذي يشبه علبة ألوان لكن مرتبة وشاسعة.

– هل سألتك عن بكارتك، متى وكيف وأين انفضت!؟

انفجرت رجاء بالضحك، لهذا السؤال الذي تبادر لصديقتها. سؤال بعيد. كان هناك ما تتوقع سؤال زينب عنه في ما دار بينها وبين نشوى. كأنْ تسأل عن طارق. أين، ماذا. أو حتى عن ندى. «لا. لم تسألني» ردت رجاء. ثم أضافت وهي تحدق في زينب:

– أنت أيضاً لم تسأليني!

– استحيت منك، لكثرة ما طرح عليّ هذا السؤال، لسماجته أحياناً!

– البكارة! هل تصدقين أن غشائي، هذا الذي يسمّونه البكارة، لم يفتض لأكثر من ثلاث سنوات. هل هذا يعني أنني كنت عذراء أو بكراً لثلاث سنوات تمددت فيها لعشرات الرجال.

البكارة، عفواً الغشاء أجلته كثيراً لعلّي أجد الرجل الذي أحتفل معه بافتضاضه. جاء، في الواقع جاء لكن متأخراً جداً. بعد ثلاث سنوات أخرى من مزاولتي المهنة. أين كنت؟ صحت به: أين كنت في تلك الليلة، التي اخترت فيها رجل الافتضاض،

أو قبلت به، لكنه لم يقبل؟ كان في السجن! قال. الوقت الذي كان الناس فيه يخرجون من السجن أفواجاً، في مايو ٩٠ م. هو زجّ به في السجن.

– قلت متى؟

– ماذا؟

– متى سجن سيف؟

– سيف سجن كثيراً.

– متى افتضت بكارتك؟

– تقصدين الغشاء؟ في يونيو، في الفاتح من يونيو، كنت قد التقيت بجاسم، وهو مليونير خليجي زائر. وكان قد رحب بالاشتراك معي في تمثيلية زواج، من دون إشهار كبير، فقط العائلة والجيران. وفقط ليلة، نعلن فيها سفري معه، لكنه طبعاً يسافر وحده. لم يقبل. قال: «هي ليلة وتريدين تحوليني لمشرط، روحي للطبيب يساعدك. أنا لا!».

– معقول؟

– نعم. كان رقيقاً إلى تلك الدرجة وحنوناً.. عرض عليّ أن أسافر معه فعلاً، وأن ينفق على أسرتي، إذا كانت هذه هي المشكلة. لم أقبل. لا أدري لماذا. قلت لا، وكفى.

– وسافر من دون أن...

– لا! أجّل سفره من أجل أيام عسل. لكنه كان جاداً في مقترح الاستعانة بالطبيب، ليتم ذلك تحت مخدر، من دون ألم. شفت على حظ أخبل. عشرات الرجال، وأذهب بعدها إلى طبيب! حاجة تغيظ!

– ما فعلت؟

– أيش تتوقعي! أمامي رجل في منتهى اللطف والإنسانية، أجرحه؟ أفتح باب الغرفة في الفندق، أشوف أي حد في الممر، نزيل، خدمة غرف، أمن. وأقوله بالله عليك تعال ساعدنا!

– رحت للطبيب!؟

– لا! المسألة مش مستاهلة. شرحت له ذلك عملياً، بالصورة، والصورة المقربة جداً. وضع كفيه على وجهه، وأنا أدفع بالباب الرقيق، من دون مفتاح، بمجرد إصبع كانت الطريق آهلة للدخول!

– .....

– لم يصدق ذلك، ظل يسألني طوال المرات الأولى: «فيه ألم؟» أقول له لا. كان بودي أن أقول له نعم. ألم لذيذ.

– كان فيه ألم والا لا!؟

– كان فيه ألم، لكن مش لذيذ. حرمت من لذة ألم المرات الأولى! كانوا قد قالوا لي إن الحب يهوّن ذلك الألم، ويجعله لذيذاً.

– أما أنا فحُرمت من ألم البكارة، والبكارة كلها. شككت في أنه كانت لي بكارة من أصله.

– أنت يا صديقتي لا تزالين بكراً إلى الآن!

لم تفهم زينب قصد صديقتها، ولم تأخذ جملتها تلك على محمل الجد. لكنها كانت تعني ما تقوله، تعنيه تماماً. البكارة ليست غشاءً. ليست «سدادة» من اللحم، من قبيل ما يهتكونه، يُنْزع، ويصر أهلنا على استمراره فينا حتى بعد الزواج. يريدون

لذلك الموضع، أن يظل مجرىً بولياً، مجرد أداة تصريف، ليس لك، لزوجك. أنت تصرفين ماءً وسخاً في الحمام، وهو يصرف ماءً مقدّساً في جوفك. لهذا يترتب على الرجال أن يدفعوا. قولي لهم إنك أيضاً لديك ماء قدسي يهطل في اللحظة نفسها، وللسبب نفسه طبعاً: اللذة. سيتغاضون عن ذلك. أنت أيضاً يجب أن تغضي عن ذلك. كأنه خطيئة لا ينبغي أن يعرف بوقوعها أحد، حتى أنت.

.....

البكارة كانت الغشاء الذي لفَّتْ به زينب نفسها بالكامل، جسمها، ومشاعرها، وحتى حواسها. منذ خرجت من قسم شرطة أول مرة إلى اليوم. لم تذق لذة فراش، لم تكتشف أن لها جسداً يلتذ إلا في بيت الزوجية. وحتى في بيت الزوجية، كان يصعب عليها أن تتعرّى من دون أن تكون قد تغطت واستترت بزوجها.

غشاء بكارة ما أشدّه. ليس غشاءً واحداً، إنها أغشية بكارة لا ينفض غشاء إلا لأن غشاءً أشد جدَّ علينا. حين سافر أحدهم مصطحباً معه زينب، كان وزيراً، له سمعته (له غشاؤه). كان يحل مشكلة أغشية من هذا القبيل.

امتنعتْ بشدة ونهائياً عن خلع ثيابها، وعن لبس «البكيني» في الشط في شرم الشيخ. ظن المشكلة في شرم الشيخ، لأنه هو نفسه كان يتشح بنظارته الشمسية العريضة حتى وقت الغروب، ولا يغادر كرسيه الذي لا يتجه صوب البحر بل صوب الفندق، ولا ينزع الجريدة التي كانت بمثابة جدار عازل. إلى جواره امرأة

وبحر. يدعوها لتنزل البحر حتى لو بثيابها! هل كان يريدها أن تتمتع بالبحر؟ أم أن تستتر به كي لا يتصادف أن يلمحه أحد يعرفه، ويتساءل عن هذه التي إلى جواره.

غيّر شرم الشيخ. طار بها إلى أوروبا. في فرنسا في شاطئ نيس، فكك بعض الأغشية، تفكك قليلاً. تحلل ليس كثيراً، كان كما ينبغي لنزع مؤقت لعادات يسمّيها أخلاقاً، كان بكل حرص ينزع الخُلق أو العادة أو العرف. يربّته ويصففه ويدسّه في الحقيبة المجاورة. بعد قليل يعيده إلى موضعه الدائم في ذاته.

نسبياً، استطاع معاليه أن يسترخي. استغنى عن الجريدة، نزع النظارة، بدل المايوه القديم بجديد مجهّز بفُتحة لحين الحاجة. لم يحتج إليها، وقف استرخاؤه عند هذا الحد. والسبب؛ هكذا أقنع نفسه بأن زينب هي السبب، لأنها لم تشاركه متعة البحر. لم تخلع ثيابها. وبحار أوروبا كالخيول العربية، لا تسمح بامتطائها إلا بشروطها هي.

يئس من زينب. لكنه لم ييأس بعد من نفسه. كان لا بد من شطٍ ثالث. طار ومعه زينب إلى برشلونة. لم يكن يعاقب زينب أو يغيظها، حين جاء بشقراء تبادله السباحة في البحر. في البعيد جداً عن الأنظار، استطاع أن ينتصب. تحقق هذا الرجل، انتصب واتصل وأمنى. لكن ظل هناك شيء ناقص.

قال لزينب إن شيئين تمنى أن يجمع بينهما، تمنى أن يمارس حبه لهما في وقت واحد: البحر وامرأة جميلة. إنه لا يذهب إلى البحر ويستمتع إلا بصحبة، بوجود رفقة لكن من رجال. رجال وبحر، متعة ناقصة. على العكس؛ كلما شعر بأنه سعيد ومرتاح

تمنى: ماذا لو كان لديه الآن امرأة. ماذا لو أخذ الله كل هؤلاء الرجال، أصحابه، وأبدلهم كلهم بامرأة، لساعة واحدة فقط ويعود كل شيء على حاله.

هذه هي مشكلة معاليه، قالت رجاء، صاحبك يريد كل شيء، ولا يريد المرأة غير ساعة تصريف. وبعدين؟ سبحان الله! من بين كل أصحاب المعالي، يرزقك الله بواحد مثلك، كله أغشية! أنا كان عندي ثلاثة من هؤلاء، كانوا مستعدين أن يخلعوا في أي مكان. بس....

قاطعتها زينب لتغلق الموضوع. لكنه عاد يفتح نفسه مع نشوى.

* * *

لم تكن هذه أول مرة يتقدّم فيها أحد لخطبة سامية. لكنها أول مرة تجد سبباً وجيهاً للرفض. العمل يشغل كل وقتها. العمل! فاجأ عادل هذا السبب. كلنا نعمل، ومع ذلك فإننا نتزوج! لم تدر بماذا ترد. عاقبت سكرتيرتها. لم تكن لتتعرض لمثل هذا الحرج، لو أن طاقم سكرتاريتها العريض يقوم بعمله كما ينبغي!

* * *

لماذا رجالنا أكثر اطمئناناً، في ممارسات يفترض أنها خاصة، وأنها ألذ عندما تمارس بمشاركة بين الجنسين. هم في البحر يسبحون رجالاً في رجال. وفي النزهة، في المقيل، كل طقوس القات التي يعدون لها، يجهدون لإعدادها، تنجح جهودهم وتؤتي أكلها كما يقولون لكن ضمن رجال. وحتى

جلسات السُكْر، يغلقون فيها على أنفسهم رجالاً في رجال.

ردت نشوى تذكرها: والنساء كذلك. إنها مشكلة اختلاط. كنت أفكر في ذلك قبل أيام.

لا! المشكلة أصبحت أكثر من ذلك. ربما في البداية كانت مشكلة اختلاط. لكنها تجذرت، أصبحت مشكلة «عزلة». اسأليني أنا، أنا أخبر الرجال وأختلط بهم منذ أربعة عشر عاماً. معظم جلساتنا الجماعية هي مختلطة. ومع ذلك كثيراً ما لاحظتُ؛ هنالك رجال يجلسون معنا بكامل عزلتهم!

رجاء تتكلم وحدها. انفصلت نشوى، لم تعد تستمع لصديقتها الجديدة هذه.

كلام زائرتها دفع بها لما قبل سنين طويلة، لجلسات شراب مختلطة، برجال لم يكونوا منعزلين ولا النساء. كنا؛ كانت أسرتي تتنصت على تلك الجلسات وترقبها من بعيد، وتصنفها، تصنف النساء فقط أنهن «قحاب» وتسمي المغنين، السمة أو الآنسي، أو أي فنان، اسمهم «فرغ»(٥)، لم يكن اسمهم فنانين. ولم يكن النزف الذي ينزفونه على العود، لم يكن اسمه فناً. كل هذا كان «مفراغة». مع أنه؛ لا النساء كن يتعرين، ولا الرجال كانوا يتطاولون. كانوا فقط يدمدمون مع الغناء، ويتمايلون، ويرقصون. وحين يضع الفنان عوده كانوا يتبادلون الأحاديث. أحاديث جادة لا أفهمها. وحين يشرعون في التنكيت كانوا يتحرجون لوجودي فيخرجني أبي، وأعود لأدخل

(٥) فرغ: صفة ذامة للناس الذين ينغمسون في اللهو.

عندما يعود الغناء والرقص. هل كان أبي «فارغاً»، عشيقاته كن شيئاً آخر، نساءً بالأجر. نساء الجلسة ربما كن عشيقات لرجال آخرين، لكن ليس لأبي، كن يدخلن من الباب، من دون تنكر، يسلمن على من يصادفهن في البيت، يقفن للكلام معه ويسألن عن حاله، وإذا كان صغيراً يعطينه الشوكولاتة. وكان أبي يخرج في وداع الجميع. لأن الأدب يقتضي ذلك، وليس لحراسة «الفرغ والقحاب». لم يكنَّ قحاباً، لمرات عديدة كان أبي يدعو أمي إلى مشاركته كل ذلك، وخصوصاً في السنوات الأولى. هذا ما قالته أمي، لكنها كانت تقوله مستنكرة، ولتحدثنا عن نفسها وكيف أنها نأت بنفسها عن الحرام. دعت على زوجها كثيراً. ثم أصبحت تدعو له بالهداية. ما الذي تفعله أكثر. ما الذي بيدها!

حدّقت في رجاء، تريد أن تقول لها كل ذلك، لتسألها: ما اسمه؟ لم تقل شيئاً، ولم تسأل! نهضت لتجلب ثلجاً، وعادت، في رأسها سؤال أضحك صديقتها. سؤال عن «السحاق». هل جربته، ما رأيها فيه؟

- الله لا يحوجنا له! ليش؟ خير الله موجود.

- حتى في السجن؟

- إلى الآن لم أدخل السجن. وأسأل الله ألا يحدث.

سكوت نشوى هذه المرة أخذ منحىً آخر، بمشاعر غريبة، متناقضة. على الأرجح أنها ستنهي الجلسة، قبل أن تكون عرضة لأسئلة هذه البنت عن حالها وما الذي ألمّ بها فجأة. قبل أن

تنبشها. لا تريد ليد أن تمتد إلى داخلها وتنبش خرائبها. داخلها خراب، وهي لا تفعل شيئاً غير أن تصفف الأشياء وترتبها، بل تكوّمها في زاوية ما كي تقدر أن تتحرك. لا تبني، لا تتخلص من الفضلات. لا تعرف أساساً ما الذي تلقي به، وما الذي تبقيه من سلوكها وأخلاقها وعاداتها. هل وجود بنت كهذه في بيتها أمر جيد أم سيّئ؟ قديماً، كانت تناهض آراء سماح في أشخاص تقدرهم، كانت تظن أنها تقدرهم، لكن بعد خروجها من السجن اتضح لها أنهم خواء، فارغون، لا فكر لهم، لا معنى يوجّه أحاسيسهم ومشاعرهم، مثلهم مثل القطط والكلاب في التعبير عن حاجاتهم وشهواتهم!

في دعوتها التالية لرجاء ستدعو سماح. لا لشيء إلا لتصيح فيها، هذه البنت ليست سيئة، هذه البنت جيدة. إنها أفضل منك ومني، هذه القحبة تقرأ، هل تقرئين؟ ربما هي تقرأ لتطوّر نفسها في العمل، لتجالس رجالاً أكثر، أو لتنتقل برجال ممن تجالسهم إلى مناطق بعيدة، لا يشعرون فيها بالملل، ولا بفراغ ما يفعلونه وما يقبلون به عليها. في المرة السابقة كانت تتحدث عن الجنس المفكر، الجنس الواعي، الذي لا يقتصر على أعضاء معينة، أو على مشاعر بعينها. هذه قحبة مثقفة، ما هي ثقافتك يا سماح. هذه القحبة يا نشوى لم تدخل السجن!

همّت رجاء بالمغادرة، هل بسبب تكرر سكوت نشوى وتململها؟

— بدري.

– من عمرك.

– والله صحيح الساعة ما كملتش ستة.

– المشكلة إني مش متعودة أشرب نهاراً وفي بيوت أضطر بعدها لشريط طويل من الناس و. . .

– هذه مش مشكلة، أنا أوصلش. لكن، وهذا مجرد سؤال ممكن ما ترديش: ليش ما اشتريتي سيارة!

– الفكرة واردة، السيارة مشروع المرحلة المقبلة إن شاء اللّه!

* * *

قبل بضعة أشهر، تخرجت أختها سارة من الجامعة. بعد شهور تتخرج شذى. سيصبح هناك من يساعد في المصروف. هذا إذا ما وجدن وظيفة، وثبتن في أعمالهن ولم ينخرطن من فورهن في مشاريع زواج، في بيوت تخصهن وحدهن. نفقات الفيلا باهظة، مع أنها من دون خدم! ضحكت رجاء تسخر من نفسها. هل كنت تريدين أن تسلميها لهم بكامل تجهيزاتها، بما في ذلك الخدم! هي لم تجهز غير غرفة نوم والديها، وصالة الاستقبال، والديوان. قصف ظهرها الديوان وحده. لماذا كل هذا؟ لا أدري! هل بدأت رجاء تتملل من برها بوالديها وإخوتها؟ ليس هذا، لكنها منذ عام لم ترهم، منذ سكنوا الفيلا. لم تعد هناك ضيافة سنوية، كما السنوات السابقة. لم يكن في المسوّغ الجديد ذكر لكيف تراهم. لم يكن هناك مسوّغ جديد. انتهت الأحاييل. تعطل السيناريو. ما الذي انتهى بالضبط؟ إنهم حتى لا يسألون عنها. هي منعتهم من الاتصال بها. إنها في مهنة تطل من

خلالها على الخفي كله، على الوسخ منه. يفرط بسره من يبوح به في تلفون، وخصوصاً التلفون الخلوي، إنه أشد مراقبة ولا سر يلبث فيه. لا أحد في المهنة يعرف أن لها أهلاً هنا، في صنعاء. آه لو عرفوا. بيتها الحالي هو مجرد ديكور لبيت نظيف. ومع ذلك جعلوا منه أداة تهديد وضغط وابتزاز. ماذا لو عرفوا أن لديها بيتاً، بأسرة، بأخوات. قضت عمرها كله تصون هذا البيت. لن تفرط فيه لمجرد أنها تشتاق إلى حضن أبويها!

١١

ندى هربت من طارق، لأنها شعرت بأنه يخطط للتخلص منها بالقتل لكن عبر إخوتها.

بدأت قصتها بلعبة كونكان:

سألها هل تعرف تلعب «بطة» (كوتشينة) وإلاّ يعلمها، لأنه ضجر بزوجها، ولعبه المغالط. لا تعرف! هبّتْ من فورها لتغادر إلى حجرتها.

في الليلة التالية وقف معها في المطبخ، يتعلم الطبخ! ثم سيعلمها في السهرة «البطة». لكنها كانت تعرف لعبتين، ثلاثاً. لن لعبتها.

لم تعد تتكلف في غطاء وجهها. في الواقع، كان يسقط عنها من دون أن تشعر. كانت منهمكة في اللعب. في الليلة الثالثة، كان يعلمها لعبة الكونكان. صعبة، استرعت كل انتباهها. لكنها تقفز خطوات في تعلمها. ليالٍ وهي تتعلم الكونكان. إنها

تحلم بها في نومها. مشوّقة. كسبت كل جولات تلك الليلة. زوجها يخسر، يعلن خسارته قبل أن يعلن أحدهما فوزه. هناك أشخاص يدخلون لعبة لا لشيء إلا ليخسروا فيها. هي تكسب. مشوّقة هذه اللعبة. تضحك من قلبها. يرتفع صوتها بالتعليقات كأنها بين صديقاتها. لم تعد تلبس عباءة، فقط بنطالاً وسترة طويلة وحجاباً وأحياناً طرحة تلف بها رأسها ورقبتها وصدرها. وتضحك، لعبة الكونكان هذه عظيمة. تسارع إلى فت الورق كلما انتهت جولة من أجل أن تبدأ أخرى. ترتب مفرش الطاولة، تخلي المنافض أولاً بأول، تنتبه كي لا تندلق كأس على المفرش. هما يشربان ويدخنان وتمتد يد الواحد منهما من حين إلى آخر إلى إناء المكسّرات. هي تنسى أن ثمة مكسرات على الطاولة، إلا حين تهدد المفرش بأوراق الكوتشينة المبجلة.

أيام وليالٍ سحرية. تطهو يساعدها جمال، الضيف الذي لم يعد ضيفاً. يحمل الصحون، يرتب الوجبة، ولا ينهض عن المائدة قبل أن يرتب المكان وينظفه. نسيت أنه ضيف. بدأ زوجها يتململ. لم تشعر بتململه، أو على الأقل لم تدر لماذا، مماذا بالضبط! الرجل (جمال) في غاية الذوق. وهي؛ زوجها يرحب بلعبها معهما، لأنه ربما أخيراً شعر بعزلتها. ما الذي في ذلك!

لم يحن بعد أن تعرف ما الذي في ذلك. ستظل هكذا مدهوشة بالجو السحري. وتنهمك في لعبة الكونكان. تعجل في إعداد الغداء، كي تجلس للعب، العشاء والكؤوس التي تعدها لهما، كي تلعب، الطاولة التي تهتم لمفرشها، كي تلعب.

منهمكة ولا تشعر بتململ زوجها. شرب كثيراً تلك الليلة، يكاد يشد المفرش ويطيّرُ كل ما عليه. لم يفعل، إنه فقط يشرب، ويصوّب رأسه بما فيه من عينين فارغتين في المفرش. لا يريد أن يلعب. العبا أنتما وخلياني لحالي! اللعبة مستمرة، هذا ما يعنيها. ولم تتنبه لشيء، أي شيء. حتى حين تلاقت ركبته بركبتها، ظنت ذلك محض مصادفة لا تعني أكثر من أن تجد لركبتها وجهة أبعد قليلاً عن ركبته. إنها تلعب، تستعجل إعلان فوزها. جولة أخرى، خلطت الورق ووزعته على اثنين. رتبت أوراقها، حيّرتها الورقة الأولى، ماذا ترمي، رمت. حيّرها دفء ألَمَّ بفخذها. ذلك لا بد من طول جلوسها على حال واحدة. أرسلت يدها تصلح من التصاق ثيابها، اكتشفت شيئاً! فخذه لصيقة. هذه الحرارة هي من جسم لصيق! تسمّرت. نظرت إلى زوجها. كان ثملاً، ويكاد ينام على الطاولة. لقد نام بالفعل! وهذا الرجل! نهضت. أمسك بها من يدها. نهض. أحاط بها من صدرها. أحاط بها كلها بكل جسمه! حاولت إزاحته، انسلت من بين ذراعيه، صعدت راكضة إلى حجرتها. قبل أن تغلق الحجرة، كان قد دخل. تهدده بالصراخ، يهددها بالفضيحة! بفضيحتهما معاً. يقول كلاماً غريباً متقطعاً. فمه ينشغل بكلام آخر في جسمها. تبعده ويحكم قبضته، ويجتاحها. لم يبق شيء لم يبلغه منها. إنها مشغولة بالفضيحة، ماذا لو أفاق زوجها وداهمهما على هذه الحال!

جولة فراش كسبها. لم تكد تلملم هزيمتها حتى اجتاحها لجولة ثانية. هي أقل هزيمة، أو أن الأوراق التي تتقلب في ذهنها

قلَّتْ. في الجولة الثالثة كانت ساكتة، لا تعبير ولا تفكير ولا شيء، لا ألم ولا لذة.

صباح اليوم التالي طلب إليها أن يكون نهاراً عادياً وليلة عادية، على أن يغادر بعدها من دون أن يكون هناك ما يلفت. لتكن عاقلة، حتى وإن كان كل ذلك بإرادة زوجها، أو حتى بتخطيط منه. في النتيجة لن يتضرر من فضيحة كهذه إلا هي. سكتت، لم تفهم شيئاً.

نهاراً، كانا جالسين قبالة التلفزيون. كان يقول كلاماً يلهب، كان يريد له أن يكون كلاماً يلهب. لكنها كانت ساكنة، تشبه قطعة ثلج وكلامه يزيدها تجمّداً. إنه يعرف كل شيء في جسمها، ليس من الليلة السابقة، بل من شرح زوجها، من وصفه لكل شيء في جسمها. يعرف حتى لون وحجم الوحمة التي في فخذها. يعرف شهقاتها. متى، كيف، ما الذي يلهبها. يقول زوجها عنها «لا تشبع!» ما الذي يعنيه ذلك؟ الآن؛ ستفهم معنى نظرات ذلك الرجل، الزائر السابق لجمال. لم يكن بحنكة جمال، ولا صبره. والكونكان! ضحكت تسخر من سذاجتها.

الكونكان، ليلة أخرى وأخيرة. الليلة الفارقة، قال جمال، لا بد منها كي لا يبدو أن شيئاً حدث، كي لا يعرف زوجها. اندفعت غاضبة! كي لا يعرف ماذا؟ هو الذي جاء به، ولهذا الغرض ذاته الذي لا يريد له جمال أن يعرفه. نعم، قال لها حين لحق بها إلى المطبخ، لا ينبغي أن يعرف كي تكون هناك ليلة أخرى. صاحت، لم تشعر بنفسها وهي تصيح. لم يجد صعوبة أن يبرر صيحتها في المطبخ بوخزة سكين خطأ. عاد الزوج

أدراجه. وعاد هو لإقناعها، ليلة واحدة يطفئ بها لوعته ويغادر، واحدة فقط.

في تلك الليلة؛ لم يكن الزوج في حاجة إلى أن ينام على الطاولة. تركهما حيث هما على الطاولة، وغادر إلى فراشه لينام. اعتراها الخوف من تلك الليلة. حتى جمال كان خائفاً. لم يصعدا إلى حجرتها. ظلا حيث هما في الصالة نفسها، لكن ليسا ساكنين.

مزاج طارق لتلك المرة كان غريباً. عرفت له أمزجة كثيرة، لكن هذه المرة لم يكن أي مزاج. انتهت حالته تلك. سينتقل إلى مزاج آخر. لم يعد يجدي. لم تدعه يلامسها، أو يقترب منها، أو حتى يتكلم إليها. شكاها إلى إخوتها. حين جاء أخوها الكبير ليتكلم إليها ويعقلها، تكلم وحده. لم يسمع رداً، لم ينتظر رداً، قال ما عنده وغادر.

مزاج طارق هذه المرة أن يفضحها، وأن يقتلها إخوتها قبالة عينيه. نصب لها كميناً لذلك. خطط لكل شيء. أعطاها الأمان الكامل لتستقبل زائرها في البيت، واستقبلته! لا تدري كيف تمكن من إحضار إخوتها، بأية خدعة. حضر ثلاثة منهم، دفعوا باب الغرفة، انفتح على صديقتين نائمتين، كانتا نائمتين، لكن أفزعهما الباب الذي انفتح فجأة. لا تعقيب! أحد إخوتها عاتبها: هل يجوز لزوجة عاقلة، أن تقلق زوجها عليها هكذا!

من هنا بدأت قصة ندى!

ليس من هنا يا نشوى! وليس من ليلة زفافها فقط. القصة أبعد من ذلك. وربما كانت قصة أخيك، في الدرجة الأولى.

فتحت دفترها مجدداً لتكتب قصة ليلى. توقفت قليلاً. تختار أيّهما أولاً! كلتا القصتين سردتهما عليها رجاء، في نوع من درس. لتقول لها: اخرجي من سجنك! اختارت عائشة. سيرتها القصيرة. ليست قصيرة أبداً.

عائشة لم تكن سجينة. أمها (آمنة) هي التي دخلت السجن. ومن دون ملف، كالعادة. نساء كثيرات زج بهن في السجن من دون محاكمة، وأحياناً من دون ملف. لكن لماذا البحث عن ملف، ما دامت الواحدة من هؤلاء بمجرد دخولها السجن لا تخرج منه، حتى إن حُكمتْ ببضع سنوات، أو بضعة أشهر، أو بضعة أيام. لن يكون من معنى لذلك، إلا أنها لن تخرج أبداً. كان ثمة شرط أساس للإفراج عن أية سجينة، هو أن يجيء أحد من أهلها لتسلّمها. هذا إذا افترضنا أساساً أن هناك إفراجاً. الإفراج لا يجيء هكذا من تلقائه، بمجرد مدة انتهت أو فترة عقوبة ليس بعدها إلا الإفراج. الإفراج في كل القضايا، لا في قضايا الآداب فقط، يحتاج إلى سلسلة طويلة وغير متصلة من الإجراءات والمتابعات، يقوم بها أقرباء السجين. ينفقون من أجل ذلك الكثير من المال، الكثير جداً. بعضهم يصل حد بيع أملاكه ليواصل طريق «الشريعة»[٦]، ويخرج قريبه من السجن. ينقطع نَفَسه قبل أن يخرج! ما بالك لو كان قريبه هذا امرأة، وكان السبب في سجنها قضية آداب، يخلعها من حياته ومن ذاكرته! آمنة كان لها أهل. لكن مثلها مثل عشرات من حولها، لا أحد

---

(٦) الشريعة: التقاضي! يشارع: يقاضي!

يسأل عنهن. لا أحد يبحث لقضيتها عن محاكمة عادلة تنصفها. الأصح لا أحد يبحث لسجنها عن قضية. نسيتْ لماذا هي في السجن.

يقولون إنها دخلت إلى السجن وهي حامل. هي قالت غير ذلك. لكن لم يطل إلحاحها، اختصرت على نفسها الأسئلة، لن تشير بإصبعها إلى أحد. ثم ما الفرق إن كانت حملت خارج السجن أم داخله؟

قصتنا مش آمنة، انتهت آمنة، ماتت. كم بقيتْ في حضنها عائشة؟ هل كان لعائشة حضن؟ لا أعرف. كل السجينات يقلن لها إنهن أمهاتها، أقصد يطلبن إليها أن تعتبرهن أمهاتها. هي لا فرق عندها بين السجينات أو الأمهات كما قلن لها. لكن خالة سعدية هي التي تهتم بها. هي التي ربتها منذ كانت صغيرة، منذ ولدتها أمها! خالة سعدية تهتم بها وتخاف عليها من كل ناس السجن. الضباط، والعساكر، والسجينات، والسجانات اللواتي كن يسمّين المشرفات، وغالباً هن سجينات قديمات، تَخرَّجت الواحدة منهن من سجينة إلى سجانة، وغالباً هنّ قضايا آداب، لا أحد يقبل بتسلّمهن، ولا يجدن مكاناً يخرجن إليه. سعدية كانت صديقة أمها. هذا كل ما تذكره عن أمها. قصتنا موش خالة سعدية. ولا آمنة، ولا كل تلك الأمهات. فقط عائشة.

عائشة ولدت في السجن. هل هذا يعني أنها سجينة! هل كل من ولد في السجن، أو من أم سجينة، هو سجين؟ إذاً فكلنا في هذه البلاد سجناء على نحو ما.

لم تستطع نشوى كتابة عائشة. صعب أن تُكتبَ عائشة

بمعزل عن سجنها. فكرت أن تزورها في السجن، لم تزل هناك. لكنها لا تعرف، لم يعد سجن عائشة الذي هربت منه ذات يوم، هو السجن نفسه الذي هي فيه اليوم. في كل حالاته وما آل إليه، هو مسقط رأسها، موطنها الأصلي، أو كما يطلق البعض على محيط إقامته اسم الموطن الانتخابي. كذلك عائشة السجن موطنها الانتخابي. لكنها طبعاً لا تنتخب لأن الوطن خارج السجن، ما لها وما لأوطان الآخرين وانتخاباتهم.

في ما بعد ستعرف نشوى أن ثمة سيرة مكتوبة لعائشة، رواية لم تجد طريقها إلى النشر. الطريف أن التي كتبتها هي ليلى. الأكثر طرافة أن ليلى تركت سيرتها لتكتب سيرة عائشة. يا لهذه العائشة، الجميع يهرب من ذاته إلى عائشة.

شمسيات تفتح بالمقلوب

١

٢٠٠٠ م

لم تتمكن نشوى من إقناع ندى بالرجوع بالتدريج إلى أهلها، إلى أمها التي يتفطر قلبها بصمت وكبرياء على ابنتها الغائبة لا تدري أين ولا تدري لماذا! هكذا تقول إنها لا تدري لماذا. كل الذي تعرفه أن زوجها (طارق) بعث إليهم بورقة طلاقها عبر وسيط. بسبب تركها البيت لا يدري إلى أين. قال إنه عرض عليها فترة خصامها له أن يوصلها إلى بيت أبيها، لكنها غافلته وهربت.

هزئت ندى من كل هذا الذي قالته لها نشوى. من دون كلام، من دون رد سوى نهوضها للمغادرة!

كتبت نشوى في دفترها لقاء ندى:

الخوف هو عمى القلوب وصممها. قولي لي أين تكمن المسافة بين الخوف على حبيب، والخوف منه في آن واحد. لا مسافة بين الخوفين. هما خوف واحد قسمناه إلى اثنين، لنبرر

موقفين أو جبهتين أو قلبين في جوفنا، إزاء شخص واحد دفع به خوفنا بعيداً، ابتعد به مسافة تكفي لنشير إليه بإصبعنا، هذا هو الحبيب الذي نخاف منه! نستحي أن نقول عن شخص أحببناه، إننا أقصيناه إلى مكان ليس إلا مكان العدو. لا أصدق أن ثمة حبيباً نخاف منه، أن ثمة خوفاً من حبيب. الخوف قلعة نحتمي بها من الأخطار. ستقولين لي أمك لا تكرهك إنها فقط تكره أفعالك. قولي لي ما هو الفرق بيني وبين ما أفعل. أنا ما أفعل. ترين الآن ما الذي أفعله؟ أضيع! هل كنت يوماً غير هذه التي تضيع؟

أمي تمترست خوفاً على أولادها الذكور. وهؤلاء تمترسوا خوفاً من إخوتهم لأبيهم. هم العدو، لكنني الخطر الذي يهدّدونهم به!

كلام كثير تقوله حال ندى. لكنها لم تفتح فمها بكلمة. من الذي أغلق فم ندى؟ من الذي أخرجها من بيتها؟ أي بيت فيهما؟ بيت أبيها أم بيت زوجها؟ ندى لا بيت لها. إخوتها كانوا يهبّون لحماية بيتهم، شرفهم! هي لم يحمها أحد. حين كانت تشكو من المس بها، لم يكن أحد يكترث. ومن دون أن تشكو، بمجرد كلمة مسّتهم، جملة قالها صهرهم، هبوا لتهديده بالقتل.

هي أيضاً تمترست بالخوف. هربت لأنها خافت. خافت لأنها لعبت مع رجل غريب. لعبها الكوتشينة مع رجل غريب، هو الذنب الذي اقترفته في عرف أهلها. لم يعد يجدي، وقد اغتصبت، أن تبلغهم أن زوجها سمح لها باللعب مع رجل

غريب. لو أنها أبلغتهم قبل، كانوا قتلوه. كان عليها أن ترفض اللعب، لكنها لعبت.

شاخت ندى، الطفلة ندى نحلت كثيراً. ربما ازداد جسمها جمالاً بنحوله. لكن وجهها لم يعد ذلك الجميل المشرق. لا أقصد البراءة. البراءة ليست صبغة جمالية إلا بعيون الذكور. على العكس؛ هنالك وجوه جمالها في توهجها وجرأتها. توهج امرأة وجرأتها، في عيون ذكورنا، لا يعنيان أكثر من انعدام براءتها.

شيء ما ضاع من وجه ندى. قد يكون النضارة وصفاء البشرة ليس أكثر. وجه شاحب كأنه في حالة تغضن واكتظاظ دائمين. كأنه لا يتغيّر فيه الدم. دمه قريب من الجلد، يركد في الجلد، ليس جارياً ولم تصادفه أو تمر به ذرة أوكسجين. هل لفرط السهر؟ هل تدمن الكحول؟

ندى لم تدمن شيئاً مما يدمنه الآخرون.

لم تعد تتكلم عن شيء. ربما لم تعد تتكلم بالمرة.

قديماً، كانت تتكلم عن شيء اسمه اللذة. لا تسميه وربما لا تعرف اسمه، لكنها تتكلم عنه بوصف أثره. تتحلق البنات حولها، ويصغين كأنْ لكاهنة تصف دنيا مسحورة لا تعرفها بنات في سنها. يحدقن فيها ويصغين. أنا أيضاً أصغيت. لم تكترث لوجودي بين بنات صغيرات. لم يخجلها ذلك ربما لم تشعر به.

أتذكر كلامها ذاك، وأحدق في بنت هي الآن حافية ولا تتكلم.

أتذكر الكاهنة تصف لذة بلا حدود. كلامها عن رجل كأنه كلام عن كل الرجال. ليس ثمة علاقة، هناك فقط ممارسات.

مبكر جداً في سنها أن نسألها عن حب. لكن كلامها عن اللذة هو كلام عن أثر متجذر وعميق. ليست لذة وقتية ولا آنية ولا عابرة. لذة أو شعور لا يتوافر إلا في حب. لا يتأتى إلا عن حب مكين، أو ذكرى لحب قوي. ندى لم تعش حباً لأحد.

مثلما معظم الذكور عند سؤالهم عن امرأة، لا يتبادر لهم غير جمالها. ليس جمالها بالمعنى العميق. بل الجمال الذي يقتصر على ما تدركه حواسهم المباشرة. تفاصيل بدنية بمقاسات لا تبعد عن قدر كذا وحجم كذا ولون كذا. كما لو كان الواحد منهم في سوق، لا يلتفت إلى تفاصيل أعمق كعقل أو ذكاء أو فصاحة أو ما شابه، إلا وقد نزل بتلك التفاصيل الأعمق إلى السوق نفسها، لتشكل إضافة على سطح ما تراه عينه المجردة. والغالب أنها تمثّل إعاقة لتذوقه لهذه المرأة واستطعامه بها. شيء كهذا عند ندى، ليس هو لكنه يشبهه في شيء ما. إنها لا تصف رجلاً، إذ تتحدث عن رجل على سبيل الوصف فإنها تصف قدرته على إرضائها. في الواقع، هي لا تصف فعله بل تصف انفعالها، لذتها التي يساهم فيها، ليس كثيراً لأن لذتها كامنة فيها، هو فقط يوقظها.

تتحدث عن خشخشة يحدثها شعر ذقن، لا عن الشعر ولا عن الذقن، تتحدث عن خشخشة تحت جلدها. تتحدث عن نار بزيت مصبوب من لسان، لا تتحدث عن الفم الذي يشعلها.

تتكلم عن لذة موجودة دائماً فيها وقريبة تحت جلدها. تتكلم عن جسدها فتصف حدائق وقباباً مسكونة ومغارات وجنيات ونسائم وأبخرة تتصاعد وموسيقى.

تقول إنها تلقائياً أو بدافع من رغبة كامنة تجد يدها وقد انسلت إلى أسفل بطنها، تتحسّس شيئاً يصحو كأنه طفل يرضع، أسفل بطنها، تحت السرة، فوق العانة، هنا! أشارت بيدها. إنه الرحم. لم تكن تعرف أنه الرحم، إنه شيء يحصل وكفى. المسألة هنا لا علاقة لها بحماسة امرأة لأن تنجب. كما يحلو لكتاب كثيرين أن يسمّوا ذلك. ندى لم تخض تجربة الحمل ولا الولادة طبعاً، لتكون تلك ذاكرة تتجدّد في حماسة للإنجاب. ثمة ذاكرة ومحملة وتبعث الحنين لكن لشيء خبرتْه. إنه حنين لرجل يدخلها.

شيء يشبه الحب ذلك الذي وصفتْه. لا يمكن لشخص منطقي أن يصنفه أو يضعه إلا موضع الحب. لكنه لم يك حباً، إنني أكيدة من أن ندى لم تحب زوجها، ولا غير زوجها طبعاً. ثم إن طارق لم يُرِ صغيرته من الجنس سوى الاغتصاب! هل يمكن أن تكون ردة فعل الاغتصاب اللذة؟ ردة فعل عجيبة مضادة ومستجيبة في آن واحد.

سكتت لبرهة تفكر: هل الأمر هكذا؟ واصلت الكتابة: إذاً هكذا ردت الصغيرة على قهر الجميع لها بأن سرقت قالب الحلوى الذي في الزواج، استأثرت به ومضغته وحدها!

وضعت القلم جانباً واتجهت صوب المرآة، تنقلت يدها بين أزرار قميصها من دون أن تفتح زراً، كررت ذلك مراراً كأنما كانت تعد قوالب الحلوى التي عرفتها طوال حياتها. يصعب تذكر حلوى لم نذقها. لم يكن لها من الحلوى غير العلب والأغلفة الرخيصة، وحتى الفاخرة كانت خاوية، بداخلها لم يكن شيء.

عادت إلى دفترها، حطت يدها على القلم، هل ستكتب

سيرة نشوى مع صناديق الحلوى التي صادفتها، حتى تلك التي طاردتها كانت فارغة. لم تحز لذة مع أحد، أو عبر أحد.

لن تكتب شيئاً. انتهت نشوى وألقيتُ بصناديقها في برميل كبير للقمامة!

٢

أعددن كل شيء للحفل وجلسن على فراء الأبيض والأسود، حول مائدة ترتفع عن الأرض عشرين سنتيمتراً. ثلاث نساء كل تحتفل بنجاحها. نشوى بتخرجها من الجامعة قسم العلوم السياسية. زينب ورجاء من الصف الثاني الثانوي. هناك شيء آخر يحتفلن به، هو انتقال مشروعهن إلى طور التنفيذ. كن ينتظرن تخرج نشوى، التي أصبحت شريكة «إن آر زد. خدمات المعلوماتية»، وستدير المشروع بشخصها. ستقف في محل على الناصية، لمشروع متواضع في ظاهره، لكنه يُعدّ تطويراً لما هو موجود في السوق. مجموعة من الخدمات ترتقي بها تقنية إلى خدمة واحدة، تقدم في أغلفة صغيرة الحجم، بمتون تُجمع مادتها من أكبر عدد من المصادر والمراجع عبر الإنترنت ومن كتب الاختصاص، لطالب المعرفة مهما يكن اختصاصه أو اهتمامه. تطوّعت نشوى بـ«اصطياد» متخرّجين متفوقين من كل الكليات والأقسام. لن تعدهم بالمال الكثير، ولن يكلفهم العمل في الفترة الراهنة أكثر من الفائض من وقتهم. لكن لا بد من توفير العديد من أجهزة الكمبيوتر وخطوط الإنترنت.

صوت "Louis Armestrong!" ينبعث دافئاً وعميقاً، نشوى تغني معه: What a wonderful world ما أروع العالم. وتترجم. وتتساءل بأي عينين رأى هذا الرجل العالم وهو أعمى. لا بد من أن ثمة في العالم ما يُرى إلى تلك الدرجة. لا بد من أن في الحياة ما يريك نفسه لكنك تتعامين.

حفل ينساب رقراقاً إلى حد البكاء. ثمة من نزلت دمعتها فعلاً. لكنه لم يطل. حاولن أن يمتد بهن حبل حديث واحد يجتمعن عليه. آخر محاولة كانت لنشوى. ربما لأنها صاحبة البيت. ربما لأنها لم تعتد مثل رفيقتيها تقبّل أجواء صعبة. لا يحتمل سكوت الآخرين بوجودك. لا جدوى من المحاولات. سكتت هي الأخرى. أُغلقت الحال على ذهاب كل واحدة إلى ذاتها، إلى تلك الحجرة التي أقفالها من الداخل، لا يقدر أحد في الخارج على أن يدخلها. كل الذي يجب على نشوى هو أن تجد ما تفعله وحدها. لا يخطر لها الآن أن تقبع خلف ذلك الباب أو حتى أن تغلقه. جاءت بملف المشروع وجلست تشتغل عليه. لم تحسب أن دوامها سيبدأ باكراً هكذا.

* * *

٢٠٠١

رجاء تقلب عمرها في المرآة. دخلت التاسعة والعشرين.

ربما بشجاعة التحقت بعمل داعرة. لكنها خلال كل تلك السنين في الوسط الجنسي، لم تستطع أن تتقبّل شخصاً بوظيفة قواد، على الرغم من تعاملها مع القوادين، وعلى الرغم من

عقودهم المبرمة منذ سنين. فكيف تحتمل أن تصبح قوادة؟ لا حل ولا اختيار ولا عمل آخر لداعرة إلا قوادة. الطريق إلى القوادة إجباري.

قاربت مدة صلاحيتها على الانتهاء. الرياضي يخرج من اللعبة، ليعود إليها مدرباً في نادٍ أو مدرس ألعاب رياضية في مدرسة. وعارضة الأزياء تدير مشغلاً أو معرض ألبسة. ومحترفات التمثيل والغناء يجرين عمليات تجميل. وصهيب وزملاؤه يغيّرون العملة. أضيفي يا رجاء إلى قائمتك هذه: ورؤساء الجمهوريات العربية يغيّرون الدستور.

أصبح لديها عمل بديل. صحيح أنه لم يزل في بداياته، والنجاح فيه غير مضمون. لكن بمزيد من الدفع به يصير إلى نجاح لا شك. ومع ذلك لم تكف رجاء عن تفحص عمرها في المرآة. لقد أصبح ذلك التفحص عادة أو موسماً لا بد منه. في أيام الأسبوع يوم اسمه يوم الجمعة. في مرات وقوف رجاء الكثيرة أمام المرآة، هناك مرة أو موسم بمثابة يوم الجمعة في الأسبوع. الفرق أن جمعة الأيام لها موعد محدد. ثم إنها عطلة الناس، بينما رجاء موسمها يهجم فجأة من دون موعد مسبق، بمجرد أن تتعطل عن العمل لبضعة أيام متتالية. الناس يفرحون بالعطل وهي تخاف منها. ليست في عطلة، ليست إجازة سعت لها، إنها بطالة فرضت عليها. بمجرد اليوم الرابع يبدأ قلقها: لم يعد هناك عمل، لم تعد مطلوبة، لم يعد مرغوباً فيها. حتى بعد أن أغرقت نفسها بمهمات عديدة، بعضها فوق طاقتها يستغرق بالإضافة إلى الوقت كل ذهنها. ومع ذلك، في ذهنها منبّه بجرس

حين يدق لا يعود يشغلها شيء غير أن تقلق. إنه الموسم بالطقوس ذاتها، بالأسئلة التي لا تتغير. لم يُحدِث فيه تغيراً يذكر كلُّ ما حققته لأهلها وحتى لشخصها. إنها تسير بنجاح في التعليم وفي اكتساب المهارات وحتى في العمل البديل. ومع ذلك هناك جملة تلازمها، لازمة هي «مدة الصلاحية». انتهت صلاحيتها! صلاحيتك لأي شيء بالضبط يا رجاء؟ لم تجب عن ذلك السؤال، لم تصغ إليه، لا تفكر في طرحه أساساً.

غادرت المرآة، جلست إلى الكمبيوتر، تواصل عملاً كانت قد بدأت به. نقلت الماوس إلى Real Player وضعت سماعة الأذن لتستمع إلى أغنية لـ MADONNA، "FROZEN". لا يكفي هذا! أعادت الأغنية من جديد، وشرعت في كتابتها وترجمتها لتتعلم.

أتعبتها الترجمة. أنّبت نفسها، الناس يغنون للمتعة وأنت للعمل. لكنها عندما استأنفت العمل في مهنتها، أي بعد ليلتين اثنتين، حملت معها أغنية وسّعت آفاق الليلة. الساعة امتدت لساعات. كان الزبون سعيداً إلى أبعد حد، وهي أيضاً. لماذا تسمح لقلقٍ بأن يعتريها. إنها تتطوّر في مهنتها وتبدع وتتميز. فإنها إذاً تستمر. كلما امتد بك الوقت ازدادت مهنتك تطلباً واطردت شروطها، تطالبك بالمزيد. لا بد دائماً من إضافة شيء، لا بد من تجديد. التطوّر مطلوب لذاته، ولأن أشياءك القديمة لم تعد تجدي، ربما انتهت صلاحيتها.

لإحساسها أصابع تلمس الأشياء وتسمّيها وتبتكر وتجدد. كانت سعيدة تلك الليلة. لكن عند مطلع الفجر، ومع أنها كانت

في منتهى المهنية، تلتزم بكل قواعد وشروط المهنة، إلا أن الزبون آخر الأمر قال لها إنه يحبها، وإنه لن يسمح بعد اليوم بأن تكون لغيره. بالنسبة إليها لم يكن لذلك إلا معنى واحد: أنها فشلت. راجعت تفاصيل ليلتها تلك. هل حدث أن خرجت عن الطور؟ هل بدر منها شيء؟ هل شعر مثلاً بأنها مستمتعة وراغبة إلى تلك الدرجة التي يظنها حباً؟ هل طمع في حبها؟ هل مكنته من دون أن تقصد طبعاً من الشهي والدافئ في نفسها؟ ما الذي تفعله من أجل زبونها؟ إنه عملها تدخله بكل جوارحها. لا تقدر إلا أن تمتع وتستمتع. مهما تكن مشكلاتها فإنها تدخل خالصة للمتعة. لا تنازل عن ذلك ولا حياد عنه. إنه حقها في المتعة. هذه هي القاعدة الوحيدة ربما التي أصرت على إضافتها والتمسك بها، على صعيد اشتغالها الشخصي في المهنة. ربما لم يقَدّر لكثيرات أن يجمعن بين الإمتاع بأجر وبين الاستمتاع في آن واحد، لكنها قدرت. وإن كان هذا يعرضها لمثل هذه النتيجة من حين إلى آخر. لكنها مشكلة أو عَرَض لا يلبث أن يزول من تلقائه، ومن دون جهد أو وقت.

حملت ثيابها ودخلت الحمام لتغتسل. أهم شيء أن تأخذي ثيابك معك إلى الحمام وكل حاجاتك. هذه هي القاعدة التي ينبغي عدم إهمالها بمضيّ الوقت. أما الحب فعَرَض لا يلبث أن يزول. ألقت عليه نظرة، تمتمت وقد أغلقت الباب: عرض لن يلبث أن يزول، ربما قبل أن تخرج من الحمام، ربما قبل أن تستحم.

حين خرجت كان بانتظارها هو وحبه. شدها إليه من أجل

ممارسة جديدة. نهضت واقفة! ليست ممتنعة، لكن عليه أن يدفع أولاً! في الواقع، بإصرارها على الدفع أولاً لم تكن تهدف إلى المال، لكن هكذا تعالج مثل هذا العَرَض عادة.

من دون أن يفكر في دفع، وبكل ثقة دوَّر لها أغنية Bryan Adams، الأغنية التي لم يكف دورانها طوال الليل تكرر: To really love a woman «من أجل أن تحب امرأة». بدت بمثابة درس، ما إن وصل إلى الجملة الأخيرة كان قد تعلم وأحب هذه المرأة You know you really love a woman.

ضحكت من قلبها، ضحكت على نفسها، لقد ذهبت بها الظنون بعيداً.

حسن، لن أفعل ذلك مجدداً. هذه الأغنية بالذات لن ترافقني أبداً. سأتعلم أن أختار، وسأكون حذرة للغاية. يا لرهافة زبائنك يا رجاء. زجاج لا تدري الواحدة من أين تمسك بهم. جاهزون دائماً للكسر، ليتركوا فيك خدوشاً لا تشفى.

* * *

في ترتيبها الجديد لبيتها، أعادت نشوى كنب الصالون ومقاعده إلى الصالة التي تتوسط الشقة. أصبح لا بد من تجديده، لكن ليس من ميزانية هذا الشهر.

بنهم أقبلت على عملها في N.R.Z المشروع الذي بدا متواضعاً عند التخطيط له. لكنه منذ الشهور الأولى جرّها وشريكتيها إلى حيث لا يصح إلا الصحيح. لم يقبل هذا المشروع أن يكون متواضعاً أبداً. أما مقولة الفائض من الوقت

لعمل الزملاء المتخرّجين فقد كانت مقلباً كبيراً. متخرّجون يبحثون عن عمل منذ سنوات، تقولين لهم: نريد فقط الفائض من الوقت. كلهم كانوا فائضاً، لا في الوقت، بل في المجتمع. تصورٌ جانبه الصواب تماماً، وكان يمكن أن يهدّد المشروع كله بالفشل. لولا مبادرة زينب ورجاء برفع رأس المال، لدفع الأجور وتغطية نفقات المرحلة الأولى. لكن كل ذلك آل إلى نجاح كبير وسريع للمشروع، لم يكن متوقعاً ولا حتى مخططاً له.

أهم ما في ذلك كله يوسف. أين كان يمكنها أن تجد رجلاً مثله، من دون أن يكون هناك N.R.Z. لكنها لم تستطع إلى الآن أن تحدد هل هو صديق أم حبيب. ليس حبيباً. ستظل تقاوم هكذا إلى ما شاء الله.

في هذه، لم تكن نشوى صريحة مع نفسها. يوسف كان يقاوم شيئاً واحداً، هو أن يتزوجها. لأنه، وهذا هو السبب الذي يقوله لها، لأنه رجل متزوج. لكنه يريد أن يحب. إنه يشجع حبه لها كما لو كان عملاً يجتهد فيه ويطوره ويدفع به (لا يندفع فيه) لا تدري إلى أين. هي تقاوم الرجل المتزوج، لكنها حين يكون عندها، في سريرها، تنسى أنه متزوج وأنها تقاوم.

فيما عدا ذلك هي يقظة. حين يكونان بين الآخرين مثلاً، أو حتى وحدهما في المكتب، تكون متنبهة إلى أن هذا الرجل متزوج ولا يصلح للحب. ليس في بالها شيء، لا تهتم لتأخره عن المكتب من صباح إلى آخر، أي إنه كان نائماً في إثر سهرة زواجية طويلة. إنها حتى لا تكترث لهواتف النساء التي تصله تباعاً، ولا تتدخل في شأنه، لا تسأله مثلاً إلى أين، حين يخرج

لملاقاة هذه أو تلك، صديقات! كلهن صديقات. رجل مثله يخلص لزوجته، لا يتزوج عليها أبداً. ما عدا ذلك نساؤه صديقات. ألا يشبه هكذا أباها؟ اللعنة على المخلصين لزوجاتهم إلا في الحب!

٣

أنهت تسوّقها نشوى، اشترت كل ما توافرت عليه السوق من كاسيتات وأشرطة للسنيدار، والآنسي، والسمة، والحارثي، وأيوب. واشترت قاتاً أيضاً. لا بأس من حين إلى آخر من جلسة قات تجمعك بأصدقاء جميلين. ما من شخص يخلو من جمال. لكن المهم ألاّ يكون فارغاً يعوي فيه الخواء. ما أكثر هؤلاء! لكن حتى هؤلاء؛ ما من واحد منهم يخلو من جمال ما.

وقفت بها سيارتها عند ذلك المبنى، المكتوب ببابه وبلوحة زرقاء رقيقة: «مؤسسة عُبيد للتجارة العامة». ابتسمت للوحة والمبنى. لا بد من أن تعترف لأختها «الجادة جداً»، بأنها استطاعت أن تحقق المستحيل، لا فقط في لمِّ شتات أموالهم في استثمارات مثمرة وناجحة، هذه يقدر عليها كثيرون. الأهم من ذلك هو إعجازها في التغلب على عُقد أبيها، وإقناعه بأنه ليس في حاجة إلى عكاز من لحيتين، ولا إلى أحذية من ظل.

ليست حياة تلك التي نلمسها بقفازات. حتى الأخطار لها لذة. الارتطام الذي أدمى رأسك، اشكره لأنه وعدك بطريق جديدة، ربما أصعب، ربما أبعد، لكنك فيها أقوى.

نشوى بعد خطوتين ستصبح تقول شعراً.

انتهت الخطوات، هذه سامية، هذا حضن...

عانقت نشوى سامية، والأخيرة تتساءل ما الذي هناك...

– أنت لا تعرفين؟

– لا!

– ولا أنا!

– .....

– تقبلين دعوتي على الغداء؟ مع أني مشغولة جداً بعد العصر.

– .....

– قولي نعم قبلما أغير رأي!

– نعم.. وعلى حسابي.

– لاااا.

– خلاص امشي قبلما تغيري رأيك!

لو علمت سامية مسبقاً بمَ ستكون أختها مشغولة جداً بعد العصر، لم تكن لتقبل عزومتها:

– جلسات مختلطة؟ متى تعقلي يا نشوة!

– اسمي نشوى لو سمحت! مش بس ودياً وحتى رسمياً، لكن خليها ودياً لو بتحبيني ناديني بما أحب!

– خلينا في الموضوع!

– أيوة الموضوع! جلساتي اليوم غير جلسات زمان. اليوم أصبح لها معنى.

– لكن هي نفسها، رجال ونساء، و...

– وممكن تقولي أيضاً أنهم أنفسهم الناس، لكنني أنا اللي تغيّرت، وهذا هو المهم! يا سامية الحياة هكذا، خلقها الله هكذا: رجال ونساء واحنا محققناها.

ليس لديها وقت لتشرح ما تقصده. ومع ذلك أوقفت سيارتها قريباً من سيارة أختها، واستبقتها قبل أن تنزل لتسمعها. قالت كلاماً ثقيلاً، لا يقال بعجالة ولا بمكان كذلك الذي كانتا فيه. شعرت بذلك وقطعت كلامها. أجدى أن تضرب موعداً. في زيارتها المقبلة لبيتهم ستكون لها جلسة شاي في غرفة سامية.

آخر تلك الزيارة التي بموعد، لم تنس نشوى أن تمر على حجرة أبيها. استبدلت مسروقات المرة السابقة بأخرى، ولم تنس طبعاً القارورة. بباب المغادرة وقفت، تلفتت إلى الحجرة، تأملتها لثوان وأغلقت الباب. غمرها شعور حنون غامض فيه نوع من الخجل، ربما الاعتذار. ما الذي فعلته بها تلك الحجرة لتصبّ عليها أحقادها لسنين. أحبتها يوماً؟ منذ متى كان الحب ذنباً؟ عندما يعقبه هجران، عندما يتحول إلى فقد! أنت كبرتِ! وإن يكن، هل كان حباً لبنت عليها ألا تتجاوز الثالثة عشرة! شيء ما تغيّر. كل شيء تغيّر. تذكري كلامك لأختك. أم كان كلاماً يقال للغير!

وبباب الخروج أيضاً توقفت، نسيت شيئاً كما يبدو. وضعت مسروقاتها اللذيذة في السيارة وعادت إلى البيت. جلست مع أمها لدقائق قبل أن تسلم عليها مغادرة!

ليلاً كانت سامية تجلس إلى كلام أختها، تستمع لسطر وتمحو سطراً:

تذكرين عندما ضبطك أخوك وأنت تمسكين بإصبع كحل. لقد دسسته في فمك. كحل! تموتي بقلم كحل يا مخبولة! بس تعرفي؛ كانت فرصة لاستشهاد من نوع فريد، وإخوتك ينصبوا خيمة ويستقبلوا العزاء في أول شهيدة في دينهم الجديد.

تذكرين غرفة أمين حتى عام ٨٠ م، كانت جدرانها مكتظة بصور ترافولتا، وجيمس بوند، وأميتاب باتشان، وعبد الحليم، ونجلاء فتحي، و.. تقولي لي هذا غلط أقولك هذا طبيعي لولد في سنه، مرحلة وتفوت. المصيبة هي في المرحلة التي لم تنته. بدأت معه من عام ٨١ م منذ أصبح يغلق حجرته لا ندري على ماذا.

أحرقوا رأس أخيك، لم يعد ذلك المتوهج المتوقد المشتعل طموحاً. كان أبوك يتوقع أن يطالبه ابنه بمعمل فيزياء قبل أن يتم الثانوية. وانتهى الولد، قضوا عليه من دماغه.

تذكرين حين خرج ذات يوم من غرفته يمسك برأسه ويصيح، ظننا رصاصة أطلقت عليه. اندفعنا على صياحه جميعاً. اندفع إلى حجرة المكتبة وأمسك بصورة غيفارا، كسر زجاجها وأحرقها، ربما لم يكن يعرف من هو غيفارا. أحرق صورة الحمدي، وشرع يحرق في المكتبة. لولا أننا بدأنا نصحو من ذهولنا ونتحرك باتجاهه لنمنعه، كانت حصلت كارثة! كانت النار اندلعت وسط البيت.

تعرفين! ما حدث في بيتنا، هو بالضبط ما حدث في الشارع، نموذج أخيك ملأ البيوت، والأحياء، والمدن، والقرى!

تعرفين ما كان شعار الحزب الحاكم في انتخابات ٩٧ م؟

كان شعاره: طالبان على الأبواب، لا تنتخبوا طالبان! يقصدون بطالبان حزب الإصلاح، هذا الحزب نفسه كان شريك الحاكم في التخلص من الاشتراكيين والاشتراكية في انتخابات ٩٣ م. الحاكم في ٩٧ م بهذا الشعار هدف إلى التخلص من شريكه، أزاحه وتبنى مشروعه ليس كله المتطرف منه فقط. في النتيجة أصبح طالبان في بيوتنا. في حياتنا نحن فقط، أما هم فلهم أن يفعلوا ما يشاؤون.

إلخ.. من شريط أختها، الكلام الثقيل الذي ضربت له موعداً. قلبت سامية الشريط على الشق الساخر، هل تريد أختها أن تهديها إلى الكفر! لماذا تقول لها كل ذلك؟

في اليوم التالي، في منتصف دوامها في المكتب، وجدت نفسها تهاتف نشوى. كان لديها ما هو أهم من كل ذلك لمناقشته.

نقاش! وفي المكتب! ومع نشوى!

لو كان لأحدكم أن يقف حينها بباب المكتب، بعيداً هناك حيث المسافة شاسعة، ولا تفضي بأحد إلى سامية، لواجه سؤالاً صعباً، ليس بخصوص ما الذي يدور. واضح أنه موضوع حميمي وشخصي من ذلك الذي يقال بين صديقتين حميمتين. السؤال: أيُّ هاتين البنتين أكبر سناً؟

لا علاقة للسنين بأعمارنا. السنون! إنها مجرد رزمة ورق معلقة على الحائط، في ما يسمّونه تقويم السنة. لا مشكلة إن نسي فرّاش المكتب أن ينزع أوراقها، يوماً بيوم. اتضح أن الأيام وحتى السنوات لا تعد بمجرد أن يداً تنزع ورقة أو يوماً وتلقي بها

في السلة. واكتشفت سامية أنه يلزمها الكثير كي تكبر، الكثير جداً ليس من السنين بل من الشعور بها، عبر ماذا يشعر الناس بأيامهم؟

٤

الخبر صادم للجميع فكيف بنشوى التي تتعامل مع موضوع ندى كأنه مشكلة تخصها. ندى حامل وفي الشهر الرابع. أبقت رجاء موبايلها مفتوحاً في اتصال بنشوى لا تدري ما الذي تقوله فيه. هل تقول لها: جمال يبحث عنك، يريد الكلام معك بموضوع مهم. لن تكترث لجمال، لا تحب ملاقاته ولا مواضيعه. فتحت نشوى الهاتف، سمعت من رجاء جملة واحدة وبحسم: «بدون أسئلة كثيرة، تعالي لي لمطعم زهرة الشرق!» اتصلت بجمال، كان قد وجد ندى أخيراً بعد ساعات من البحث. اصطحبها معه إلى الموعد. بعد ساعة كان يرأس طاولة حوار لا أحد يصغي إليه، ولا أحد يريده أن يتكلم. أما ندى فكانت خارج الطاولة وربما خارج المطعم وربما أبعد من ذلك. جالسة معهم تدير وجهها عنهم، وجهها الخالي من أي تعبير. جمال يقول كلاماً ممطوطاً، يشبه «مسؤولاً مهماً» أعلنوا عنه، عن حديث يقوله في إثر كارثة طبيعية حدثت وقضي الأمر. هذا المسؤول «المهم» كان ينبغي أن يجيء قبل. مطلوب الآن أن نستمع لمسؤول البعد! إنه الكلام نفسه الذي قاله على أية حال:

— اسمعوا يا جماعة.. المشكلة وقعت وما شاء الله كان،

وإنه تمر أربعة أشهر معناه أنه مافيش حل، أقصد إجهاض، ما فيش غير إنها تكمل حملها، وهذا يحتاج لغطاء شرعي. لزوج! وهنا يجي دورك يا نشوى.

– أيش يعني تتزوجها؟ ردت رجاء.

– تقنع طارق! في الأول والأخير هو المسؤول عما وصل له الحال.

تململت ندى، تهم بالمغادرة لكن جمال يمسك بها، لأنه لم يتم كلامه. بقيت تلك الجزئية التي تتطلب منه الكثير كي يقولها. إنه يرجو ويتمنى أن يصحو ضمير طارق ويتعاطف:

– عن نفسي أنا أتعاطف مع هذه البنت، لكن زيما انتو عارفين الوضع حرج. لكن اذا وصلتوا لطريق مسدود مع طارق نشوف حل، حتى لو اضطريت أكون أنا هذا الزوج لحد ما تعدي المشكلة!

بلحظة كانت ندى غادرت المكان، حتى إنه لم يستطع اللحاق بها. حاول لكنه عاد ينفض يديه، لقد صعدت أول سيارة وغادرت. ندمت الاثنتان نشوى ورجاء، لاصطبارهما على جمال. كان يكفي أن يوصلها إلى هنا ويغادر. الآن كيف يجدانها؟

بعد أيام من البحث وطبعاً بمعية جمال، لأنه يعرف الأماكن التي تتردد عليها والأشخاص الذين يفضون إليها. وجدوا العنوان الذي قضت فيه أيامها الماضية تلك. لكنها غادرت قبل دقائق من مجيئهم. هكذا قيل لهم!.لم تيأس نشوى. ظلت تتردد على تلك الأماكن والبيوت والأشخاص كل يوم تقريباً.

لا تريد شيئاً، فقط تقيم معها في بيتها. هذه الجملة أصبحت نشرة خبرية. لم تنس أن تذيّل منشورها ذاك برقم هاتفها. أكد لها الجميع أنه لم تربطها أية علاقة بأي من تلك البيوت، لا قوادين ولا دعارة. منذ البداية لم يتقبلها أي بيت. لأنها لا تلتزم ببيت ولا بوقت ولا بأشخاص ولا بمال. إنها لا تأخذ مالاً من أحد. في البداية كانوا يظنونها تكذب. لكنها بسلوكها غير المفهوم ذاك صعب أن يحصد قوّاد من ورائها أي مال. للقوادين طرق يحصلون بها على المال، لكن مع ندى لم يفلحوا. وفي النتيجة القواد لن يكفل واحدة ويسدي إليها الحماية هكذا بالسخرة! هذه البنت غريبة، من سيارة إلى أخرى، من بيت إلى آخر، من جماعة أولاد أو طلبة إلى غيرهم. حتى متسوّلو الشوارع أخفوها عندهم لفترة. باختصار؛ لم يستطع أيّ قواد أن يسيطر عليها أو يروّضها، أو حتى يبقيها في بيتٍ لساعة. هذه آخرتها إلى السجن، لن يطول بها الوقت لتسجن، هذا إذا لم تكن قد سجنت فعلاً.

بكت نشوى، هذا ما تخشاه. حضنتها رجاء وربّتتها: ثقي أنها ليست في السجن، سألتُ وعرفتُ ليست هناك. نظرتْ إليها نشوى من خلال دموعها كأنما لتقول لها: لن تلبث أن تصل. ستضع مولودها في السجن. السجن الذي ولدت فيه عائشة.

جدّدت نشوى منشورها. أصبح رسالة موجهة إلى ندى. إنها على استعداد لتبنّي طفلها القادم، ضعيه عندي واذهبي إذا شئت.

خبر آخر تلقته نشوى بخصوص ندى: تُوفيت أمها. قضت

بضعة أيام في الإنعاش إثر جلطة دماغية انتهت بها إلى الوفاة. لم تذهب إلى العزاء. ولم تكف عن البحث. لو أنها تصل إلى السجن ستخرجها مهما كلفها ذلك.

بعد شهر أو أكثر، وهي تمشط بسيارتها كل تلك الشوارع والحارات، لمحتها. عندما اقتربت منها ترجلت، كانت تسير نحوها وهي خائفة أن تهرب منها. لم تهرب، لم تقف، واصلت طريقها كأنْ لا أحد هناك. تناديها لا ترد. تمسك بها، تنفض يداً عن كتفها ولا شيء أكثر. لا صوت لهذه البنت. حين صدر عنها صوت فبجملة لم تزد عليها: «مشتيش أكلم حد».

إنها ندى لكن بملامح غريبة. خمارها تبقعه الأوساخ، عباءتها متربة ومزق تتناثر فيها، أسفل العباءة أصبح خيوطاً لفرط تهلهلها، حذاؤها؛ ليس حذاءً إنه «شبشب» وممزق أيضاً.

ظلت تمشي، ونشوى خلفها تكلمها لا تسمع. تمسك بها لا تقبل. بلحظة أوقفت سيارة وامتطتها. ونشوى واقفة ببلادة. كأنها لم تكن بين يديها قبل لحظة. كأنها لم تجدها. كأنها لم تبحث عنها. كأن ندى لم تكن إلا وهماً. توهمت بنتاً اسمها ندى. لم يكن هناك أحد اسمه ندى. الله لم يخلق أحداً اسمه ندى. لم يخلق أحداً بالمرة. كل هؤلاء البشر هم أشباح، أوهام. كل واحد فيهم هو وهم لأحد يبحث عنه. وهذا الذي يبحث، هو نفسه وهم، لكنه لا يعرف.

٣٩ درجة حرارة نشوى. رجاء تضع لها الكمادات، وزينب تعد لها عصير البرتقال، بدأت نشوى تهمهم، تهذي، فتحت

عينيها، تململت، فتحت فمها تثرثر. دخلت نوبة ثرثرة، التفتت الممرضتان تشجعان نفسيهما: هذا يعني أنها تتحسن.

* * *

كانت مستغرقة في عملها على الإنترنت. لمحة عابرة حولت انتباهها كله. حملتها خطى ذاهلة لتجلس قبالة التلفزيون. اغرورقت عيناها بالدمع لمرأى الناس يتدافعون من النوافذ، يهربون، يلقون بأنفسهم من ارتفاع شاهق. لم يعد ذلك هرباً، وليس انتحاراً بالطبع لكنه هول ما يحدث. انحدرت دمعتها، رفعت صوت التلفاز قليلاً لتتحقق من الخبر. برجان ينهاران، نيويورك وواشنطن تتعرضان لهجمة إرهابية. على الفور تذكرت أخاها أمين وانهمرت دموعها، إنه غائب منذ أكثر من أربع سنوات، لا أحد يعرف عنه شيئاً.

كان ينبغي أن يبحثوا عنه وأن يجدوه. لم يفعل أحد شيئاً من أجله ، علَّ بعضهم فرح بغيابه ليس مهماً إلى أين! الجميع اعتبره حالة ميؤوساً منها، لا فرق إن عاد وإن لم يعد. حتى أبواه لم يفعلا شيئاً. بدا الأمر كأنه لا شيء. كأنه خرج مغاضباً من ذلك الخروج الذي ينتهي بولد ببيت عمه أو خاله، بالكثير هو في بيت هذا الصديق أو ذاك، لن يلبث أن يعود، على مهله، لا بأس؛ أياً تكن البيوت التي يتنقل فيها، إنه بأمان وسيرجع قريباً.

صباح اليوم التالي ذهبت إلى بيتهم. لتطمئن أمها في مصيبة غياب ابنها، الغياب المجهول المصير. تقف إلى جوارها في حادث كأنه حدث اليوم. بيتهم عادي مثل كل أيامه. أمها في حال

جيدة. سألتها عن ابنها. قالت إنها لا تكف عن الدعاء له، يحفظه الله ويحميه ويردّه إلى أولاده سالماً من دون مكروه. سألتها هل تشعر بقلق عليه؟ ردت بألاّ جديد، هو قلب الأم الذي لا يكترث له الأبناء، ولا يعلمون شيئاً عن لوعته عليهم.

هل وحدها أيقظها إرهاب واشنطن على غياب أخيها! الأسئلة نفسها التي طرحتها على أمها، شرعت بطرحها على أبيها ذلك النهار. كان مشغولاً يحتفل بما سمّاه «نصرنا» على الإمبريالية. أقسم لو كان ابنه واحداً من أولئك الأبطال، ليبنينّ له تمثالاً يخلده. هذه بطولة منقطعة النظير!

تمنّت لو لم تذهب إلى بيتهم، ولم تستمع إلى كلام أبيها ذاك. كلام صادم، وخصوصاً من أبيها. حتى في سنوات كرهها له كانت تُغْليه كفكر وكموقف. لم تتوقع ردة فعله هذه أبداً.

قضت أياماً ليست بطويلة، تبحث عن أمين لا تدري أين. استعانت بطارق، لا بد من أنه يعرف أصدقاء له، أو أية طريق تفضي إليه. لقد كانا معاً، ولفترة غير قصيرة، ينطلقان في حياتهما من تحت اللحية نفسها. طارق ينفي أن يكون قد انخرط في حزب أو انضم إلى أية جماعة. ما الفرق؟ أن تحمل بطاقة حزب وأن لا تحملها، ما دمت تحمل الفكر نفسه فأنت في الحزب نفسه. حتى أبوها الذي ظل يناهض ذلك الفكر، ويقف إلى النقيض منه، هو اليوم «ينتصر» به!

المهم الآن هو أمين. إنها لا تسأل طارق عن فكر، بل عن ناس يفضون إلى أخيها. ذكرها بحثها هذا عن أخيها، ببحثها عن ندى. ثمة شيء من التشابه. قبل يومين كانت في السجن

المركزي بصنعاء للسبب نفسه. التقت بشخص يراجع لإطلاق أخيه وابن عمه. خرجا قبل عام من بيتيهما، يقصدان الجهاد في سبيل الله، في العراق أو الصومال أو أي مكان. قبض عليهما وزُجّ بهما في معتقل الأمن السياسي. وأخيراً اقتيدا إلى السجن المركزي. قريبهما يراجع لا يدري من يراجع. أين أوراقك؟ سألته. لا أوراق، لا ملف، لا واقعة ضبط وإحضار، لا أمر حبس، لا إحالة إلى السجن. لا أوراق رسمية بالمرة. هذا هو المتشابه. البغاء والجهاد في سبيل الله يترعرعان على الأرض نفسها، لينتهيا إلى النتيجة نفسها، ويلقى عليهما القبض بالطريقة نفسها، من دون أية ملفات! تذكري سجنك يا نشوى، لم يكن بيدك أية وثيقة تقاضين بها أحداً. مثلك مثل عائشة! سجون شفوية. كل من فيها عائشة. ولا أحد يعترض. أنت كيف اعترضت؟ كنت في حاجة إلى وثيقة لتعترضي! نسيت! ربما كان يلزم كذلك أن يزورك وفد من البرلمان ليسألك: هل لديك ما تعترضين عليه؟ كيف تحبين أن يكون اعتراضك: شفوياً؟ أم بالإشارة؟ قلقلة أم زمّ شفة؟

لم يُجد بحثها عن طارق، وجدته لكنه لم يُعنْها. كان مشغولاً بمشروعين، الأول عمل عند العمة أو معها كما قال. عمل لم تتحدد طبيعته بعد. والثاني زواج، لم تتحدد العروسة بعد، ليس فقط من تكون بل حتى ماذا تكون. كل شروطه المتوافرة إلى الآن أن تكون جميلة، هذا مفروغ منه، وألاّ تكون ابنة فلان ولا أخت فلان. يريدها عزلاء وحافية، مجردة من أية وسيلة تستقوي بها عليه.

كلامه ذاك جعلها تعود بذهنها إلى الوراء، تتساءل مَن مِن زوجاته أوجعته قوتها، أو استقوت بأهلها عليه. بشرى؟ والدها كان عضواً مهماً في حزب الإصلاح، لكنه تُوفي منذ زمن بعيد. وهي كفت عن مزاولة أي نشاط من أنشطة الحزب نفسه، بمجرد أن طلب إليها ذلك طارق. ندى كانت ابنة فلان وأخت فلان، لكن المؤكد أنها لم تستعن بهم يوماً عليه. هي نفسها كانت خائفة منهم. وإذا كان لهاتين الزوجتين أو الطليقتين أحذية أخافته، فبماذا أخافته زينب؟ إنه حتى لم يطلقها خوف أن تلطخ اسمه كما عجل بطلاق ندى لأنها، كما قال، هربت! صحيح؛ زينب لن تلطخ اسمه ولن تستطيع إيذاءه بشيء لا قبل ولا بعد. لأنها باختصار ليس لديها من الأحذية ما يكفي لإرهابه، أو حتى لإلزامه بما يجب عليه.

طارق لم يطلق ندى خوف أن تلطخ اسمه، بل خوف إخوتها، كانوا سيقتلونه، بسبب ما آلت إليه حال أختهم في بيته.

قبل أن يجد زوجة جديدة، طلق زوجته القديمة (بشرى)، وترك لها البيت. تحت ضغط من أبيه طبعاً، ترك البيت لأولاده. جيد هذا، على الأقل سيتذكر أن له أولاداً، كلما تذكر أنه تنازل عن مبنى مؤثث وجاهز للسكنى.

٥

وحدها المتفرغة لعمل المكتب وتتقاضى راتباً شهرياً. رجاء لم تغيّر برامج عملها وأنشطتها، وإن كانت تعمد إلى المباعدة بين

مرات العمل من زبون إلى آخر. زينب في البيت، تعمل في وظيفة أم لنزيلاته. هذا الأمر يكاد يحدث شرخاً في رأس رجاء. إنها تفسد عليها جهودها لسنين. ترى أن النظام الذي التزمن به في البيت هو الذي كفل له استقراره وحتى استمراره.

دائماً يلزم رجاء قلق تعيش عليه ومشكلة تحتد لحلها. بهذه العبارة تقريباً حلت زينب مشكلتها إزاء توتر رجاء.

* * *

عائشة، حين أخافتها شوارع هذه المدينة الموحشة، فرت عائدة إلى موطنها الأصلي، إلى السجن المركزي. ندى إلى أين تفر؟

ندى هي عائشة سجننا، السجن الكبير الذي بقضبان غير مرئية، فقط لتضيع ندى خلفها. يا للزمن الذي جعل نشوى هي التي تبحث عن جمال! لقد بحثت عنه من أجل ندى ولو لخبر عنها. إنه لا يعرف، قال، قبل مدة شاهدها من بعيد وبحضنها طفلها أو طفلتها، ما إن اقترب منها حتى فرت كالعادة. تعب من ملاحقتها، لها الله قال لنشوى. لكنها رجته ألاّ يتعب. يا لسخرية ما يحدث! من تسأل؟ جمال لا يعرف، وتعب! جمال تعب من تتبع أخبار جريمته. ليست جريمته وحده، ولا جريمة طارق وحده، ولا إخوتها وأبيها وحدهم. جريمة من هذه التي أودت بندى؟ لم تعد ندى وحدها. في حضنها طفل أو طفلة. ثمة جيل لاحق أودت به الجريمة نفسها.

حين ذهبت نشوى إلى السجن المركزي بحثاً عن أخيها.

عرّجت على قسم النساء لتسأل عن ندى. سألت عن ثلاث: ندى، عائشة، ليلى. وحتى عن خالة سعدية. لم يجبها أحد. كان يوماً هازئاً بامتياز! كانت تتكلم لغة لا يفهمها أحد. قولي لا يسمعها أحد. يردون عليها لكن بسؤال: ما قلت؟ ما تشتي؟ عائشة من؟ من ندى؟ من سعدية؟ من ليلى؟ «سبعين واحد» يرد عليك بأسئلة. حين شكت ذلك لرجاء، ردت ساخرة هي أيضاً. لماذا ذهبت إلى السجن؟ أسئلة مثل هذه لا تطرح هناك. حتى ما يخص أخيك! «كنت تكلميني ألقى لك من نسأله».

لم يطل الوقت، جاءتها بالجواب: أمين ليس في السجن. ندى لم تصل بعد إلى السجن. الخالة سعدية ماتت منذ سنين. ليلى خرجت منذ ثلاث سنوات. عائشة لم تزل في السجن. وإذا أردت مقابلتها، هي أو أية سجينة، فلا بد لذلك من تفاهم مسبق، من خارج السجن لا من داخله. «كلميني نشوف من نسأل، مش رسمياً طبعاً، لكن نشوف».

* * *

حسمت أمرها مع يوسف، تركته. لا تريد رجلاً كأبيها. بمجرد اتصال هاتفي خاطبها فيه بصيغة المذكر، طردته من حياتها. لن تكون تلك المرأة التي تتنكر بزيّ رجل! لأجل رجل يقول إنها حبيبته. يعاملها كواحدة من عشيقاته.

هو أيضاً ترك الوظيفة، لا يريد عملاً ليس الرجل الأول فيه!

* * *

توقعت نشوى أن تكون «كوشة» سامية زرقاء. لكنها كانت وردية. حتى شعرها لم يعد يصر على السواد الفاحم. عينا سامية جميلتان من دون نظارة ولا حتى عدسة طبية. في الواقع، لم تكن سامية تعاني مشكلة نظر. لم تكن بحاجة إلى شيء، إلا إلى ذلك الحب الذي دفع بها من الداخل، من القصيّ في ذاتها، إلى حيث تقف هكذا من دون عكاز.

كان عادل يرشفها بعينيه. توقعت نشوى للوهلة الأولى أنه مثل معظم العرسان في مثل هذه المناسبات، الذين يجدون أنفسهم فجأة وسط لفيف من نساء غريبات فيرتبكون. في حفل الزفاف كل المدعوات يدخلن أرديتهن السوداء بمجرد دخول العريس الصالة. تخفت الأضواء إلا تلك المصوّبة على العروسين، يحاط العروسان بسواد ليس إلا أعيناً، يربك العريس ذلك، يبديه هدفاً مكشوفاً، لا يجد مفراً من حصار الأعين سوى أن يحتمي بعروسه. يواري ارتباكه بأن تظل عيناه مصوبتين باتجاهها.

عادل لم يكن مرتبكاً بالمرة! كان وجدان.

* * *

من دون اتصال ولا موعد مسبق وقف جمال قبالة مكتبها، رفعت رأسها لترى من؟ عاودت الانشغال بأوراقها. عليها ألاّ تنسى أنها سبق أن حادثته للسؤال عن ندى. أوقفت تشاغلها ذاك لترحّب بزائرها. أخرج من جيبه ورقة، إنها أقرب إلى كرة منها إلى صفحة ورق. من دون كلام ومن دون أن يجلس بسط الورقة أمامها على المكتب، كأنما يبسط لها «خريطة طريق». لم تفهم

شيئاً. بعد دقيقة أعادت إليه الورقة، كأنْ لا شيء مهم. إنها الطريق إلى أمين، قال لها، لو أردت تفاصيل اتصلي بي. وغادر.

طريق إلى أمين أم إلى الاتصال بك؟ فردت الورقة مجدداً، قصاصة ورق واضح أنها أخرجت من سلة مهملات، الذي كتبها لم يجد لها مكاناً أفضل من السلة. فردتها جيداً، لا بد كانت مسوّدة تقرير كتبه أحدهم ليرفع به إلى رئيسه أو إلى أحد ما. لا وجود لأسماء، فقط تواريخ وأرقام عن معتقلين مشتبه فيهم، في انتمائهم إلى الجماعات الإسلامية المتطرفة، أكثر من مئتي معتقل للعام الحالي. آخر القصاصة كان ثمة اسمان، قرأت: «عبد السلام نور الدين حمد» و«أحمد سيف»، وهما أستاذان جامعيان زائران، ملحقان بمركز دراسات البحر الأحمر في جامعة إكستر بالمملكة المتحدة. اعتُقلا واستُجوبا بشأن «التجسّس لصالح قوى أجنبية» و«علاقتهما بأسامة بن لادن» و«إسرائيل» و«الانفصاليين»[٧]، كما أن اعتقالهما هو من «التدابير الوقائية» المتخذة في أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة. و.....

ماذا بعد؟ هذا هو المطلوب، أن تسأل ماذا بعد. لن تتصل بجمال. لا شيء جاء به، بهذه الورقة، غير استعراض سمج أنه في الأمن السياسي! قديمة. شربوها لنا قبلك وبصقناها.

---

(٧) الانفصاليون: الموقعون عن الطرف الجنوبي على الوحدة ٩٠م، أعلنوا الاستقلال أثناء حرب ٩٤م وانهزموا.

عاتبت رجاء. هي التي فتحت ملف بحثها ذاك أمام جمال. وسخرت منها: هذا هو سقف معارفك من السلطات! لكنها بجد تريد عونها للوصول إلى ليلى، تريد أن تقرأ روايتها، سيرة عائشة؟

– لكن ليلى ليست في المهنة.

– يعني؟

– ليلى دخلت السجن بتهمة السرقة! بمجرد خروجها صعب تلقيها.

– ولا زينب تقدر؟

– أنت ما هو اللي تشتيه منها؟

– سيرة عايشة!

– وليش ليلى، روحي لعايشة؟

– أريد الرواية المكتوبة، افهمي!

– مش أنت بدأت تكتبي سيرة عايشة! روحي كمليها من عايشة نفسها!

– ليش أكتبها وهي مكتوبة.

– ياللي بتفهمي: ليلى كتبتها وهي في السجن، يعني لو تجي تكتبها الآن ع تكتب رواية ثانية، وهي نفس الكاتبة، وهي نفس البطلة. فما بالك لو جت واحدة ثالثة وكتبت الرواية! ع تكون رواية ثالثة.

– يا سلام! والحقيقة؟

– انت ع تكتبي رواية والا ملف تحريات؟

– ولو، موضوع كُتِب، صعب تكتبيه قبلما تطلعي على ما كتب فيه!

– هذا لو كتابة منشورة، اسمعي؛ فيه باحثة اجتماعية اسمها سميحة. هذه ممكن تلقاها لك زينب، أما ليلى انسي! تكون الآن تبذل كل جهدها في إنكار السجن وأيامه.

٦

٢٠٠٢

كان يفترض بلقائهن هذا أنه: «اجتماع عمل» لمناقشة المستجد والطارئ، دائماً عندهن جديد وطارئ. سيعدن كل ما كسبنه من مال لما يقارب عامين إلى N.R.Z. وقد يضفن عليه لشراء آلة فرز ألوان وطابعة ليزر بطول بضعة أمتار. حين فكرت رجاء بهذا المشروع لم يكن يزيد عن «محل على ناصية» يقدم خدمات بسيطة، بعض الملازم بمعارف وعلوم متعددة، تطور إلى «أغلفة» كتيبات جيب من قبيل ما يقبل عليه الجمهور ويقدر على هضمه، تطور إلى دورية تعنى بالجديد، أي إن هنالك مراسلات وكتاباً يدفع لهم. أصبح المشروع بهذا الجديد، أي بإصداره لدورية «متون» أقل ربحاً مما كان عليه. أدخلن جديداً إضافياً: الإعلان، ليس فقط في صفحات «متون» بل الإعلان كنشاط تجاري له معداته وأدواته وكادره ودفاتره المحاسبية. والآن على هذا النشاط الذي لم يكن في الحسبان، لكنه أثبت جدواه وأنه الرابح في ما ينشطون، وخصوصاً في مواسم الانتخابات؛ عليه أن يستوفي شروط التنافس ويجهز بمعدات متكاملة.

في إثر نقاش جانبي بينها وبين رجاء أطبقت نشوى كل

أوراق الاجتماع. ألغت الاجتماع. لا اجتماع هنا في هذه الشقة لا اليوم ولا أي يوم آخر! ما الذي جرى؟ زينب تسأل، لا أحد يجيب. تلح على رجاء لتجيبها ما الذي حدث! لم يحدث شيء، ردت رجاء. بلى كان ثمة شيء حدث، لا يزال يحدث لكن في نفس نشوى. على رجاء أن تدرك ذلك وعلى زينب أيضاً! نهضت نشوى تجلب كبريتاً بدل ولاعتها التي فرغت، ريثما تسرد رجاء لزينب تفاصيل ذلك الحوار. لم تره رجاء يستأهل من نشوى كل تلك الثورة. مجرد وجهة نظر!

كن قد نهضن فعلاً إلى طاولة الاجتماع. زينب تولت رفع أكواب الشاي والبسكويت إلى المطبخ. غسلت الأكواب وجددت لنفسها كوب الشاي والتقطت بعض البسكويت. أهذه المسافة من الوقت كافية ليحدث كل ذلك؟ أهذا ما يسمّونه زوبعة في فنجان؟ نعم، المسألة لا تعدو كونها زوبعة في فنجان. لكن هذا الموضوع في ظاهره، المسألة أكبر من ذلك بالنسبة إلى نشوى. وبدءاً من يوم غد ينبغي أن تقاسماها العمل في المكتب. أن تحضرا بشخصيهما. لن تكون زوج حذاء لأحد! تنبهت رجاء إلى كلام صديقتها. المسألة أكبر مما يحتمله كلام عارض، من قبيل ما يقال على هامش اجتماع. وشوشة صديقات.

ما الذي جرى؟ لا شيء، طلبت نشوى من رجاء أن تدعوها؛ أن تأخذها معها إلى واحدة من سهراتها تلك التي تسمّيها «مهنة». أليس هنالك سهرات جماعية؟ «بلى لكنها ليست لك، لا ينبغي لمثلك أن تحضرها ولو مرة واحدة! أنت كاشفة الوجه في الشارع والمكتب، أنت سافرة، معروفة، واسمك

يكبر. أصبح لك اسم تخافين عليه». إلى هنا لا مشكلة، تستطيع نشوى أن تتفهم خوف صديقتها عليها. لم تستوعب حقيقة رغبتها، هي لا تريد الانخراط في مغامرة غير محسوبة. كل القضية أنها هي وفؤاد رغبا في حضور حفل صاخب، من قبيل ما يحدث في كباريه أو كازينو أو ديسكو أو حتى حفلة دي جي مختلطة. لا شيء من ذلك يتوافر في المعلن. ماذا لو اتسعت لهما سهرة من تلك التي طالما تحدثت عن مثلها صديقتها؟! ستشرح لها! قبل أن تتكلم نشوى لتشرح، أردفت صديقتها كأنما شعرت بأن ما قالته لم يكن كافياً، كان لا بد من جملة مؤثرة. هذه الجملة المؤثرة هي الحدث. ليست هي الحدث، الحدث موجود في نفس نشوى، ويحدث منذ سنين لكنه لا يتكلم. تكلمت رجاء: «لاحظي يا نشوى؛ أنت اليوم تحملي عبئنا جميعاً، أنت واجهتنا في N.R.Z في مشروعنا اللي بيكبر كل يوم. بدونك لن يكون هناك مشروع ولا عمل ولا دخل لا مال ولا أمان، لا استقرار لنا جميعاً».

لا! هكذا صاحت نشوى.. لن تكون زوج حذاء لأحد!

أغلقن ملف آلة فرز الألوان، جديد عملهن الطارئ. قد لا يكون هناك جديد ولا مشروع ولا عمل بالمرة. خضن نقاشات طويلة لأيام. إلى ماذا وصلن؟ المسألة ليست بتلك السهولة. مبدئياً يعد نصراً ذلك الذي حققته نشوى وبمحضر رسمي. أهم ما مثله ذلك المحضر من قفزة، أن اجتماعه تم في المكتب. كلٌ من زينب ورجاء ستباشر مهمات وتحضر العمل في المكتب. لم تكن نشوى صاحبة الملاحظة التي كان لا بد منها بخصوص

لبسهما. رجاء شعرت بضرورة أن يكون هناك اختلاف في ما تلبسه هنا وما تلبسه هناك «في المهنة»! لن تحضرا إلى مكتب N.R.Z بالجلباب والنقاب الطويل. ولن تستطيعا طبعاً أن تحضرا سافرتين. فبحسب نكتة زينب: «لم يبق رجل في البلاد والبلدان المجاورة وحلف الأطلسي لم ينل شرف سفورهما. لقد كان لهما من السفور، في الأسرَّة فقط، ما لو وزّع على النساء جميعاً لكفاهن وفاض». هذه الجملة الطويلة والمبالغ فيها بالتأكيد هي مزحة زينب، التي لم تثر ضحك صديقتيها. لبستا في N.R.Z العباءة والخمار. إنه على أية حال لبسهما الجديد لكن حال ذهابهما إلى الجامعة فقط.

كلتاهما بدأتا دوامهما بارتباك كبير. ليست المسألة خبرة أو قدرة، المهمات التي تزاولانها في المكتب هي نفسها التي كانتا تنجزانها من قبل، لكن «من منازلهم». الجديد هو وجودهما في المكتب، في عمل بين آخرين زملاء وليسوا زبائن. زينب أكثر حرجاً. ليس حرجاً ذلك الذي بدا عليها، إنه خوف. يكاد يسمع لخوفها صوت. على أنها منذ خمس سنوات لم ترتكب شيئاً من ذلك الذي تسمّيه «الحرام» وتحاسب نفسها عليه. اللهم إلا زواجها بطارق. الزواج أو البيت الذي كان خروجها منه يشبه خروجها من قسم شرطة أول مرة. ذلك الذي لم تصرّ فيه على تسلم محضرها بيمينها، سربها الضابط كما لو كان يسرب قطة. عشر سنين تكرر ذلك التسريب وبالطريقة نفسها كل مرة.

رجاء كانت لها مشكلات أخرى مع نفسها. مشكلات أشبه

بماء راكد، ألقت فيه حجراً صيحة نشوى تلك: لا! لن أكون زوج حذاء لأحد.

* * *

كتبتْ:

عائشة خرجت من السجن مرتين، وعادت إليه مرتين.

في الأولى التي دوّنتها سميحة، كانت قد سرقت بطاقة زائرة. البطاقة سرقتها ليلى لتهرب بها من السجن. فجأة لم تجدها، سرقتها منها عائشة. كما سرقت من تحت فراش سعدية صرة أمها. التركة التي خلفتها أمها عبارة عن: زنة كرمبلي[٨] ومصّر[٩] وصارمية[١٠] وسروال دمس[١١] وحذاء بنصف كعب. عائشة لم تكترث في كل ذلك سوى للحذاء. دخلت الحذاء وخرجت به من السجن. كان واسعاً جداً ويحدث طقطقة، ومع ذلك لم يتنبه أحد. في الواقع، هي خرجت ببطاقة كانت قد وقعت عن زائرة، التقطتها ليلى ومنها وصلت إلى عائشة.

كان السجن أيامها أشبه بمدرسة داخلية. له ساحة أشبه بفناء مدرسي. فناءان اثنان كانا يستغرقان وقت سميحة. الأول في مركز البحوث التطبيقية والدراسات النسوية بجامعة صنعاء.

---

(٨) زنة كرمبلي: ثوب من قماش متواضع القيمة يطلق عليه اسم كرمبلي.

(٩) مصّر: غطاء قصير يغطي الرأس دون الوجه.

(١٠) صارمية: طرحة تلف لتغطي الرأس والوجه، والصدر.

(١١) سروال دمس: سروال بطرفين من القطيفة. وهو لباس شعبي، ولا تزال بعض النساء يلبسنه في البيت، وخصوصاً المسنات.

والثاني في السجن المركزي قسم النساء بصنعاء. الأول كانت تقطعه بسرعة كأنما هي تسير على رؤوس نافرة من الشوك، لا لشيء إلا لأن أرضيته مفروشة بالحصى الخشن، خشونته كانت تجرح حذاءها ذا الكعب العالي. الثاني كانت أرضيته مفروشة بالرمل الناعم ومع ذلك كانت تنزع حذاءها، ليس خوفاً على الحذاء ولا على أرضية السجن طبعاً، الأرضية التي كان كعبها يترك فيها غرزاً توجع السجينات. كانت باختصار تحب أن تنغرز قدماها في الرمل. كانت تلتذ بدفء الشمس الذي ينبعث خالصاً من بين الرمل. في الواقع، لم يكن ما يُستَغرق في سميحة هو الوقت. فهي بحكم ما يسمح به لباحثة لم تكن تذهب إلى السجن أكثر من مرتين اثنتين في الأسبوع. شيء آخر هو الذي كان السجن يستغرقه في سميحة.

توقفت نشوى عن الكتابة، هل هي بصدد كتابة سميحة؟ تريد عائشة، لا تريد سميحة! لكن هذه كتبت السجن. كيف تُكتب عائشة بمعزل عن سجنها؟

* * *

بضعة أيام قضتها ندى في الثلاجة. شُرّحت جثتها ولم تكفن كي يتم التعرف إليها. وجِدتْ مقتولةً في ظروف غامضة. لم يُعرف لها أهل ليتسلموها ويدفنوها. تقدم جمال إلى تلك المهمة لم يُمكّن منها، ليس محرماً، لا صلة شرعية تربطه بالقتيلة! تقدمت نشوى لم تُقبل، اقترحت اسم أخيها، زوج سابقاً وطليق حالياً، لم يُقبل. دفنتها الحكومة. الحكومة ولية أمر المدفونة.

هل ستدخل نشوى نوبة بحث جديد عن طفل أو طفلة ندى؟ سألت المحققين عن طفل أو طفلة بعمر لم يتم السنة. لم يكن إلى جوار القتيلة أحد، ربما سرب قبل العثور عليها، لم يكن هنالك طفل عند رفع جثمان القتيلة من الشارع. أي شارع؟ شارع الأمن السياسي بحدة. متى؟ فجر ذات نهار. من؟ كيف؟ لا تطرحي مزيداً من الأسئلة! لا تفاصيل ليطلعوك عليها وربما لا ملف. بلد؛ إما سجن وإما مقبرة. لا محاضر رسمية، لا شيء سوى قصاصة ورق احتفظ بصورة عنها الطبيب الشرعي، ربما على سبيل الذكرى، أو ليثبت بها أنه قام بعمل يستوجب الأجر. القصاصة عبارة عن إحالة إلى الطبيب الشرعي، بالخط الشخصي للضابط المختص. الطبيب ذيّل القصاصة بتقريره، بالطريقة نفسها بخطه الشخصي، مهره بتوقيعه ودفع بالجثة إلى الضابط. وهذا أضاف إلى القصاصة جملة: عُرضت الجثة على كل من لهم بلاغات فقدان، لم يتعرف إليها أحد. وعليه، وقِّع، دفع بالجثة إلى الدفن، دفنت القضية.

أنهت الحكومة واجباتها! لكنها أبت. الحكومة أبت أن تسلم الجثة إلا لقريب ذي صلة شرعية، محرم! هل خافوا لو تسلمها غريب أن ينجب منها سفاحاً!

فتحت نشوى دفترها لتضيف مقتل ندى ودفنها:

ولدت ندى وفي فمها ملعقة ذهب، كما يقولون. ومع ذلك آلت إلى مصير عائشة نفسه، بل ومصير أم عائشة. في سجن أكبر، لا أحد يدري فيه أين وضعت مولودها. لم نعرف بنتاً أم

ولداً. هل دهسته سيارة، هل لا يزال شريداً أمْ التقطته يد لتكفله وتحميه.

يا نشوى، التقارير تتكلم عن مليوني متسول. من بين كل هؤلاء سيجد ابن أو بنت ندى من يكفله ويحميه إذا كانت ندى نفسها آلت إلى الضياع!

أنت أيضاً أجرمت في حق ندى! تذكرت نشوى مطارداتها، في الفترة الأولى، لندى. لم يكن في رأسها شيء غير إقناع الشريدة بالحل التدريجي: الزواج والطلاق كطريق وحيد للرجوع إلى أهلها. كنت مثلهم، تفكرين في مصلحة أهلها، وشرفهم وسمعتهم وما ينبغي على المجني عليها أن تتبعه من خطوات تدريجية لرد اعتبارهم! هي لا اعتبار لها؟ هل فكرت بالذهاب إلى أمها؟ لسحب تلك الأم من حضنها الذي يحن لابنته ويخاف عليها؟ لم تفعلي! لم يخطر لك ذلك بالأساس! كنت مشغولة، تفصّلين زوج حذاء يعود بندى إلى أهلها. مثلهم كنت. لا فرق، إلا أنهم كانت لهم نوازعهم الشخصية، وأنت كنت بلا شخصية، تفصّلين زوج حذاء بمقاس يلائم القتلة والقتل. أنت أيضاً قتلت ندى!

* * *

قبل بضعة شهور تزوّج طارق. وأي زواج؟ زواج لافت للغاية.

لم يجد عملاً عند العمة ولا معها طبعاً. ظل معلقاً لوقت. هل لا يزال معلقاً؟ لأنه لم يلتحق بأي عمل. لكنه تزوج

وبـ«مومس»! هل هو نوع من عمل؟ ليست في حاجة إليه، إلى أي حذاء من هذا القبيل. قالت رجاء إن سعاد ليست أية مومس. إنها نافذة جداً، ربما ليس أكثر من صهيب، لكن لها خصوصيتها. صهيب على أية حال تراجعت مكانته. لم يزل قائد قواد صنعاء وضواحيها، لكن لم يعد بتلك السطوة. هنالك من زحزحه من مكانه، ثمة جيل شاب. إنه عقد التشبيب، ليس في الوزراء فحسب، بل كذلك في القوادين!

لكن؛ ألم يقل طارق إنه يريد في المرأة التي يتزوجها أن تكون حافية وعزلاء؟ هذه ليست عزلاء ولا حافية البتة، هناك وزراء يشتغلون عندها فنيين وطاقم تنسيق. إذا كان صهيب يحتكم على ثروات صنعاء وضواحيها من بنات وبني الهوى، فإن هذه ترسل البنت من محافظة إلى أخرى، ومن هذه الدولة إلى أخرى.

سعاد! والله برافو عليه. كيف وصل إليها؟

هكذا علقت رجاء بشيء من التهكم، فيما كان تعليق نشوى يستذكر حياة طارق كدرس لن يستوعبه أحد:

هل كان طارق يتعلم في ثلاث زيجات، لا كيف يتزوج، بل من يتزوج!؟

قبله تزوج عارف. أخيراً، لتقر عين أمه. فقد الأمل من تخرجه من الجامعة. ولم يلتحق طبعاً بأي عمل. لكنه تزوج. ليس قليلاً هذا. لقد جاءت فترة كان هذا هو كل المطلوب منه.

فترة طويلة مرت على عمل زينب في المكتب. لم تزل وجلة وربما خائفة. ومع ذلك بدأت تتململ من السكن في بيت به داعرات. هل اكتشفت بعد أربع سنوات من إيواء هذا البيت لها أنه ليس بيتاً، ليس أكثر من «لمة مش نظيفة»! غريبة هذه الدنيا. كل ذلك أفضت به رجاء إلى نشوى على سبيل التوطئة، لتطلب إليها أن تفسح غرفة في بيتها لصديقتهما زينب. «لا!» ردت نشوى من دون تمهيد.

«لا» أخرى من نشوى وصادمة أيضاً. لكن لم تطل الصدمة، سارعت بإيضاح لماذا لا؟ لأن المشكلة ليست في البيوت، المهم نظافة داخلنا من عدمها. بيتكن لا عيب فيه. لا مانع عندي أن أسكن فيه، ولي الشرف.

– زينب نظيفة ومن داخلها!

– زينب مغلّفة، قلتها أنت ذات مرة، لا تشعر بنظافتها. لا تشعر بشيء ما لم يكن ملموساً من خارجها ومصدقاً عليه من الجميع.

– .....

– بيتي أيضاً لن يناسبها. لمجرد أن رجلاً يدخله ليس بيني وبينه رابط زواج. ستشهد ضده وتدينه وتنفر منه. إلى أين؟ هل ستطاردينها ببيت، كما طاردنا يوماً ندى بزوج؟

– .....

– تعرفين؟ ندى أنضج من زينب! أقصد أنها نضجت في

أيام بالمقدار الذي لم تنضجه في سنوات. المشكلة فقط أن نضجها لم يكمل طوره، وقف عند حد الفجيعة. فجأة تكشف لها واقعها. لم تعالجه، لكنها على الأقل عرفته.

– . . . . .

– هلووو!!

– . . . . .

– رجاء. . ! تسمعيني؟

– . . . . .

– هل نمت جالسة؟ ولا سمعت كلمة من اللي قلتها، صح؟

– احتمال!

– أيش قلت؟

– مش عارفة! أيش قلت؟

– قلت كلام فارغ. مش مهم اللي قلته. قولي لي أيش فيش؟ مالش؟

لم تقل شيئاً. منذ شهور منذ آخر اجتماع عمل في بيت نشوى، ذلك الذي لم يتم تلك الليلة، لأن نشوى لن تكون زوج حذاء لأحد. منذ تلك الليلة وحالها مقلوبة. ابتسمت لنشوى على سبيل الرد:

– يمكن حصلت لي حالة نضج من الطور الأول، نضج لم يرتق بنفسه ليصبح نمواً!

– يعني كنت معي!. سمعتيني!؟

– يمكن!

أخيراً قررت رجاء المواجهة. لم تصبها فاجعة ندى، لكنها لن تكون مغلفة ولا مغشاة مثل زينب. قطعت كل أشغالها وأنشطتها. حتى دراستها، اللذة التي تمارسها كل يوم بذهابها إلى الجامعة، أصابها عطل لا بد من أن يكون مؤقتاً، ستعاود كل ذلك بعد أن تحل المشكلة. ما هي المشكلة؟ لا تعرف! قطعت كل أنشطتها وباغتت أهلها بمجيئها. تُرى ضيفةً أم ماذا؟

ست عشرة سنة أشغال، منها ثلاث عشرة في منفى. لماذا؟

في الواقع، لم تكن بحاجة إلى قضاء بضعة أشهر في بيتهم، أو حتى بضعة أيام. لم تكن بحاجة إلى زيارة ذلك البيت والعيش فيه. كان يكفي أن تخرج صورة أو أكثر من تلك التي التقطها مرورها العابر بالفيلا. وقوفها المتكرر قبالة البوابة الآمنة، المفتوحة. صورة لأبيها وهو يقلم الأشجار. صورة وهو يلاعب ابنته الصغرى، يطيّرها في الهواء ويفتح ذراعيه لاحتضانها وهي تهوي عليهما من أعلى. صورة وهو يلعب الكرة مع صغيره. صورة وهو يرفع سيارته برافعة تبديل العجلة. صور كثيرة، في هذا البيت والذي قبله وقبله. صور ومواقف وتحولات كانت تجبن عن قراءتها. تخاف أن تقول لها إن ظهر أبيها ليس مكسوراً. ربما لم يكسر يوماً، أو أنه كسر، ثمة كسر لا ريب، لكن لم يكن كسراً عضوياً! كسر ما ألمّ ببيتهم كله، لكن في ظهر أبيها. كسر ما أعاقه عن العمل. رجل بكامل بنيانه من بيت وزوجة وبنات وبنين. رجل بماض تحوّل من زهو لهزيمة. وحاضر تحوّل كله إلى كسر. رجل بكل ذلك، يحمله، يجثم به، يقصم ظهره، يطرحه ويسير به على نقالة.

هذا الرجل عاش ٢٠ سنة على نقالة. حتى الجنس كان ينتظر أن تجلبه له زوجته على طبق من «مجارحة». يُحمل إليه كدواء، كي لا يصاب بأذى فتنهار الأسرة كلها. شخص مكسور يمكن أن يتحول إلى لغم.

من كسرك يا أبي إلى هذه الدرجة، وألقى بوجعك كله على ظهري!؟

طرحت الكثير من الأسئلة، ليس على أحد غير نفسها طبعاً. ادخرت سؤالاً واحداً لم يئن طرحه بعد. لم تئن إجابته، أما هو فهو مطروح: هي كانت زوج حذاء لهذه الأسرة. حسن. هي من كان، أو ما الذي كان، زوج حذاء لها؟

بعد شهر واحد في الأسرة غادرتْ، ليس إلى بيت «الزميلات»، لا لشيء لكنها في وضعها الجديد، لا تريد أن تجلب لأحد المشكلات. فكما قالت زينب على سبيل النكتة المرة: لم يبق رجل في البلاد ولا البلدان المجاورة ولا حلف الأطلسي لم يخبر جسمها كله، ليس فقط وجهها. وهي اليوم في وضعها الجديد أعلنت السفور. لا تريد أن يلحق سفورها هذا أي أذى بأحد. قد يلحق الضرر بعملها بل بكامل N.R.Z، لكن ليذهب إلى الجحيم. إن لم يستوعبها كما هي فلا قيمة له. لا تريده عملاً كسابقه، عمل تتنكر من أجل أن تزاوله، مهنة تضطرها إلى التخفي طوال الوقت. تعبت من الاختباء خلف الأسماء والجلابيب والخطط والحيل، و. . . . . لن ترتدي نقاباً ولا جلباباً، ستواجه الحياة كما هي سافرة. على الحياة أن تتقبلها كما هي سافرة.

واااو صاحت نشوى وقفزت إلى الخارج لترى. لا تصدق: سيارة أنيقة، ببنت أنيقة، بشعرها. لم تعرفها بقصة الشعر الجديدة، لتوّها خرجت من عند الكوافير، ترتدي قطعتين فقط: بنطلون وبلوزة. لن يعرفك الموظفون، قالت لها نشوى. ضحكت رجاء تهمس في أذن صديقتها أنه لم يعرفها زبائنها! صادفت ثلاثة منهم إلى حد الآن في أماكن مختلفة، لم يتعرف إليها أحد. السفور أيضاً نوع من ستر. سكتت برهة ثم استأنفت همسها في أذن صديقتها تسأل مازحة: هل أنا بصدد حالة جديدة من التحدي؟ أقصد هل أنا الآن أتخذ السفور حذاءً؟

جاء دور نشوى كي تهمس لصديقتها: إنها تشعر، إنها تحس.. أن.. يدها تنسل تلقائياً إلى أسفل بطنها، تحت السرة فوق العانة في الرحم يحدث شيء، كأنه طفل يرضع. نفس الحنين، نفس حال ندى! ما الذي يعنيه ذلك؟

– برافو عليه!

– من؟

– فؤاد! دخل قلبك إلى حيث لا يخرج!

– جربته.. أكثر بكثير من ذلك الذي وصفته ندى. لا أدري كيف أصفه لك. شعور عميق لا يوصف، تتمنين لو أن هذا الرجل الذي دخلك لا يخرج منك أبداً!

– هذا هو الحب يا صديقتي!

– لكن ندى لم تكن تحب.

– ندى كانت صغيرة، فارغة، كانت مثل الوعاء النظيف

أول شيء وضعوه فيه: الجنس. منذ البداية كان هذا الوعاء يعد للاشيء غير الزواج. شاءت الأقدار أن زوّجوها برجل يعاني مشكلات أفرغها في الجنس. لم تخبر الزواج إلا بوصفه جنساً، ولم يكن زوجاً ولا حتى رجلاً، كان باختصار وبالبلدي: حيوان نيك! لكن. من قال إن حالتك مثل حالة ندى.

– كيف؟ أقولك نفس الشعور وأكثر.

– أقولك عكس ندى! أنت كنت ملآنة تماماً لكن بالعقد. مش قلنا إن الجنس ثقافة، تعبئة، وأنت تعبئتك كانت ملخبطة شوية، ملخبطة كثير.

– ندى كانت تلتذ حتى بالاغتصاب!

– هكذا فهموها أن الزواج: فخذان مفتوحان لحين الطلب. ثم لا تنسي؛ كان زواجها أمراً مفروغاً منه. استمرارها في الزواج كان يعني أن تتغاضى عن كل شيء، لأنه لا الزواج ولا الطلاق بيدها، مهما شكت أو اعترضت. هذا التغاضي كان الحل لمشكلاتها اليومية، وهو نفسه، بالإضافة طبعاً إلى عقد أخيك حفظه الله، كل ذلك أفضى بها في النتيجة إلى الشارع وإلى قتلها.

– إحنا مش خالصين منك من قبل ما تدخلي علم نفس الله يستر بعدما تتخرجي! وانت؟

– أنا أيش؟

– بيحصل معك كذا. زيي أنا وندى يعني؟

– لا! انتهت الحصة. درس ثاني إن شاء الله!

دام سفور رجاء ثلاثة أيام فقط. ولأن تلك الأيام كانت في معظمها إجازة. الأربعاء والخميس والجمعة. في السبت أوقفها عسكر الجامعة في البوابة: لا دخول لك إلا إذا لبست مثلما يلبس الناس، مثل كل الطالبات زميلاتك، حتى لو كنت جاية من المكسيك!

اشتباك بالعسكر لم يطل لدقيقتين، كلمة ورد والسلام عليكم. كانت زينب قد حبست أنفاسها توجساً مما يحدث، خوفاً على صديقتها. لم يحدث شيء. الحمد لله. عادت معها إلى السيارة ومنها إلى البيت، لا لشيء إلا لتشمت بها: سفور مرة واحدة!

السيارة هي المكان الوحيد الذي شهد سفور رجاء. حتى تلك الساعة الأخيرة من دوام الأربعاء في المكتب، لم يرها زملاؤها الموظفون. الحمد للّه؛ تستطيع غداً أن تحضر الدوام بالعباءة والخمار، من دون أن يبدو عليها من شكلها، من وجهها تحديداً، أنها تعرضت لأية نكسة. هذا يعني أنها ستلبس الخمار كذلك!

حضرت بالعباءة التي أصبحت زياً رسمياً للجميع، حتى لنساء المكسيك لو عشن بيننا لأيام. وبالحجاب الذي لم يزل اختيارياً ولو لحد بسيط. علّقت نشوى: طالبان في كل مكان.

علِقت زينب بين اثنتين لا تكفان عن التحليل والثرثرة في السياسة. فما الذي ستفعله هي حين تتخرج من كلية الشريعة

والقانون؟ ستشتبك بالعسكر؟ هل ستخرج القانون من جيب أحدهم، تضعه نصب عينيه كما يقولون ريثما ينطق بالحكم، ثم تعيده إلى موضعه؟ في الواقع، هي لم تطرح على نفسها أي سؤال كهذا. ولا أحد يعرف؛ هل حقاً ستصبح يوماً محامية. إنها على أية حال تفكر، ليس جدّياً، بتغيير هذه الكلية.

شيء واحد أفرح زينب من سفور صديقتها، من قرار سفورها ولو لم ينجح. لكنه كان قراراً ضمنياً، بألاّ تعود إلى ذلك «الحرام» أبداً!

* * *

كانت في بيتهم حين أطاح ذلك الخبر والدها. كاد يقع من طوله وهو يرى واقعة اغتيال جار الله عمر في التلفزيون. نشوى أيضاً بكت ذلك الرجل، لكن ليس كأبيها. قاسم كان يبكي عمره كله.

* * *

ودعت رجاء اليوم آخر زبون، منذ أكثر من سنة وهي تقول هذا آخر زبون. لا لشيء إلا لأن المسافة بين الواحد والتالي تعد بالشهور. هكذا أرادت أن يكون انقطاعها عن تلك المهنة بالتدريج. لقد اعتمدت خطة انقطاع لم تغفل فيها شيئاً. كان من المهم ألاّ يبدو انقطاعاً أو قراراً شخصياً بترك المهنة، بسبب عمل بديل أو بأي سبب. على الأمر أن يبدو طبيعياً. واحدة انتهت

صلاحيتها للعمل، لم تعد مطلوبة! وهي لتأكيد ذلك لا تكف عن مهاتفة القوادين بحثاً عن عمل. وصل الأمر حد أنهم يتهربون من الرد. هل نجحت؟ تتمنى ذلك.

لقد استغرقت الدراسة في الجامعة والعمل في المكتب وأنشطة التأهيل، كل ذلك استغرق وقتها وطاقتها. لكن لم يزل هناك خوف لم يستغرقه شيء. تعرف أنها تخلي طرفها من مافيات. هؤلاء ما لم يكونوا هم أصحاب قرار الاستغناء وبالطريقة التي يطمئنون إلى عواقبها، ما لم يكن الأمر كذلك فلا خلاص منهم البتة.

وحدها زينب استطاعت الخلاص منهم من دون عناء يذكر. حتى وقد صوروا لها سابقة متلفزة. إلا أنه لا أحد منهم جرؤ على الاقتراب منها، أو التلويح بإيذائها. ليس خوفاً منها بل من أصدقائها. فترة انقطاعها عن المهنة، كانت على علاقة قوية بنيكولاس، وماثيو، وكريستوفر. لم يكن بوسع شريط فيديو أن يهددها. على العكس لقد جُلب في حينه وأُتلف، كما لو كانت ورقة كتبت على منضدة ما، على الفور فوق المنضدة نفسها مُزّقت ووُضعت في السلة.

٢٠٠٣

كانت قد عرفت في حينه، أن العمة أنقذت ثلاثة مخازن في تجارة أخيها، هكذا لوجه الله أو أي وجه. لم تقف نشوى عند الأمر كثيراً. لكن ما لا تستطيع إنكاره اليوم، هو ذلك الحشد من عقود العمل والصفقات التي دفعت بها العمة في اتجاه N.R.Z.

ملصقات، بوسترات، مطبوعات، برامج عمل مرشحين، صورهم، إعلاناتهم. تكاد تقول إنها «قاولت» انتخابات ٢٠٠٣ م لمجلس النواب. في البداية كانت تظن ذلك بسبب من جهد الزملاء والزميلات، وعلاقاتهم وقدراتهم على جذب العملاء واستثمار فرص العمل والمنافسة في السوق. لم يكن واحد منهم قد وصل إلى ذلك النبوغ. حتى هي التي خبرت تجربة سابقة في انتخابات ٢٠٠١ م، وقد خططت مسبقاً لتلك السوق بمناسباتها الموسمية، لم تحقق شيئاً يذكر. وأخيراً كان عليها أن تعترف بأنه دعم عزيز وحورية. اعترفت، لكنها لم تجد الرد. اقترحت عليها شريكتاها أن يبعث المكتب برسالة شكر للعمة، كأدنى حد من الواجب، ما دامت لا تستطيع أن تشكرها شخصياً. فكرت بذلك المقترح، لم تستطع!

٢٠٠٤

هل يتسع مطبخ لرقصة صنعانية؟ لِمَ لا وقد اتسع لممارسة الحب.

أبخرة تتصاعد من قدرين خفتت النار تحتهما، لأن طباخَيْن يتصاعد رجعهما الآن على وقع صوت يصدح من مسجل كاسيت. لا بد من أن الفنان أحمد السنيدار فخور برقص عاشقَيْن في مطبخ وهو يغني لهما.

ليس وحده فؤاد تعلم الطبخ في بضعة أشهر، هي أيضاً لم تكن قد تعلمت شيئاً قبل فؤاد. مرت فترة كانت تظن نفسها تطبخ

الطعام، لكن بعد فؤاد فقط عرفت ما هو وكيف يطبخ الطعام. حتى وقفتها في المطبخ صار لها طعم ورائحة.

فؤاد خلف مريول، قبالة حلة تتصاعد منها الأبخرة برائحة الصيادية التي يطبخها، غمس الملعقة، شم، أمممم، ذاق، داخ. التقط أخرى دوّخ بها نشوى.

هي اشترت له المريول، لأن ليس لديه في هذا البيت قمصان ولا أية ثياب يدخل فيها إثر كل «طبخ». هو لا يكترث لرائحة البصل والأبخرة الملونة، إنه يُقْدم على المطبخ والطباخة كإقباله على غرفة النوم والحب. لكنها تكترث وربما تتألم لأنها لم تستطع إلى الآن أن تدخر له بعض القمصان في دولاب ملابسها أو في أي مخبأ في البيت. كأنما ستهجم عليها دورية تفتيش لتخرج من معقلها رجلاً مقيماً، حتى لو لم يكن موجوداً ساعة المداهمة، تكفي ثيابه لإدانتها. دائماً ثمة حارس بالأجر للساعات التي ينفردان فيها في البيت.

فؤاد لا يريد أن يكرر عليها مقترح الزواج. وهي لا تريد الزواج، لا تشعر برغبة في الزواج. لكنها تتوق لأن تحمل وأن تلد، أن تصبح أماً، أن تضع حيوات صغيرة كوّنتها هي وهذا الرجل. على أن يظل هو داخلها، لا تلده أبداً. الرغبة بذاتها شهية، رغبة في أن نحمل برجل لا نلده أبداً. لكنها لا تكفي. قالتها له، طلبت إليه ألاّ يخرج! لكنه يخرج. يحدث من وقت إلى آخر وفؤاد معها في البيت أن تتعطل. شيء ما يعطل كل شيء فيها حتى الحب. يحدث أن تلتفت إليه لتجده شخصاً غريباً، تستغرب وجوده في شقتها، تستنكر وجودهما معاً في شقة

واحدة. لحظات خاطفة يصعب عدها بمؤشر الثواني في منبه الوقت لقلة مداها في الوقت. اللحظات الخاطفة نفسها توقف داخلها دوران الحياة. يتعطل فيها كل شيء فتبدو اللحظة صفحة لا تنقلب إلى أخرى.

بكت في حضنه، شكت إليه لحظاتها الخانقة تلك، صاحت فيه لماذا تخرج مني. لماذا يحدث معي هذا؟ كفكفت دموعها لتشرح له ما يحدث داخلها، لكنها انهمرت أغزر وهي تصف له كيف أنها تفقده فجأة، يضيع، يغيب، ينعدم شعورها به. أحياناً يحدث هذا وهو داخل رحمها. ما الذي يعنيه ذلك، لماذا؟

إنه الخوف، قال لها، ضدان لا يجتمعان في فراش واحد. الخوف والحب لا يلامس أحدهما الآخر إلا ليطرده ويحل محله. وأردف كأنما يحل المشكلة: تتزوجيني؟

* * *

غيّرت ثيابها، دخلت قميص La Senza القميص الذي شاركهما فراش الحب عصراً. أرخت أستار الليل على صوت جنيفر لوبيز وكأس أوزو. أخذت حاجتها من الضوء بأن صوبت قنديل الأباجورة نحو الفضاء المعاكس. أطفأت ما بقي من أضواء الصالة. أطفأت التلفزيون. تمددت بنصف جسدها على الكنبة. الليل لي. رشفة واحدة، لم تكد تمسك بالكأس حتى وضعتها على الطاولة. نهضت واقفة، أحد يطرق الباب. مدت بصرها إلى ساعة الحائط، لم تتجاوز التاسعة، وإن كان؟ لا أحد يزورها من دون موعد، حتى فؤاد لا يمكن أن يجيء من دون أن يتصل

بالهاتف. لا بد من أن شيئاً ما غير عادي. نظرت إلى عري قميصها، لن يستطيع روب أن يستر رائحته. واحدة من أكثر الروائح تعقيداً وانفضاحاً. لم تعد "My Sin" ولا "Only the Brave" ولا المزيج منهما فحسب، ولا التداخل بين رجل وامرأة. إنها وإن كانت خلاصة كل ذلك، فإنها أكثر من أن تختزل إلى مسمًّى محدّد يصبح اسمها.

سألت من؟ كان الصوت لامرأة، فتحت. غير عادي. وغير معقول. لو ظلت تحزر وتتكهن، لو توقعت الناس جميعاً، لم تكن لتتوقع هذه الزائرة.

– عمة حورية؟!

– ما فيش أهلاً!

– فيه طبعاً. اتفضلي!

منذ متى لم يجمع مكان بين هاتين القريبتين؟ في عمتها ما يستحق أن تطيل النظر فيه وتتعجب. أين ذهب ذلك الجسم الرشيق الفاتن! هذا الذي أمامها جسم مكتنز بلحم كثير، يحيط به السواد المطرز الأكمام والصدر. أنت أيضاً تطرزين عباءاتك؟ هذا مود خليجي، ولا يصلح إلا للبنات الصغيرات. راجعت نفسها نشوى وهي تسترق نظرة أخرى: تطريز، لكن وقور وفاخر.

مازحتها العمة لنومها المبكر هذا، لا أحد ينام هذه الساعة! مش نايمة سهرانة، قالت لها وقادتها إلى حيث تجلس. لا خيار آخر، الصالون الذي جددته وأعادته ليتوسط الصالة منذ ثلاث سنوات. تفضلي! قالت لها وانتظرت جلوسها لتجلس هي أيضاً. العمة تتأمل الجلسة الرومانسية لامرأة وحيدة! كأس واحدة من

دون قارورة، وبعض الخضار المقشر والمصفف. سألت عمتها ماذا تشرب؟ عندنا شاي، قهوة، عصير. عينا العمة تمتدان إلى الكأس وتسألان عن القارورة. كررت ذلك بالصوت. ارتبكت نشوى قليلاً لكنها طبعاً نهضت تجلب الضيافة المحددة مستغربة: صلاة وشرب؟ وسنّ كبيرة! يعني أبوك هو اللي صغير! على الأقل أبي لا ينافق الناس، لا يصلي هنا ويشرب هناك. حين عادت بالقارورة والكأس، كانت عمتها قد نزعت عباءتها، وشرعت تتمتم في حديث مسموع مع نفسها، تذاكر درس الجهات. سألت مضيفتها أين هي القِبلة؟ كملتْ! ازدحم وجه نشوى بتعابير مختلطة، اختارت منها العمة ما تشاء وهي تمازحها أيضاً:

– طبعاً مش عارفة!

ليس هذا فقط يا عمة. أنت تربكينني، صلاة وشرب؟! قالت لها ذلك من دون صوت، ومع ذلك ردت العمة بصوت قوي، ألاّ تعارض. وأيضاً وجدت القِبلة. كانت مسألة وقت. هي تعرف القِبلة أينما ذهبت. صَلّت العِشاء من دون وتر، وأخذت مكانها في السهرة. سهرة كان قد أُعِدَّ لها لتكون انفرادية. نهضت نشوى تصلح من حال الضوء، لكن العمة تدخلت: خليه! هكذا أفضل. أمسكت عمتها بالقارورة تتفحصها وواصلت المزاح:

– شفتِ آخرة السرقة؟ أوزو؟!

– .....

– اللي يشتري يتنبرط، لكن اللي يسرق يلقط أي شي يجي في يده ويهرب!

- ما لقطتش أي شي. وقفت واتفحصت واخترت. وبعدين يكفي أنه أبي اختارها وتشرط!

- وأنت أيضاً ممكن تتشرطي! مش بس على أبوش، وعلى عمتش. أي وقت تعالي اختاري اللي تحبي!

هزت نشوى رأسها من دون أن تضيف. هناك موضوع بالتأكيد هو الذي جاء بعمتها. لا ضرورة لكل تلك المقدمات ولا لخفة الدم والطرافة.

اتصلت العمة بسائقها الذي ينتظر في الشارع. صعد بشيء يبدو أنه كان قد أعد مسبقاً من جانب العمة. عشاء ونبيذ فاخر.

انتظرت نشوى طويلاً. لم تقل العمة شيئاً، ثرثرات عادية من قبيل ما يقوله الناس في زياراتهم العادية. العمة هانئة بجلستها كما لو أنها هنا كل يوم. صديقة تزور صديقتها. أليس الصديق يود صديقه؟ هذا أشبه بود موصول يحدث على الأقل مرة في الأسبوع. يا لعمتي وقدراتها. طبعاً سيدة مجتمع، امرأة سياسة بامتياز، مقتدرة تدير حواراتها بتمكن في كل الأوساط، أو كما تقول هي في «المشهد» بكل أطيافه. مشهد ماذا؟ «الأدبي»!؟ هي تقصد المشهد السياسي. لكن هذا ليس له برواز ولا إطار ولا صورة. إنه عجين. لهذا عمتي فلحت، لأنها تستطيع أن تعجن.

كل ذلك لم يكن أكثر من مد وبسط وفرد لأعصاب ابنة أخيها. والحق أن ما قالته كان يتطلب كل ذلك.

لم تنم العمة. في الثامنة صباحاً كان سائقها ينتظر بالباب. لديها مهمة قصيرة وتذهب إلى النوم في بيتها. نشوى بقيت على

حالها في الكنبة. صحت في الثالثة عصراً على تليفون عمتها: «اتغديتي والا أجيب لش غدا معي؟ غدا وقات!». لو لم تتصل العمة لاتصلت بها نشوى لترجو مجيئها! إذاً هذا ما يفعله الساسة. يبسطون لك عشرين هكتاراً من الجمر في شكل عملة ورقية، قبل أن تمسكي بها بيدك تصبح الورقة نصف ورقة. والآن طاردي البقية!

٩

أنا لم أنكر ثورية جدك. كنت فقط أشفق عليه. أما عن ثوريته فهو ثائر وبصدق أكثر من غيره. لكن مشكلته أنه كان «ثائراً» من الشارع. والشارع لم يكن يُرحب بمشاركته في الثورة، في الثورات كلها من ٤٨-٥٥-٦٢ م. الأخيرة، وعندما اشتد الشديد نهض الناس يدافعون عنها. لعلمك جدك حمل السلاح ودافع عن صنعاء عام ٦٧ م على الرغم من التجريح وكل الآلام التي لاقاها. لاقى كثيراً الله يرحمه. من قال لك إن مؤتمر خمر ٦٥ م هو أول مؤتمر يحضره! لمعلومك قبل هذا المؤتمر كان هناك مؤتمر عمران ٦٣م. حضره جدك وشارك فيه بنجاح. الظاهر أنه وصل وقد بدأ الأخذ والرد. دخل وشارك وحمل لحفته وعاد إلى بيته. عاد وهو مرتاح. الظاهر الجماعة ما كانوش فرغوا له وللتحقيق معه: من أنت؟ وما هي صفتك؟ ومن أي قبيلة؟ لم يصبه أذى أسئلة كهذه، فذهب إلى مؤتمر خمر بحماسة. هذه المرة كان هناك وقت للأسئلة. استقبله الأول

وحقق وسأل. جاء الثاني وحوله رجال كثيرون، جاء ليرحّب به ويطرده في الوقت نفسه. سأله أنت الدباغ؟ أجاب جدك بنعم. لم يكن يعرف أنه يقصد أن يسأله: اسمك الدباغ؟ ليقول له: لا. تصوري من كانوا يظنونه بهذا السؤال؟ هل سمعت بحركة محمد الدباغ؟ هذا الرجل كان من الحزب الهاشمي في العراق، وحصل أنه جاء إلى اليمن عام ١٩٤٠ م ليتزعم حركة لإعادة الحجاز ومكة إلى حكم آل الحسين بن علي الهاشمي. وصل إلى البيضاء وحاربه الإمام ولاحقه وأخمد حركته وسلمه إلى الإنكليز وانتهى أمره. شوفي إلى أين ذهب بهم ظنهم وخيالهم! وكان يمكن أن يذهبوا به أبعد من ذلك، أهون من أن يتصوروا أن رجلاً حرفته الدباغة يحضر المؤتمر!

«ليش ما يوضح لهم؟» سألتها نشوى.

ردت العمة:

«وضح! المصيبة أنه وضح. فما كانت النتيجة؟ سكت الرجل الذي تزعم المواجهة، وانفجر مَن حوله بالضحك عليه، وعادوا إلى مجلسهم. واحد منهم اقترب من جدك، طبطب على كتفه وقال له:

– روح بعد عملك!

– جيت أحضر وأشارك.

– قلت لك روح، كان الله معك. مشو عليك (ليس شأنك).

– .....

— اسمع مني ورحلك قبلما تسمع كلام مش ناهي» (ليس جيداً).

* * *

طارق تكلم عن تجربته الأخيرة في الزواج. إنه يتكلم عن تجربة حب. قال إنها أول مرة يتعرف على ذلك الشيء الذي سمع عنه كثيراً، شيء اسمه الحب. قال إنها أول مرة يحب فيها. بل أول مرة يدرك لذة التواشج بامرأة. قال إنه لم يلتق بامرأة من قبل. ولم يعاشر امرأة غير سعاد.

أشفقت رجاء على صديقتها. لم تستطع حتى أن تكون مومساً. كيف تقنعها: المحاماة أقل تطلباً، لا تقلق.

ليس مهماً أن تكون أكثر أو أقل تطلباً. المهم ألاّ يكون فيها قوادون.

* * *

طالت دندنة العمة مع صوت «سومة» كأنما تسافر إلى سنواتها الرائقة تلك. باغتتها نشوى كأنما توقظها: كلميني عنك أنت وأبي! عن ثرائكما؟ ألم يمت جدي وهو صفر اليدين كما قلت أنت؟ تنبهت العمة لسؤال ظنت أنه مات منذ زمن بعيد. أخذت نفساً، زفرت به بطيئاً، ابتسمت، أومأت بيدها لمسجل الكاسيت لينخفض صوته. بكل سرور وضعت نشوى يدها على «سيرة الحب» لتغلق السيرة، ليس في صوت سومة بل في طرب العمة.

– قصدك قراع الذهب والفرانسي؟ حصيلة جدك من نهب صنعاء في خيبة الوزير[١٢]؟

هزت نشوى رأسها موافقة هذه هي.

– من عقلك صدقت؟

– .....

– أنت متعلمة، وسياسية، و..

– أنا مش سياسية.

– مجلتك «متون» من الجلدة للجلدة سياسة.

– ليست مجلة، إنها دورية.

– كل موضوعاتها وكتابها وحتى الدراسات والبحوث اللي فيها، كلها سياسة. مش وقت، خلينا في القراع. ثلاث قراع ذهب وفرانسي! لو جمعوا ما نهب في صنعاء كله فترتها لن يغطي هذا الرقم. ويقولوا لك شخص واحد جمع ثلاث قراع! ماكنش ممكن يملأ قرعة واحدة مش بالذهب ولا بالفرانسي، قولي بالريال الورقي. لأنه حتى الريال الورقي، كان يندر وجوده في بيوت الناس. جل تعاملهم كان بنظام المقايضة، خاصة في الأرياف. كانت البلاد كلها تعيش على الزراعة. قولي ٩٠٪ من الناس كانوا مزارعين. الزراعة كانت عيش الناس وسوقهم، وهي كل شي مش بس الأكل منها واللبس والأثاث، حتى مواصلاتهم كانت وسيلتهم فيها من جنس عملهم، المواشي. أغلق الإمام البلاد مثلما يغلق

---

(١٢) مقتل الإمام يحيى واعتلاء عبد الله الوزير العرش مكانه في شباط، آذار ٤٨م.

الواحد بيته ويضع المفتاح في جيبه. ولم تكن حال الناس في المدن أفضل، حرفيين وصناعاً وجنوداً وحتى الحكام. ما قولك إن زوجة الإمام بذاتها كانت حين تريد الخروج بين الناس للتفرطة، كانت تستلف من جارتها «المغمق»[١٣]. غلّقها الإمام على الكل. مدبر[١٤] وأدبر الناس معه. لمعلومك كان الريال اليمني أغلى حتى من الدولار، بظنك ليش؟ السبب بسيط هو أن ما يطبع منه قليل، وما ينفق منه أقل! لمعلومك، حتى الاستيراد كان أشبه بالمقايضة. قالوا إن الإمام في مرة من المرات كتب للسعودية، وقد منع عنهم القمح، بسبب تأخرهم عليه بالكاز[١٥] يقول لهم ما معناه إن اليمني يأكل ويضطر إلى النوم بحلول الظلام. فلماذا لا يكتفي السعودي بإنارة الليل ويستغني عن الخبز!

والآن قولي لي من أين جاء جدك، بالذهب والفرانسي؟

– فمن أين ثروتك؟

– أنت عندك الآن ثروة من أين؟

– عمة!!

– احسبي ثروتك، واضربيها في الفرق بين عمري وعمرك!

وهذه هي خيرات الثورة، جابت عمل للناس كلهم!

---

(١٣) المغمّق: غطاء ملوّن وشفاف يمكن المرأة من الرؤية وهو تتمة لرداء فلكلوري اسمه الستارة: وهي رداء أشبه بالطرحة الواسعة بألوان متعددة وزاهية. لا تزال بعض النساء يلبسنها للمسافات القصيرة كالتنقل من بيت إلى آخر في الحارات، والمسنّات يستعملنها للتسوّق أيضاً.

(١٤) مِدْبِر ودَبُور: سيّئ الطالع.

(١٥) الكاز: الكيروسين.

رنّ موبايل نشوى لخبر أسيف، حمله صوت زينب باكياً، رجاء في المستشفى، توفي والدها منذ ساعة!

* * *

بعد كل ذلك البكاء الذي شهدته على صديقتها لفقد أبيها. فكرت زينب في أن تزور أباها. قد يطردها لكنها ستراه قبل أن يموت. كان هذا عزمها في اليوم الأول للفكرة. ثم في اليوم الثاني بدأت تتراجع. في اليوم الثالث بقي أثر للفكرة، لكن سخرت من نفسها؛ الله أعلم من يموت أولاً؟ ثم هل ستبكين عليه بعد موته أكثر مما بكيت لأربع عشرة سنة!

* * *

في تلك المرة، سألت عمتها:

– ماذا عن أبي في ٦٧؟ ماذا عن دوره؟ هل صحيح أنه أثرى من حصار السبعين؟ أنه تاجر بأقوات الناس وحاجاتهم؟

– العكس! صحيح أن أباك وسعت تجارته في تلك الفترة، لكن لأنه في وقت شدة الناس هو سد حاجتهم بسلع كثيرة وبسعر معقول. ولعلمك، عندما نشبت بين السلال والإرياني واستغلت الإمامة ومناصرتها (السعودية) هذا الأمر، أبوك كان ممن دافعوا عن الثورة. وكان ضمن الذين تحركوا في ٥ نوفمبر من ميدان التحرير وتوجهوا بالدبابة إلى الإذاعة، ليسمعوا الناس صوت الثورة والجمهورية.

– الدبابة اللي أصبح اسمها مارد الثورة، وبقيت معروضة

في ميدان التحرير لسنين؟ مسكينة هذه الدبابة، جعلوا منها سفينة نوح، (لكن للذكور فقط!) لم ينته بعد عدد الذين يدّعون أنهم ركبوها في ذلك اليوم!

كأن العمة لم تسمع. واصلت كأنْ لم يقطع كلامها أحد:

كانت هذه هي القاعدة الأساسية، الحفاظ على الجمهورية. مش مهم من يكون الرئيس! لعلمك؛ أبوك دفع بماله سراً وجهراً، ليس فقط في نضال السنوات الأولى للثورة. لكنه ساند كل التنظيمات السرية من ناصرية واشتراكية حتى الجبهة الشعبية! وأنا أشهد على ذلك وليس لي مصلحة فيه! لكن صدماته من كل ذلك، و......

شردت نشوى عن كلام عمتها. ستكتب في دفترها: مسكينة هذه الثورة! هي أيضاً كانت عائشة، لكن بحذاء دبابة.. مشوا هم وخلوها وحدها، تركوها هناك حيث خرجت أول يوم حافية.

* * *

يكاد عادل يطير من الفرح. مرت سنتان على زواجهما، سامية قضت السنتين في توتر وقلق. أرقها وأرقه من أجلها هاجس أنها لن تنجب. آخر زيارة لها للطبيب كاشفها بأن الأمل فعلاً ضعيف، لا ضرورة لمزيد من الفحوصات، لا يريد أن يرهقها بأمل هو في الأساس خائب. لم تمض أسابيع من تلك الزيارة، حتى داهمتها أعراض الحمل. لم تصدق الفحص الأول، ولا الثاني، كان لا بد من فحص ثالث كي تخبر عادل.

لكن عادل عرف من تلقائه، من مجرد رؤيتها على تلك الحال من التلبك، صعب أن نخفي خبراً هو باختصار «فرح». لم يفرح عادل بخبر الحدث السعيد فقط، بل بالسلام الذي ظل متذبذباً: يلازم هذا البيت أم يقاطعه.

١٠

في المرة الأخيرة، من دون أن تسألها قالت العمة:

– أبوك عانى كثيراً، لم يفهمه أحد. عاش في بيت كل من فيه ظَلَمه وجار عليه، مع أنه ضحّى من أجل الجميع.

– إلا أمي!

– أول من ضحى من أجله هو أمك. لكن هي أعجبها دور الضحية!

– أرجوك!

لم تسكتها. بشهية مفتوحة واصلت الكلام عن زوجة أخيها: ماذا قدمت أمك؟ خلينا نحدد أكثر، نسأل ماذا عن أولادها؟ بماذا ضحت من أجلهم!

ضربت أمثلة، لم تقف عند نموذجها فحسب وأنها ربت رجالاً ونساءً ناجحين، كلهم في مواقع قيادية في السلك الدبلوماسي والأكاديمي وحتى في القطاع الخاص. ضربت لها أمثلة ونماذج من نساء تعرفهن نشوى أميات مثل أمها. ومنهن من كن فقيرات ومنهن من كن أرامل وهبن أعمارهن لأولادهن. انتهت من كل تلك الأمثلة لتعود تسأل عن زوجة أخيها، التي

ظلت طوال السنين تردّد أن بقاءها في بيت الزوجية هو من أجل أولادها:

- المضحية! بماذا ضحت أمك من أجل أولادها؟ العكس. لعلمك هذه امرأة ضحت بأولادها! جلست تتبكبك وتشكي وتئن وتون، على أيش؟ صورت لهم أنهم يعيشون مع «بعبع» وطوال الوقت تدعو له بالهداية، كي يعود إلى عقله وبيته وأولاده. متى أهمل بيته؟ أو أخل بواجباته؟ عيشت أولادها في قلق وتبلبل، أفقدتهم صورة الأب الجيد، نموذج الأب الذي كان ينطبق عليه تماماً. لكنها حالت بينهم وبين رؤيتهم لذلك النموذج! لعلمك حتى معها كان نموذجاً يندر مثاله!

- عمة!!

- لعلمك؛ تمنى أن تطلب الطلاق، كان لن يقصر أبداً في حق أولاده. لم تطلب الطلاق، أعجبها دور الضحية واستمرت فيه!

- يعني الطلاق حل!؟

- أقول لك شيْ؟ أنا تزوجت ثلاث مرات وأنجبت منهم جميعاً، واللي أشتي أقوله لك، أنني طلقت أكثر من مرة، بظنك ليش؟ السبب الرئيسي كان أولادي، الرجال رايحين جيين، لكن الأولاد إذا خربوا ما يصلحوش. وكان على الرجل اللي أتزوجه، أنه يحترم حقوق أولادي، مالم أطلقه. لكن الأم غير. ما كنش أخي يقدر يغير أم أولاده بامرأة يتزوجها، لأنه لا يضمن أن امرأة أخرى تكون أصلح لهم! لمعلومك؛ ما هي مشكلة أمك؟! مشكلتها من البداية للنهاية، أنها لم تكن واثقة من نفسها، لم

تشعر بأنها المرأة اللي تملا عين هذا الرجل، فلوت عنقه بأولاده، خلته يعيش معها غصباً عنه لأجل أولاده.

والآن قولي لي من هو المضحي؟ أبوك طبعاً.

- ....

- المسألة واضحة ومش محتاجة لدليل، لكن خليني أجيب لك دليل، أسألك: رجل مثله ميسور ويقدر يفتح عشر بيوت، ومع ذلك ما فكرش مرة أنه يتزوج على زوجته ويجيب خالة لأولاده. مع أنه مش مرتاح مع مرته انتبهي لهذه. لماذا؟

- يا عمة. من حيث البيوت كان عنده كثير، لكن بدون زواج. مش تضحية هذه. وخليني استخدم كلمتك، لعلمك ولمعلومك هو ما فتحش بيت ثانية لأنه ماكانش من الرجال اللي يلقوا نفسهم مع زوجة لا أولى ولا ثانية، ولا مع أية امرأة. أنا عارفة وأقولك، لمعلومك كل نسائه كانين بأجر مافيهنش ولا واحدة حبيبة! وخلاص غلقي الموضوع لأنه تعبني!

سكتت العمة. لا لأنها اقتنعت، لكن لأن كل ذلك ليس موضوعها. كل تلك الحوارات والزيارات والقوارير والقات. كل ذلك لم يكن إلا تمهيداً لموضوع صعب! بعد هذه العلاقة أو الصداقة التي توطدت، وعند هذه النقطة من الحوار المتكافئ، طرحت موضوعها!

سرعان ما أفضت نشوى برأيها أو لنقل بمداخلتها في موضوع العمة، ليس بعد آخر جملة فيه، ولا حتى قبل آخر جملة، بل قبل أن ينتصف! بدت المداخلة من ذلك الذي يطلق

عليه وصف «نصف إرادية» لأنها لم تزد عن ضحك متصل تخللته جملة: عمتي أيضاً تحتاج إلى زوج حذاء!

ودعتها العمة من دون أن تقطع ضحكها. قالت لها تفكر في الأمر! يبدو لم تفعل بها سخرية نشوى شيئاً. يا لمرونة السياسيين ومتانة إحساسهم، لا ينجرحون أبداً ولا ييأسون. فكري! هل ستعود إلى طرح الموضوع نفسه مرة أخرى؟ ليس مستبعداً!

مشروع العمة كان عبارة عن صحيفة سياسية ترأس تحريرها نشوى، ولا شيء أكثر. كل شيء مكفول، بدءاً من رأس المال، ليس فقط مال التأسيس، بل المال الذي سينفق طوال حياة المشروع، إلى الخبر، إلى فرص اللقاءات الساخنة، إلى الإعلان والريبورتاج، إلى الحماية القانونية، إلخ إلخ. كل سياسات النشر في الظاهر لها، وفي الباطن لهم. مَن هم؟ لا تعرف. العمة وزوجها من ورائهما «هم». كانت ستعرف مَن هم لو أنها قبلت بالمشروع. لكنها طبعاً لم تقبل. لن تكون زوج حذاء لأحد!

طارق أيضاً رفض مشروع العمة! لم تصدق ذلك نشوى. طارق العاطل من العمل اللهم إلا المتاجرة من الباطن بعقارات لا يملكها، لا يملك رأس المال فيها، لكنه يشتري ويبيع ربما بمال زوجته. قد تكون تجارة للعم عزيز أو على الأقل معه.

في الواقع، هو لم يرفض مشروع العمة كاملاً. يمكن أن يعمل رئيس تحرير، لا مشكلة عنده في ذلك. إلا أنه لم يكتب يوماً لصحيفة وربما لم يحدث أن قرأ صحيفة. لكن لا مشكلة عنده وخصوصاً أن عمه عزيز قد ذلل الصعوبات، حتى الكادر،

فريق العمل، سيكون مقتدراً. هو لا شيء يترتب عليه، تكاد مهمّاته تؤدّى كلها خارج مبنى الصحيفة، مقايل ومجالس وتجمعات ومناسبات، إلخ. مهمات إن لم يفطنها يدرّبوه عليها. لا مشكلة في ذلك. جزئية واحدة كانت المشكلة عند طارق: لن يطلق ذقنه مجدداً! لن يكرر تجربته القديمة تلك، أن يكون مجرد حامل لحية. على «هم» أن يتعاقدوا مع لحية أخرى!

كتبت:

استغربت سميحة، حين قيل لها: هربت عائشة! لماذا؟

لماذا ماذا؟ لماذا هربت عائشة؟ أم لماذا استغربت سميحة؟ كلاهما سؤال واحد في النتيجة. ذلك أن كلاً من هاتين البنتين كانت تهرب من سجن يخصها، إلى سجن يخص الآخرين. إلى سجن هي فيه سائحة أو زائرة. سميحة كانت باحثة، وتسير في بحثها ببطء شديد. إلا أنها كانت قد اتخذت قرارها: حتى لو انتهى بها البحث وأصبح ناجزاً، لن تنتهي عادة تمرغها برمل تلك الساحة وشمسها. ساحة السجن المركزي الأشبه بفناء مدرسي. كل ما في الأمر أن بطاقتها ستتحول من باحثة محدودة الدخول إلى زائرة. وتستطيع أن تزور يومياً. هل ستكون الوحيدة التي تزور لا أحد غير نفسها في تلك الساحة؟

معظم السجينات هنّ قضايا آداب. القضايا التي تعني أول ما تعني انعدام صلة السجينة بناس، أي ناس من خارج السجن. لا أحد يزورها. لا ريب في أن تلك الزيارات التي شهدتها سميحة،

بذلك العدد المبالغ فيه من الزائرات، هي في معظمها للسجن وليست للسجينات. ولكل زائرة للسجن أسبابها.

كل يوم كانت الساحة ترفل بالسائحات والمتفرطات. أما في المواسم أي في الأعياد والأعراس، وحتى المصائب التي تُذبح وتُطبخ فيها الثيران وتُعد الولائم ويدفع بالفائض منها إلى السجون، فإن هذه الساحة تتحول إلى حديقة أشبه بـ«الهايد بارك» لا تعود سميحة تميّز بين الزائرة والسجينة، بثيابهن الملونة وأصواتهن المتشابكة وشكياتهن وبكائهن أحياناً.

بعد ساعة من الغداء يبدأ طقس آخر. القات يهذب الساحة ويوزع نساءها في حلقات. هناك بالتوازي مع حلقات القات، حلقات ذكر. مرشدات دينيات يذكرن بجهنم، يعظن السجينات، يطالبنهن بالتوبة: لا تغرّكنّ الحياة الدنيا. يقصدن أن يقلن: لا تغرّكنّ حياة السجن!

وحدها حلقة التذكير بجهنّم لم يصبها التغيير بسوء. فيما عدا ذلك تغيّر كل شيء. أغلقت حديقة «الهايد بارك» أبوابها. تعطلت الساحة. ألغيت. كل الذي بقي منها، أقصد من المكان الذي كانت تشغله، مربع صغير. بضعة أمتار مربعة ومسوّرة، أشبه بقبر كبير نبتت على سطحه أوراق «العثرب». تماماً كما ينبت عشب القبور. عند تلك المساحات الصغيرة التي يزور فيها بعض الناس أقرباءهم الأموات، ويرشون عليهم زهرات الحبق والماء، فتنبثق الزهرات لتصبح ريحاناً. هنالك قبور لا أحد يزورها، ولأنها قبور فهي لا تطالها الأقدام. لهذا ينبثق عليها نبت بريٌ اسمه العثرب.

قبر من؟ ذلكِ المربع المسور الذي نبتَ عليه العثرب في قلب سجن النساء.

لن تتحصل سميحة على بطاقة زائرة، لأنه لم تعد هناك زيارات. هذا هو الجديد الذي جدّ على السجن، اكتشفوا أنه لم يكن سجناً بما فيه الكفاية، فأعادوا تشييده ليصبح صرحاً عملاقاً. في الوقت نفسه لم يعد لدى سميحة بطاقة «باحثة» لأنها لم تعد باحثة، تعطلت دراستها للماجستير، لأنه لم يعد هناك مركز للبحوث التطبيقية والدراسات النسوية. أغلق المركز إلا على القطط والكلاب والصراصير والفئران التي خيّمت فيه لسنين. هل اكتشفوا أن مراكز من هذا القبيل هي بمثابة نوافذ تطل على السجن، فأغلقوها حفاظاً على هدوء السجن ودعته وسلامه.

١١

اكتشفت نشوى أنها أخطأت إذ ظنت أنه المشروع نفسه انتقل إلى طارق. هما عملان في مشروع واحد مقسوم على اثنين. بحسب وصف العمة: هما وجهان لعملة واحدة، اسم تلك العملة: «معارضة» لكن بوجهتين مختلفتين. يااا إلى أين وصلت استثماراتكم. تريدون معارضة تفصيلاً! تفصّلونها زوج حذاء، ليس لكم، أنتم لا علاقة لكم بهذه الغاية. أنتم مجرد مستثمرين، مقاولين، وسطاء.

لم تضحك هذه المرة لتهزأ من عمتها. في الواقع لا أحد يُهزأ منه غيرنا! رفضت وبحزن. لكن ما فاجأها هو موقف

شريكتيها: لمَ لا! قالت رجاء. زينب لم تتكلم، لا رحّبت ولا اعترضت.

* * *

في ما بعد زارتها العمة لتقول لها شيئاً واحداً وترتاح: قولي لي ما هو الفرق بينك وبين أبيك؟ لا شيء. هو يثرثر يقعقع في الهواء، وأنت مثله. طول عمره يطلق رصاصاً ثورياً في الهواء، لا يصيب ولا حتى يدوش. وأنت سائرة على نهجه. قلنا هو كان له عذره. أنت أيش عذرك؟ حرام والله كل هذي الطاقات تهدر.

* * *

اشترطتا على الأستاذة حورية عُبيد أن تمهلهما إلى حين التخرج من الجامعة. نشوى اشترطت عليهما ألاّ يجمعا بين عملين أحدهما N.R.Z. هل هذا يعني أن الشراكة التي جمعتهن لسنين بدأ يتهددها الانفصال!

٢٠٠٥

ظلت زينب مستوحشة، بعدما أصبحت وحيدة في الغرفة التي ضمّتها وصديقتها لسنوات. كما أن انشغالها الدائم خارج البيت وداخله باعد بينها وبين الساكنات الأخريات. فيما عدا المال لا شيء من واجبات هذا البيت تلتزم به. لا تنظيف ولا طبخ ولا أي شيء! إنها تشعر بعزلة وخوف حقيقيين. ماذا لو تعرض هذا البيت للمداهمة؟ المشكلة، لم يعد يمكن بيت نشوى

أن يتسع لها بعدما تزوجت. على الأقل تستأجر شقة في الجوار منها. لماذا لم تفكر بذلك من قبل!

* * *

في ١٢ شباط ٠٥ م تزوجت نشوى، من دون أية مراسيم، غير يوم العقد الذي حشدت له أسرتها، كأنما تربصاً بقرارها عدم الاحتفال.

أواخر آذار توفيت أمها. كأنما كانت تنتظر فقط أن تطمئن على ابنتها بالزواج. لو انتظرت بضعة أشهر كانت استقبلت أول أحفادها لنشوى.

* * *

كان اليوم جمعة. لم يكن موعد عمل ذلك الذي ضربنه للقاء ذلك اليوم. لكنه يوم مهم في حياة زينب، فيه أصبحت جارة نشوى، في الشقة المقابلة تماماً. لم تكن لتقبل بغير هذا. لقد عرضت على المستأجر السابق أن تدفع له نظير أن يمكنها من هذه الشقة. لم تكن بحاجة إلى أن تدفع، لأن المستأجر كان بانتظار خلو شقة في الطابق الثاني أو حتى الثالث. انتقل إلى الشقة التي فرغت في الطابق الثاني، وأخلى لها شقته في الخامس. أثثتها واليوم تدشين. رن هاتف نشوى. لا تتوقع زينب من صديقتها أن تعتذر عن حضور يوم كهذا. نظرت في ساعة يدها، إنها السادسة! كيف لم يشعرا بتأخر رجاء كل هذا الوقت؟!

وجه نشوى ممتقع في إثر مكالمتها الهاتفية. «هل اعتذرت!»

لا! ردت نشوى ووجهها يزداد امتقاعاً. أرعبها سكوت نشوى، شرعت زينب في الاتصال برجاء، تكلمت نشوى:

- لم يعد لرجاء تليفون في حقيبتها. أخذوا أيضاً حقيبتها. أحدهم تطوّع بموبايله. تعاطف معها وأعطاها الموبايل. لتوّه خرج بها من المباحث الجنائية. هو الآن في طريقه بها إلى السجن المركزي!

- لا!!!!!!!! !!!!

امتدت صيحة زينب، كأنما هي تمد جسراً بين كل السنوات. بين ما حدث لها قديماً ويحدث لصديقتها الآن. صيحة أيقظت نشوى من ذهولها لتسكتها. ليس هكذا، قالت لها، علينا أن نتصرف قبل أن تبيت ليلتها في السجن!

عجلة روليت تلك التي كانت تدور في رأس نشوى وهي تفكر بمن تستعين! مَن؟ ممن تعرفهم يقدر على هذا؟ عجلة روليت تدوّرها بسرعة، تقف عند عمتها «حورية عبيد». أسرع، عند الاسم نفسه. أبطأ، الاسم نفسه. بكت. لا وقت للبكاء. تريد تشجيعاً من زينب. بدت كأنها تسألها وهي تسمعها القول: سأتصل بها! ضغطت على زر الاتصال فعلاً. لكن يداً امتدت بضغطة أخرى توقفه! زينب، بكت هي الأخرى واتصلت! بمن؟ سألتها نشوى.

بالماضي!

بإنكليزية ركيكة يتخللها البكاء تكلمت إلى كريستوف، طمأنها. لم تطمئن، لم تمض ربع الساعة حتى اتصلت بدانيل، أول صديق أميركي، إلى حيث هو في أميركا. ظل الهاتف في

يدها، تأهباً لاتصال بآخر غيرهما. لولا تخوفها أن تشغل الخط لاتصلت. ثم إن عليها أن تنتظر رداً أو خبراً عن رجاء.

بعد أقل من ساعة كانت رجاء تتصل من نفس هاتف الضابط المرافق، انتهى كل شيء. لحظةَ فُتحت بوابة السجن المركزي لدخول السيارة بها، لم تدخل، جاءت الأوامر بإنهاء كل ذلك بالإفراج. انفرج صوت رجاء في الهاتف: أتسلم حقيبتي وأصل إلى سيارتي وأجيء. أردفت ممازحة: هذا إذا لم يكونوا قد تصرفوا بهما. أنا جاية مسافة الطريق.

جاءت، كأن شيئاً لم يكن، تأخرت عن موعد التدشين الأصلي، كان ينبغي أن تكون هنا في الرابعة عصراً، تأخر الموعد بضع ساعات، ما الذي في ذلك. لا شيء حدث! انخرطن في عناق وبكاء وضحك وأسئلة. كل ذلك كان يغلفه الذهول!

لم يحدث شيء يذكر. كانت تتناول وجبة غداء عادية، في مطعم عادي، مع صديق عادي. ربما كان مشروع حب، لكنه طبعاً لم يطارحها الهوى في المطعم ولا في السيارة. لم يكن هناك شيء وهي تستعجل إيصاله في طريقها لأن لديها موعداً. طاقم عسكر حال دون نزوله من السيارة. في تلك اللحظة التي كان قد شرع فيها بالمغادرة، أوقفهما وجرهما وراءه إلى المباحث الجنائية. لم يحدث شيء يذكر في المباحث، في التحقيق الذي لم يطل كثيراً، حيث القبض تلبّساً، اختلاء. ولا بأس أن يضيفوا إليه فعلاً فاضحاً. ما الذي يحد محاضر كهذه!؟ هي لم تر محضراً! لم توقع على شيء!

«لماذا» سؤال حين ندخله في مواضع كهذه يبدو كأننا دخلنا

صندوقاً وأحكمنا إغلاقه. لم تنبس رجاء بشيء طوال الوقت، لم تبك. هكذا قررت ألاّ تبكي وألاّ تستجدي وألاّ تتصل بأحد! ليحدث ما يحدث! لكنها اتصلت، شيء ما كان يقترب عندما كانت الطريق تنقطع بها سريعة إلى السجن. شيء ما ليس السجن. شيء مهم. شيء حري بوجودها في الحياة وبكرامة. شيء لا تدري ما هو. لم تسأل، لا وقت لهذا. خرجت من ذلك الصندوق واتصلت! وها هي هنا. ها هنّ جميعاً هنا، كأن شيئاً لم يحدث.

هل حقاً لم يحدث شيء؟ لا أظن! حدث الكثير، الكثير جداً. غير واضح إلى الآن ما الذي حدث.

١٢

٢٠٠٩

في إثر قراءتها لتقرير حديث، فتحت نشوى دفترها لتصحح رقماً كانت قد دوّنته عن عدد أطفال الشوارع. أصبح الرقم أربعة ملايين.

* * *

كانت رجاء نائمة، علا صوت الرصاص قليلاً ليوقظها. فتحت عينيها واسعتين. على أنها لم ترفع رأسها عن وسادته. خفت الصوت، توقف كليّاً. ابتسمت كأنما هي تربت نومها كي يعود. لم يعد. سوّت رقدتها على جانب لتنام. ليست الحرب، على الأقل ليست الحرب السادسة، هذه التي يصر المتشائمون

على التبشير بها. فتحوا أبواب المدينة على مصاريعها لتؤانس الحرب وتشرف. ماذا بعد أن وصلت إلى بني حشيش[١٦]؟ لن يلبث جيش الحوثية أن يعلن حصار صنعاء. وتارة يعلنون خططاً حربية لا وجود لها إلا في تخيّلهم. في هذه الخطط يلتقي الجمعان: الحراك الجنوبي والحوثيون، ويمضيان في اتفاقهما إلى مداهمة العاصمة واحتلالها. هل ينتصرون؟

المتشائمون لا يبحثون في مسألة من ينتصر. على الأرجح ليس في تصورهم شيء اسمه «نصر». الحرب هي الشيء الذي يحدثونك عنه، لا حديث عن شيء قبله ولا عن شيء بعده.

كل هذا وهي تربت نومها كي يعود. لن يعود. رفعت نصف جذعها، مدت يدها إلى قارورة الماء. بدت لها فارغة ومع ذلك فإنها ترجّها. أهذا ما يفعله المتفائلون، يرجون الماء في قارورة فارغة، ويرجئون عن مدينتهم حرباً، هي في الواقع من انفرد بنومهم ليطرده.

نهضت من دون أن تغادر السرير، سوّت وسائده خلف ظهرها. لكن عينيها في القارورة. في الواقع، هي لا تنظر إلى القارورة ولا إلى خلوّها من الماء ولا حتى إلى عطشها. إنها تنظر إلى يوم رمضاني أصابه العطب من أوله.

التقطت ساعة يدها الموضوعة على الكمودينو، بلحظة ردتها إلى موضعها لكن رجماً. إنها الثامنة صباحاً. هذا يعني أنها لم تنم سوى ثلاث ساعات! هذا ظلم. لماذا لا يؤجلون حروبهم

---

(١٦) بني حشيش: ضاحية إلى الشمال من صنعاء.

الصغيرة هذه إلى ما بعد الظهر؟ هكذا يسميها ماجد «حروب صغيرة» تعتري المدينة من يوم إلى آخر، لا تقلقي! أنا مش قلقانة لكن اشتي ارقد! وقالت لماجد، بينها وبين نفسها طبعاً، «تجي نخرج!» التقطت موبايلها تهاتفه وعادت وضعته جانباً: حرام خليه ينام. بدون رمضان هو سهران طوال الليل كيف بشهر لا نوم فيه إلا نهاراً. رمت برأسها على وسادة وغطته بأخرى. تستجدي النوم، تحاول، لا فائدة. غادرت السرير. سارت باتجاه مطبخ الطابق العلوي. كل من في البيت نائم، ما عدا أمها التي أيقظها كما يبدو الصوت نفسه، لكنها عاودت الدخول إلى غرفتها لتحاول النوم مجدداً. جلبت رجاء قارورة ماء وأخذتها معها إلى الغرفة، من دون أن تفتحها، وضعتها قبالتها على الطاولة. في الواقع، هي التي جلست قبالة قارورة ماء حرام. بعد دقيقة استصدرت من نفسها فتوى: لا يجوز أن يجمعوا بين رمضان والحرب. إما أن يعلنوا الحرب وإما أن يعلنوا الصوم. وشربت.

هذا عن شرب الماء في صباح رمضاني. هل تتسع فتوى الماء هذه للقاء خاطف بماجد! منذ دخول الشهر الكريم لم تره. لكنه يهاتفها باستمرار. وباستمرار يقطع عليها هدنتها.

ما تبثه الفضائيات عن حروب اليمن في كفة، وما يكوّمه ماجد فوق أذنها في كفة. هل تقع الحرب على الجميع كما تقع على رجاء؟ وانا مالي. اخس عليك يا رجاء، أكثر من مئتي ألف نازح وتقولي وانا مالي! طيب لي، لي، بس يخلوني أنام. وعد مني بعدما أنام بشكل جيد أقوم من النوم فوراً أحل مشكلتهم. قبل ليلتين صاحت به وذكرته بالهدنة. كانت قد قالتها له قبل وقت من

قدوم الشهر الكريم: «بلاش نلتقي في رمضان، أرجوك يا حبيبي خليني أصوم» احترم حقها في الصوم، لكنه يفسخ هدنتها، هكذا كل مكالمة، يبدأ أولاً وبصوت متزن وبهدوء، يقول لها «مشتاق» ثم يندفع صوته: «شفت أيش حصل اليوم؟» وهكذا كل مرة.

لكل مونديالة، الحروب مونديال اليمن. لا ينفك الجميع يتحدثون عنها، كما لو كانت ملعب كرة قدم لكن بمرمى واحد. اللاعبون جميعاً وحتى الحكام ومراسلو وكالات الأنباء والمحللون، الجميع يصوبون في مرمى واحد، لكن لا أحد يسجّل هدفاً؟ اللعبة التي لا هدف لها، ولا نتائج حاسمة فيها. «مش بعيد ينتصر الحوثي» يقول ماجد «خسائر فادحة تكبّدها كل من الجيشين الحليفين اليمني والسعودي» مش بعيد يطلع حوثي، قالت رجاء لنفسها، ووجهت كلامها إلى الله «ليش يا ربي لا مواعدة لقلبي ولا لقاء إلا بمثل هؤلاء، إما مطاردين وإما مقتولين».

مساءً هاتفته ليلتقيا. اشترطت عليه ألاّ يتكلم عن الحرب السادسة، أجابها بـ«حاضر» ولا عن الحراك الجنوبي، «حاضر». ولا عن... «حاضر». ولا... عدّدت له مواضيعه التي لا ينفك يتكلم فيها.

أول لقائهما، شكت إليه أنها لم تنم جيداً؟

— ليش حبيبتي؟

— الطائرات، كأنما هي طائرة واحدة تحوم حول بيتنا. لكثرتها ولشدة اقترابها في الجو يخيّل لي أحياناً أنها تحط وتقلع من سطح بيتنا.

– قصدك الطائرات الحربية؟

– وِالاّ أيش من طائرات؟

ابتسم. تنبهت إلى أنها تتكلم في الحرب. ابتسمت هي أيضاً. لكن ابتسامته كانت تتكلم في الحب. إنه لا يبتسم، إنه يغرق في عينيها، إنه باختصار: «يفسخ صومها» ستغرق هي الأخرى. قبل أن يحدث ذلك توجهت إلى الله مغمضة العينين بكلام غير مسموع لم تنبس به شفتاها لكن الأمر لا يخرج عن دائرة «الحرام». الحرام في ماذا لا أعرف. وغير واضح، حين فتحت عينيها، من كانت تخاطب بتلك الكلمة الوحيدة التي لفحت وجه ماجد لحرارتها: أشتيه. أشتهيه.

* * *

في بيتها وتسير بكعب عالٍ. ليس هذا ما لفت رجاء وهي تتأمل زينب في مشيتها. لفتتها المشية. بدا كأنها سرقتها من عارضة أزياء محترفة. لم تسرق مشية العارضة فقط، سرقت كذلك جمهورها. جمهور لا أحد يراه، لكن زينب تدوس على مشاعره لتلهبه. «حقيقةً هذي مشية قحبة» قالتها وهي تتوقع ثورة من زينب، إلا أنها واصلت «لكن مش قحبة بلدي. قحبة أوروبي يعني عندها تصريح وبتدفع ضرايب».

لم تَثُر زينب، على العكس، ابتسمت كأنما مدحتها صديقتها.

– واضح ياختي ان انت بتحبي؟ رجعت من أوروبا هذه المرة وانت جاهزة تمام.

– أيوة، قلتيها: جاهزة. بس مش للحب. للزواج.

– أيوة. يعني حبيت وع تتزوجي؟

– لا. ما حبيتش وشاتزوج!

تكلمت عن الحب والزواج وآخر فرص الإنجاب، وممن، ولماذا. قالت كلاماً كثيراً كان بعضه يناقض بعضه أحياناً. إجمالاً لم تفهم رجاء من كلام صديقتها أكثر من أن هناك مشروعاً اسمه المستقبل. ببيت لا ينقض لمجرد تغير عاطفة أو لفكرة طارئة. بزوج لا يفلت من قبضتها.

* * *

لم تكن في أوروبا، قالت رجاء لنشوى على سبيل النميمة طبعاً، لم تكن أوروبا، أقصد فرانكفورت، أكثر من محطة في طريق عودتها من سفر لا أدري أين. أين كانت زينب؟ لماذا تحاول أن تغلف نفسها بالأسرار؟

لم تجبها نشوى، خافت التداعيات، خافت من الذي يمكن أن تقوله أو هي فعلاً تفكر فيه. هذه أفضل طريقة لتحافظي على صداقاتك، ألا تكوني صديقة!

١٣

حاولت نشوى ترتيب دفترها، قرأت:

أواسط عام ٢٠٠٦ م صدر العدد الأول من صحيفة شراكة. كانت نشوى قد اشترطت عليهما ألاّ يجمعا بين عملهما هذا «شراكة» وبين N.R.Z. لم تزل عند موقفها، لن تعمل نيابة عنهما، لن تكون واجهة لهما. ضحكت ضحكة مريرة: هما الآن

واجهة لكبار الرؤوس، ليستا في حاجة إلى وجاهتك. تذكرت حالها يوم حادث رجاء، وهي تدوِّر عجلة الروليت فتدور إلى فراغ، لا أحد في معارفها ذو شأن غير العمة وهذا بمحض مصادفة، لم تختر ذلك. لم تحرص يوماً على تربية علاقات وأسماء ذات ثقل. ليس لديها من تحتمي به لو احتاجت. ليس لها أي حذاء بالمرة. ليس لها غير فكرها ورؤاها، وهذه أحذية لا تفضي إلاّ إلى الهاوية. فجأة تذكرت اتصالات زينب ليوم حادث رجاء. هل كان يبدو على زينب أن لديها من تتصل به؟ قالت يومها إنها تتصل بالماضي. لم يكن هناك ماضٍ. ربما كانوا، كعلاقات شخصية تخصها، أصدقاء قديمين. لكنهم كأشخاص ذوي شأن، كان الاتصال بهم اتصالاً بالمستقبل.

اتصال بالماضي؟ أم بالمستقبل؟ أصبحت زينب صاحبة امتياز رئيسة تحرير؟ نشوى لم تعد تفهم شيئاً!

في ما بعد عرفت أن العمة رحّبت بغيابها عن شراكة. يفضّل ألاّ تصدر صحيفتان نقيضتا الوجهة باسم العائلة نفسه. لأن طارق نزل بصحيفته منبر الفضيلة، هو الآخر كان له شرط: أن يبعثوا به إلى أميركا ليتدرب. لم يعلن ذلك من قبل. تدرب واشترط وأصدر! كل هذا لم تعرف عنه نشوى شيئاً.

كتبت:

عائشة كان عندها سجنان، في أيهما اضطرت إلى العمل بالدعارة؟

عائشة لم تعمل. دعارتها كانت حدثاً عارضاً. هو الحدث

نفسه الذي هربت بسببه ولمرة أخيرة لكن إلى السجن المركزي.

في الواقع، هي خرجت من السجن مرتين وعادت إليه مرتين.

عودتها الأولى إلى السجن كانت في إثر قبض تلبس. لم تدر تلبساً بماذا إلا في السيارة. حينما وجدت نفسها تساق إلى السجن ضمن بنات داعرات. فوجئت بهن في السيارة، كانت تعرفهن، تعرف أنهن داعرات. إنهن نفس البنات اللواتي كانت تجتنبهن في السجن، مثل غيرها، كل مجتمع السجن كان يجتنبهن، لأنهن يبعن أجسادهن نظير الخروج من السجن ولا يلبثن أن يرجعن إليه. كان السجن قد أصبح بالنسبة إلى هؤلاء وأمثالهن أشبه بفندق يدخلنه لشهر أو شهرين ويخرجن. كانت في غاية الحرج وهي تعود إلى السجن ضمن هؤلاء. ستحتاج إلى وقت كي تشرح الملابسات لتقنع مجتمع السجن بأنها ليست منهن.

لم يصدقها أحد غير الخالة سعدية. وربما حتى هذه لم تصدقها. لكنها الوحيدة التي غفرت زلتها. لم تكن عائشة بحاجة إلى غفران، لأنها لم تزِلّ. لم تنل التصديق، حتى حين خرجت البائعات دونها، لم يكن بوسع ذلك أن يكون دليلاً تقنع به لو واحدة في السجن بأنها ليست من البائعات. ظلت مدانة ومهجورة.

لم يعد من فرق إذاً بينها وبين البائعات، لا فرق إلا أنهن خرجن وهي بقيت في السجن. لا فرق إلا أنها أصبحت في السجن وحيدة لا أحد يصدقها.

في الموسم التالي لخروج البائعات خرجت معهن.

بعد كم عادت مجدداً ونهائياً إلى السجن إلى موطنها الأصلي؟ غير واضح. الأرجح أنها لم تطل. ما دامت عودتها تلك وعلى قدميها راجلة هي بسبب رفضها أن تكون داعرة. عادت هكذا، من دون أن تنتظر إلقاء قبض ومن دون أن تخاف إدانة أو هجر أحد.

هل هذه السيرة نفسها التي قصتها زينب على رجاء، وقصتها رجاء على نشوى!؟ إنها عائشة نفسها. السيرة نفسها. لكن، كلما اختلفت الساردة اختلف السرد. هل هذا ما قالته لها رجاء ذات مرة؟ البطل نفسه. اختلفت البطولات!

بطولة من هذه يا نشوى؟ أين عائشة؟

* * *

كانت قد فشلت كل محاولات إقناع نشوى لتتفهم وضع صديقتيها. لم تقبل. لكن رجاء حصلت على الموافقة ومن دون جهد يذكر. لم تقل شيئاً، دعتها إلى الغداء في واحد من مطاعم الدرجة الأولى. منذ زمن بعيد لم تعد تأكل أو حتى تمر من قبالة تلك المطاعم التي كانت قديماً تسمّيها أوكاراً. المطعم فاخر ولا يشي بشيء شائن أبداً. أليس كذلك؟ نعم. أجابتها صديقتها. عند خروجهما إلى السيارة قالت لها: كنت أنا وصديقي نأكل هنا في تلك المرة، يوم اضطررتك إلى الخسران في لعبة الروليت تلك.

ثم اصطحبتها إلى بيت فاخر لم تكن قد رأته من قبل. عرفتها إلى أمها وأخواتها البنات. هناك ثلاثة إخوة ذكور لا يزال الواحد منهم ينتظر منها مصروفه.

فقط. لا شيء آخر. أعادتها إلى بيتها. في الطريق خطر لها أن تسأل نشوى عن البيت الذي لم تكن قد عرفته من قبل!

– ألا يشبه مدينة طفت فجأة على الماء!

– ربما.

– وقد تغرق في أية لحظة.

– ما الذي يعنيه قولك هذا؟

– لا شيء.. طوال عملي في الدعارة لم أسق إلى قسم شرطة، ليس بسبب الحماية التي تحدثتِ عنها، بل بسبب حرصي. كثيرات دخلن السجن وبدفع من القوادين. القواد لا يحميك. إنه فقط يستثمرك، يحمي مصالحه حتى لو بسجنك. قد يكون قادراً على إخراجك من السجن، لكن قدرته في الأساس هي على إيذائك، سلطاته تستمد من تسلطه عليك. ينبغي أن تكوني جاهزة دائماً لتقلب حاله، لانقلابه عليك. انقلابه ليس بسبب علاقتك به بل بسبب كل علاقاتك، به وبمن يتصل بك ويعرفه. على الرغم من كل ذلك تمكنتُ من النجاة. أدرت علاقاتي القديمة كلها باقتدار. حتى خروجي من تلك المهنة، خططت له ونجحت. الحادث الذي اقتدت فيه إلى المباحث لا علاقة له بالمهنة السابقة ولا اللاحقة ولا طبعاً بعملنا في N.R.Z. لقد كان حادثاً عادياً، يحدث لبنت عادية، بنت جالسة في سيارة وتضحك مع صاحبها. هم لم يسمعوا ضحكتها طبعاً، لكن من مسافة بعيدة رأوها تضحك لصاحبها، داهموهما. لم تقل إنه زوجها، لكن الولد قال. وكانت المشكلة.

في المباحث كانوا يحققون مع بنت عادية، للتو خرجت من

بيت أبيها وتريد أن تصاحب. قد تكون ابنة شخص ثري أعطاها سيارة مرسيدس وهو لا يعرف أين هي الآن. قد يكون مسؤولاً مهماً في الحكومة، ربما في المعارضة. ما اسمك يا .. يا أخت؟ لم تجب الأخت. لكنهم لا يزالون يعاملونها باحترام. فقد تكون ابنة شخص محترم. آخر ما قاله الضابط «اسمعي يا أخت! من حقك ألاّ تتكلمي إلا بوجود محامٍ أو يحضر أهلك. ولأنه ليس لدينا حجز خاص بالنساء، ستقلكِ السيارة إلى المركزي». كان يظن أنه بهذه الجملة سيحل عقدة لساني. سكوتي كان قد أصبح له أكثر من سبب. الأول ذهولي بما يحدث لي، واليوم، لم يحدث لي شيء من هذا أيام المهنة. والثاني أن اتصالي بأحد، كان يعني عودتي إلى المهنة لكن من أوسخ الأبواب. لم أتكلم. قال لأحدهم: ستتكلم في الطريق، أوصلها! وتكلمت. اتصلت بك. والباقي تعرفينه.

– واليوم، أنت بحاجة إذا أدرت عجلة الروليت، أن تقف بك على رقم مضمون!

– شيء واحد أردت أن أقوله لك اليوم. أردت أن أقول لك: انظري إلى البيت الذي لم يمسّه عملي السابق. انظري إلى جهدي في الحفاظ على بيتي.

– ؟

– أنت لا تريدين الجمع بين N.R.Z وبين شراكة، ولا أنا أريد! في المهنة السابقة كان عندي بيتان أحدهما سري كما علمت. هذه المرة عندي عملان. كل الذي أطلبه منك: احتفظي لي بمكان آمن، أعود إليه بعد هذه الرحلة.

– بقي أن تقولي لي، مثلما كنت تقولين ذات فترة: هذا آخر زبون!

التفتت إليها رجاء لا تدري؛ تبكي؟ أم تضحك أولاً؟

١٤

اتصلت بالمستشفى تؤكد حجزها ليوم الوضع. يبدو فؤاد نسي ذلك مجدداً. في وضعها بالمولود الأول كان حاضراً طوال الوقت. هذا هو الوضع بالمولود الثاني. تعب؟! ما الذي سيفعله لو وضعت كأمها سبع مرات؟ حينها سيكون رفاق نضاله وعشيقاته قد استغرقن وقته. كأبيها.

* * *

لا يزال طارق فخوراً بسعاد وربما بعلاقاتها. ولا يزال يستثمر في الأراضي والعقارات، ويكتب عن نهب الأراضي. هناك ضالعون في نهب الأراضي. يبدو أنه يبيعها فقط، بيعاً بعد النهب لا قبله. فما الذي سيفعله لو توقف نهب الأراضي؟ سيبيع سيارات مسروقة. لن يسرقها. سيتولى فقط بيعها.

* * *

أواسط عام ٢٠٠٨ عرضت عليها زينب أن ترافقهم إلى موقع تعرف تماماً كم هي معنية به، بمن فيه. في مهمة للجنة دولية بمرافقة نشطاء في المجتمع المدني. المهمة نسقت لها

زينب. في الواقع، لم يكن في مخيلتها الشيء الكثير وهي تنسق لهذه الفعالية. لكن شيئاً واحداً وأساسياً هو أهم ما خططت له وتنفذه في هذه المهمة: ستخرج عائشة من السجن، وتكفلها، وتتبناها.

هذا الهدف لن يتحقق في يوم وليلة. لكنها على أية حال مسألة وقت. هناك إجراءات لا ريب. إنها تعرف السجن وتعرف تعقيداته. لكنها على أية حال مسافة أيام، أسابيع على الأكثر. من أجل تلك الفترة وعلى سبيل التمهيد لخروج عائشة، أعدت لها في نوع من هدية طبعاً حقيبة ببعض الملابس الجاهزة الجديدة. أهم ما ستجده عائشة وتفرح به حال تفتح حقيبتها: زوج حذاء. في الواقع، لقد اضطرت إلى شراء أكثر من زوج واحد، لأنها لا تعرف ما الذي صار إليه مقاس قدمي عائشة. حين هربت أول مرة كانت قدماها صغيرتين للغاية، قياساً إلى حذاء أمها، الحذاء الذي أخذته خلسة من تحت فراش الخالة سعدية. اليوم لا بد كبرت عائشة وكبر مقاس قدميها.

أصغت نشوى إلى كلام صديقتها إلى آخره. أول كلامها كانت تهم بالاعتذار. لأنها لم ترد أن تذهب إلى السجن وإلى ملاقاة عائشة لأول مرة ضمن قافلة بهذه الصفة وبهذا العدد. لكن كلام زينب كان شفيفاً إلى حد البكاء. هي أيضاً فرت دمعتها.

آخر تلك الزيارة كتبت في دفترها:

لم تُجِد سميحة وصف السجن. لم يكن سجناً ذلك الذي زرته اليوم. كان متاهات من الحديد الصلب والشائك والمصبوب والمصقول والمدبب والمنصوب على شكل قضبان والممهود أو

المبسوط في الأرض صرحاً (لا تتذكر صرح بلقيس هنا، ولا بلقيس، أرجوك!) الممدود جسوراً لعبور الحافيات. جسور أشبه بخراطيم مكعبة.

لماذا كل تلك المتاهات؟ وثمَّة طريق ملكية لخروج السجينة. لا تكلفها أكثر من الالتحاق بآخر فوج لبيع الهوى. طريق للصغيرات فقط. طبعاً للصغيرات فقط. الكبيرات لماذا يخرجن؟ ليزاحمن القوادين؟

إذاً لهذا السبب نُصبت كل تلك المتاهات. لترشيد الخروج!

حين رأيت تلك التعقيدات التي جدت على السجن قلت لنفسي حينها: لهذا السبب لم تُعِد عائشة الكرّة. لكن اتضح في ما بعد أنهم لم يكونوا بحاجة إلى كل ذلك. لم تكن تلك القيود الإضافية السبب في إحجام عائشة عن الهرب.

لم تعد عائشة تهرب إلا منا، من كل شخص غريب، من كل زائر يجيء من السجن الكبير إلى موطنها الأصلي.

ترفض مقابلة الغرباء. قيل لي!

ما إن عرفتْ أنها مطلوبة بالاسم، حتى فرت هاربة وأغلقت على نفسها باب العنبر ٦، بمن فيه من سجينات، مقر إقامتها الدائم.

بشكل ما عبر زميلة لعائشة وعبر حيل لينفتح باب العنبر إلى منتصفه، دفعت إليها زينب بهديتها. من دون أن تنظر إليها ردتها إلينا! «إنما أنتم بهداياكم تفرحون». هذه الجملة لبلقيس، الملكة على عرش سبأ. عائشة قالتها على طريقتها من دون صوت. هكذا تتكلم ملكة لا تقف على شيء.

في الواقع، إنه ميت.. من ليس له أمل في شيء، ولا خوف لديه من شيء، ولا خوف على شيء، ميت. هل عائشة ميتة؟ لا أظن! ها هي لم تزل تهرب وترفض. لا بد لم تزل تخاف وترجو.

لم تقل لكم نشوى: حقيبة الهدية تلك بعد دقائق قليلة من دخولها العنبر ٦ دُفع بها خارجاً. ردت وقد فرغت، وقد أصبحت مزقاً لفرط ما تعرضت للشد والجذب من سجينات العنبر في ما بينهن. زينب مرتاحة لأنه كان في الحقيبة أربعة أزواج أحذية. مهما كان عدد سجينات العنبر لا بد ستحصل عائشة على واحد.

كتبت:

كم زوج حذاء من قبيل ما اشترته زينب لعائشة لبسته هي لثماني عشرة سنة، لم يعد بها إلى بيتها؟ لكنها مرتاحة، حلت المشكلة!

مشكلة من؟ تلك التي حلتها زينب.

١٥

ليست أول مرة يجلب فيها «سعد» الصحيفة ويطلع أباه عليها، ليشير بإصبعه إلى اسم «زينب عتيق الصبّار» الذي يتصدر الصحيفة، صاحبة امتياز رئيسة تحرير. ولم تكن المرة الأولى التي يتجرأ فيها ليقول له: «أروح لها؟». لكنه لم يسأله يوماً: لم لا!

لا! رد مقتضب. لا زيادة عليه. نادراً ما يسمع لهذا الرجل صوت. أحفاده لسعد يتحلقون حوله ويتمسحون به. لا يبعدهم ولا يتكلم معهم. بالكثير يضع يده على رأس الواحد منهم.

منذ عشر سنين لم يغادر حدود بيته. فتح له أسفل البيت دكاناً صغيراً. لا يهدف إلى الربح ولا حتى إلى البيع أحياناً. هكذا تقول قلة السلع في دكانه وردوده المقتضبة على مشترين لا يرفع عينيه إلى وجوههم: لا! لكنه لا يستطيع أن يعيش بلا عمل بالمرة. ولا يحتمل أن يكون عالة على أحد حتى أولاده. بالإضافة إلى الدكان الذي يمضي فيه الوقت، هنالك زاوية في حجرة لا يدخلها الضيوف. يقطع الوقت جالساً من دون حراك، بركبة مثنية وأخرى مطوية، جلسة الناس المعتادة، إلى جوار نافذة كأنه يحرس ألا تفتح حتى ستارتها. لا يزوره أحد ولا يزور أحداً.

لم يسأله سعد: لماذا لا؟ لكنه عرف لماذا في ما بعد، بعد مجيء زينب. كان واقفاً يرقب لقاءهما الأول بعد ثماني عشرة سنة. لم يحرك الأب ساكناً، كما هو في جلسته، كأنما هي تدخل إليه هكذا كل يوم. سلمت عليه كما سرت العادة في سلام الأبناء لآبائهم، لثمت ركبته المثنية، نزلت أبعد لتلثم ركبته المطوية. انهمرت دموعها. انحدرت له دمعة لم يقطفها. لم تسمع له صوتاً وهي أيضاً لم تتكلم. فتحت ذراعيه واندست بينهما. ضم عليها ذراعيه ونام. أغمض عينيه ونام. كأنما لم يُرد أن يعتمد على أحد في إغماض عينيه، بعد نومه الأبدي هذا. حين خرجت من حضنه كانت ذراعاه مفتوحتين، هوتا على

الأرض. خلفها أجهش سعد بالبكاء. ما الذي يعنيه ذلك؟ مسرعة أدارت رأسها لأبيها لتعرف ما الذي يعنيه بكاء أخيها. كان بانتظارك كل تلك السنين ليراك وينام.

عادت زينب إلى بيتها. لم تعش فيه، لكنها لم تعد منفصلة عنه. سبقتها إلى عودة كهذه قبل أربع سنوات رجاء. منذ توفي والدها صيف ٢٠٠٤، لم تغادر بيت أسرتها. عاتبت نفسها: هل كان أبوك هو العائق الوحيد الذي يحول بينك وبين هذا البيت؟ منذ متى أنهيت صلتك بتلك المهنة! ألم يكن حرياً أن ترجعي ولا يزال أبوك هنا؟ يا لقلبك يا رجاء، قسوت عليه وعلى نفسك أيضاً.

تتذكر حضنه في تلك السنوات الثلاث في بيت حميدة، لكم كان حنوناً، لا ينام قبل أن يطمئن على كل فرد في أسرته، يغطي هذا، يرفع الغطاء عن وجه ذاك، يتحسّس قدمي هذه ربما كانت في حاجة إلى غطاء إضافي. بتصاعد طفيف في درجة حمى أحدهم تنهمر دموعه.

كانت دموعه تنهمر حتى لمشهد في التلفزيون يثير مشاعره. مشهد لصياح أحدهم في إثر حادث أو فاجعة. لوقوع مبنى على الأرض. لطرد أحدهم من عمله. لعتاب بين صديقين. لمقطع درامي مهما يكن، فراق أحد، انزواء أحد مهجور في زاوية معتمة. كان أبي قد تحول إلى كومة مشاعر، كومة قش تعبث بها النسمة العابرة. دموع تنساب من غير سبب. لا سبب إلا أن هذا الرجل جرح مكشوف.

من دون مناسبة يسألك: أنت جاوعة، أسخن لش أكل؟ وقد

يطعمك بيده. يهب لعون زوجته في كل شيء تعمله، لحد أنه أحياناً يحل محلها في الطبخ، في الغسيل، في كنس ما حوله ما دام لا يتطلب أن يحني ظهره. كنا ننسى أيهما الأم، كلاهما أكثر حناناً.

في البيت الدافئ نفسه أواخر تلك السنوات الثلاث كان قد بدأ يتكيف مع الوضع. لم يعد ينقبض للساعة التاسعة، لم تعد القدم الغريبة التي تدعس العتبة تؤلمه كأنما دعست روحه. وإن لم يزل يقبع قبالة الشاشة نفسها، شاشة الظل، ليحسب ويعد وينجم: حدث؟ لم يحدث. فرح كثيراً حين تقرر أن يكون فض البكارة بعقد زواج. زواج الليلة الواحدة. رحب بجاسم بفرح، كأنه فعلاً نسيبه، زوج ابنته.

كان قد بدأ يتكيف مع الوضع. بدأ يتقبل أمر أن ابنته بائعة هوى. بدأ يتقبله وربما يقبل عليه. يهب لتقديم العون. يرحب بالضيف، يسأله عما يشرب، في ماذا يرغب، ما الذي يفعله له! يريد أن يخدمه، أن يرضيه، بصدق، بإخلاص وربما بمتعة. ومثلما كانت دموعه تسيل من دون سبب، كان ضحكه ينهرق دونما معنى. لا معنى لذلك الضحك إلا أن هذا الرجل عرض مسفوح.

كعَلَم فقد ملامحه ليبدو لمن يراه مجرد خرقة، مجرد قماش أطلس يصلح لأي شيء إلا أن يكون عَلَماً. كيف تمنع الآخرين أن يمسوا ذلك العَلَم أو يسيئوا إليه؟ كيف تقنعهم: إنه عَلَم. علمٌ لكن ممحوّ!

ربما تكيّفت هي الأخرى مع الوضع الجديد، لو لم تكن

رأت أباها في صغرها كيف كان شامخاً. كان حاتماً في كرمه وخالداً في شجاعته وعُمَراً في مهابته وعلياً في نبله وأثرته. كل ذلك آل إلى قوّاد!

لا تقولي ذلك يا. . . ! لم تقله! من أجل ألا ترى أباها وقد آل إلى مجرد قواد عجلت في مشروع انفصالها عن أسرتها. كان يجب أن توجد جداراً يفصل بين حالين. على أسرتها أن تظل في أحسن حال. وهي؟ ستحاول أن تعود وهي بأفضل. وعادت! لكن وقد غادر أبوها. هل كان لا بد من موت أحدنا يا أبي، كي يضمّنا بيت واحد.

١٦

قلّبت الدفتر، تجاوزت الكثير من الصفحات المكتوبة، والكثير من الصفحات التي لا تزال بيضاء إلا من تواريخ وأسماء وأحياناً تواريخ وحوادث وعناوين. سطور أولى لم يكتب تحتها شيء. قلّبتْ أسرع، عند أول بياض صادفها، كتبتْ: ما الذي يحدث؟ هذه الجملة أو هذا السؤال وفقط لم تضف شيئاً. عنوان أو سطر أول مثل كل تلك السطور المؤجلة وربما المهجورة في دفترها. ما الذي يحدث! لا شيء يا نشوى، في هذه اللحظة لا شيء غير أن أحد طفليك. . طفلتك تتسلق صدرك وتصعد، تريد أن تمسك بنظرك الشاخص في البعيد، لتلفتك إليها. أعطيها حضنك وخلّي لي هذا الدفتر!

نشوى! هناك بالإضافة إلى الصفحات المهجورة صفحات

منزوعة. ما الذي يعنيه ذلك؟ عموماً هناك الكثير من البياض، لتكتب عائشة سيرتها.

نشوى!

هلووو...

هيييي

إلى أين ذهبتِ يا صديقتي؟

إلى البياض! ذهبت إلى تلك الهاوية حتماً. أنا أيضاً، حين لعنتني أمي، قالت لي هكذا: اذهبي إلى البياض!

محبتي لك ولكل عائشاتك وعائشيك

نووون

تشرين الثاني ٢٠٠٩ م

الكتب التي استُعين بها لتدقيق بعض التواريخ والوقائع:

التاريخ العام لليمن، محمد يحيى الحداد، منشورات المدينة، صنعاء، ١٩٨٦.

اليمن الجمهوري، عبد الله البردوني، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، ١٩٨٣.

عمالة الفتيات في اليمن / التكسّب الجنسي، دراسة للكاتبة، بإشراف منظّمة العمل الدولية ILO وبرنامج مكافحة أسوأ أشكال عمالة الأطفال IPEC، ٢٠٠٧، بالإضافة إلى مواقع إنترنت عديدة.

شكر واعتزاز

صديقات شاركن في قراءة ما قبل النشر، بملحوظات أثرت الرواية.

أ. وميض شاكر، أ. سماح الشغدري، أ. بلقيس اللهبي، أ. سامية الحداد، أ. جميلة علي رجاء.

كذلك الأستاذ القدير عبد الباري طاهر.

بالإضافة إلى أسيل، ابنة الكاتبة.

شكر خاص للصديقة العزيزة د. لوسين تامينيان على اصطبارها في قراءة الرواية ومراجعتها أكثر من مرة.

تعتقل الشرطة زينب بتهمة الدعارة. تقرّر التوبة لكن الشعور بالذنب يلاحقها. تعتقد أن الزواج سيخلّصها من معاناتها. ولكن زوجها طارق، الضائع بين إمامته الدينية وهوسه بالنساء، لا يساعدها على النسيان. فهو يراها عاهرة ويغريه ماضيها وعلاقاتها بالرجال، فيما هو في الوقت نفسه غيور مع زوجة أخرى له يخنقها بغيرته وشكه واتهاماته لها.

عائلة يمنية تتشابك مصائر أفرادها في مجتمع تنشط فيه تجارة البغاء، وتعدّد الزوجات، والتطرّف الديني.

نبيلة الزبير كاتبة وباحثة يمنية. فازت روايتها «إنه جسدي» بجائزة نجيب محفوظ عن المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢. لها ست مجموعات شعرية وقصصية.

ISBN 978-1-85516-334-8
9 781855 163348 >

DAR AL SAQI
دار الساقي